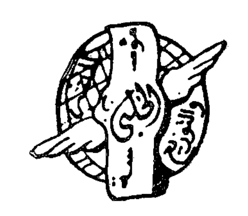


الملل والنحل

تأليف

ابي الفتح محمد عبد الكريم
ابن أبي بكر احمد الشهرستاني

تحقيق الأستاذ

عبد العزيز محمد الوكيل

الجزء الثاني

الناشر
مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع
١٤ شارع جواد حسني — القاهرة
تليفون ٥٦١٥٥

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق

١٩ كنيسة الأرمن في الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

الفصل السابع

أهل الفروع

المختلفون فى الأحكام الشرعية ، والمسائل الاجتهادية .

(١) اعلم أن أصول الاجتهاد وأركانه أربعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . وربما تعود إلى اثنين .

وإنما تلقوا صحة هذه الأركان وانحصارها من إجماع الصحابة رضى الله عنهم . وتلقوا أصل الاجتهاد والقياس وجوازه منهم أيضاً ؛ فإن العلم قد حصل بالتواتر أنهم إذا وقعت لهم حادثة شرعية ، من حلال أو حرام ، فزعوا إلى الاجتهاد ، وابتدءوا بكتاب الله تعالى . فإن وجدوا فيه نصاً أو ظاهراً تمسكوا به ، وأجروا حكم الحادثة على مقتضاه . وإن لم يجدوا فيه نصاً أو ظاهراً فزعوا إلى السنة . فإن روى لهم فى ذلك خبر أخذوا به ، ونزلوا على حكمه ، وإن لم يجدوا الخبر فزعوا إلى الاجتهاد . فكانت أركان الاجتهاد عندهم اثنين أو ثلاثة . ولنا بعدهم : أربعة ؛ إذ وجب علينا الأخذ بمقتضى إجماعهم واتفاقهم ، والجرى على مناهج اجتهادهم .

وربما كان إجماعهم على حادثة إجماعا اجتهاديا ، وربما كان إجماعا مطلقاً لم يصرح فيه باجتهاد ، وعلى الوجهين جميعاً . فالإجماع حجة شرعية لإجماعهم على التمسك بالإجماع. ونحن نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم الذين هم الأئمة الراشدون لا يجتمعون على ضلال . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلاَلَةٍ » .

ولكن الإجماع لا يخلو عن نص خفى أو جلى قد اختصه ، لأنا على القطع نعلم أن الصدر الأول لا يجتمعون على أمر إلا عن تثبت وتوقيف ، فإما أن يكون ذلك النص

فى نفس الحادثة التى اتفقوا على حكمها من غير بيان ما يستند إليه حكمها ، وإما أن يكون النص فى أن الإجماع حجة ، ومخالفة الإجماع بدعة .

وبالجملة مستند الإجماع نص خفىّ أو جلىّ لا محالة ، وإلا فيؤدى إلى إثبات الأحكام المرسلة . ومستند الاجتهاد والقياس هو : الإجماع وهو أيضاً مستند إلى نص مخصوص فى جواز الاجتهاد ، فرجعت الأصول الأربعة فى الحقيقة إلى اثنين ، وربما ترجع إلى واحد ، وهو قول الله تعالى .

وبالجملة نعلم قطعاً ويقيناً أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد ، ونعلم قطعاً أيضاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إذا كانت متناهية ، والوقائع غير متناهية ، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد .

ثم لايجوز أن يكون الاجتهاد مرسلا خارجا عن ضبط الشرع ؛ فإن القياس المرسل شرع آخر . وإثبات حكم من غير مستند وضع آخر . والشارع هو الواضع للأحكام ؛ فيجب على المجتهد ألا يعدل فى اجتهاده عن هذه الأركان .

(ب) وشرائط الاجتهاد خمسة :

١ — معرفة قدر صالح من اللغة بحيث يمكنه فهم لغات العرب ، والتمييز بين الألفاظ الوضعية والاستعارية ، والنص ، والظاهر ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفصل ، وفحوى الخطاب ، ومفهوم الكلام ، وما يدل على مفهومه بالمطابقة ، ومايدل بالتضمن ، وما يدل بالاستتباع . فإن هذه المعرفة كالآلة التى بها يحصل الشىء ، ومن لم يحكم الآلة والأداة لم يصل إلى تمام الصنعة .

٢— ثم معرفة تفسير القرآن ؛ خصوصاً ما يتعلق بالأحكام ، وما ورد من الأخبار فى

معانى الآيات ، وما رؤى من الصحابة المعتبرين : كيف سلكوا مناهجها ؟ وأى معنى فهموا من مدارجها ؟ ولو جهل تفسير سائر الآيات التى تتعلق بالمواعظ والقصص ؛ قيل لم يضره ذلك فى الاجتهاد ، فإن من الصحابة من كان لايدرى تلك المواعظ ، ولم يتعلم بعد جميع القرآن ، وكان من أهل الاجتهاد.

٣ — ثم معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدها ، والإحاطة بأحوال النقلة والرواة : عدولها وثقاتها ، ومطعونها ومردودها . والإحاطة بالوقائع الخاصة فيها ، وما هو عام ورد فى حادثة خاصة ، وما هو خاص عُمِّمَ فى الكل حكمه . ثم الفرق بين الواجب ، والندب ، والإباحة ، والحظر ، والكراهة ، حتى لا يشذ عنه وجه من هذه الوجوه ، ولا يختلط عليه باب بباب .

٤ — ثم معرفة مواقع إجماع الصحابة والتابعين ، وتابعى التابعين من السلف الصالحين ، حتى لا يقع اجتهاده فى مخالفة الإجماع .

٥ — ثم التهدى[1] إلى مواضع الأقيسة ، وكيفية النظر والتردد فيها ، من طلب أصل أولا ، ثم طلب معنى مخيل يستنبط منه ، فيعلق الحكم عليه ، أو شبه يغلب على الظن فيلحق الحكم به .

فهذه خمس شرائط لا بد من مراعاتها حتى يكون المجتهد مجتهداً واجب الاتباع والتقليد فى حق العامى ، وإلا فكل حكم لم يستند إلى قياس واجتهاد مثل ما ذكرنا فهو مرسل مهمل .

قالوا : فإذا حصَّل المجتهد هذه المعارف ساغ له الاجتهاد ، ويكون الحكم الذى أدى إليه اجتهاده سائغاً فى الشرع ، ووجب على العامى تقليده ، والأخذ بفتواه ، وقد استفاض[2] الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : «يا معاذ ، بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن

---

(١) التهدى : الاسترشاد .

(٢) استفاض الخبر : شاع وانتشر .

لم تجد ؟ قال : أجتهد برأيي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضاه » . .

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « لما بعثنى رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم قاضيا إلى اليمن قلت : يارسول الله ! كيف أقضى بين الناس وأنا حديث السن ؟ فضرب رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم بيده على صدرى وقال : اللهم اهد قلبه وثبت لسانه ، فما شككت بعد ذلك فى قضاء بين اثنين » .

١ — أحكام المجتهدين فى الأصول والفروع

ثم اختلف أهل الأصول فى تصويب المجتهدين فى الأصول والفروع .

فعامة أهل الأصول على أن الناظر فى المسائل الأصولية والأحكام العقلية اليقينية القطعية يجب أن يكون متعين الإصابة . فالمصيب فيها واحد بعينه ، ولا يجوز أن يختلف المختلفان فى حكم عقلى حقيقة الاختلاف بالنفى والإثبات على شرط التقابل المذكور ، بحيث ينفى أحدهما ما يثبته الآخر بعينه من الوجه الذى يثبته ، فى الوقت الذى يثبته إلا وأن يقتسما الصدق والكذب ، والحق والباطل ، سواء كان الاختلاف بين أهل الأصول فى الإسلام ، أو بين أهل الإسلام وبين أهل الملل والنحل الخارجة عن الإسلام فإن المختلف فيه لا يحتمل توارد الصدق والكذب ، والصواب والخطإ عليه فى حالة واحدة . وهو مثل قول أحد المخبرين : زيد فى هذه الدار فى هذه الساعة . وقول الثانى : ليس زيد فى هذه الدار فى هذه الساعة . فإنا نعلم قطعا أن أحد المخبرين صادق ، والآخر كاذب ، لأن المخبرَ عنه لايحتمل اجتماع الحالتين فيه معاً ، فيكون زيد فى الدار ولا يكون فى الدار .

لعمرى ! قد يختلف المختلفان فى حكم عقلى فى مسألة . ويكون محل الاختلاف مشتركا ، وشرط تقابل القضيتين نافذا ، فحينئذ يمكن أن يصوب المتنازعان ، ويرتفع النزاع بينهما برفع الاشتراك أو يعود النزاع إلى أحد الطرفين .

مثال ذلك : المختلفان فى مسألة الكلام ليسا يتواردان على معنى واحد بالنفى والإثبات . فإن الذى قال : هو مخلوق ، أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات فى اللسان ، والرقوم والكلمات فى الكتابة . قال : وهذا مخلوق . والذى قال : ليس بمخلوق ؛ لم يرد به الحروف والرقوم . وإنما أراد به معنى آخر ؛ فلم يتواردا بالتنازع فى الخلق على معنى واحد .

وكذلك فى مسألة الرؤية ، فإن النافى قال : الرؤية إنما هى اتصال شعاع بالمرئى ، وهو لا يجوز فى حق البارى تعالى . والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ، ويجوز تعلقه بالبارى تعالى . فلم يتوارد النفى والإثبات على معنى واحد إلا إذا رجع الكلام إلى إثبات حقيقة الرؤية فيتفقان أولا على أنها ما هى ؟ ثم يتكلمان نفيا وإثباتا .

وكذلك فى مسألة الكلام يرجعان إلى إثبات ماهية الكلام ، ثم يتكلمان نفيا وإثباتا ، وإلا فيمكن أن تصدق القضيتان .

وقد صار أبو الحسن العنبرى إلى أن كل مجتهد ناظر فى الأصول مصيب ، لأنه أدى ما كلف به من المبالغة فى تسديد النظر فى المنظور فيه ، وإن كان متعينا نفيا وإثباتا ؛ إلا أنه أصاب من وجه . وإنما ذكر هذا فى الإسلاميين من الفرق . وأما الخارجون عن الملة فقد تقررت النصوص والإجماع على كفرهم وخطئهم . وكان سياق مذهبة يقتضى تصويب كل مجتهد على الإطلاق . إلا أن النصوص والإجماع صدته عن تصويب كل ناظر ، وتصديق كل قائل .

وللأصوليين خلاف فى تكفير أهل الأهواء مع قطعهم بأن المصيب واحد بعينه ، لأن التفكير حكم شرعى ، والتصويب حكم عقلى . فمن مبالغ متعصب لمذهبه كفر وضلل مخالفه ، ومن متساهل متألف لم يكفر .

ومن كفر قرن كل مذهب ومقالة بمقالة واحد من أهل الأهواء والملل ، كتقرين القدرية بالمجوس ، وتقرين المشبهة باليهود ، وتقرين الرافضة بالنصارى . وأجرى حكم هؤلاء فيهم من المناكحة ، وأكل الذبيحة .

ومن تساهل ولم يكفر قضى بالتضليل ، وحكم بأنهم هلكى فى الآخرة .

واختلفوا فى اللعن على حسب اختلافهم فى التكفير والتضليل .

وكذلك من خرج على الإمام الحق بغيا وعدوانا . فإن كان صدر خروجه عن تأول واجتهاد سمى باغيا مخطئا . ثم البغى : هل يوجب اللعن ؟

فعند أهل السنة : إذا لم يخرج بالبغى عن الإيمان لم يستوجب اللعن .

وعند المعتزلة : يستحق اللعن بحكم فسقه ، والفاسق خارج عن الإيمان . وإن كان صدر خروجه عن البغى والحسد والمروق عن الدين فإجماع المسلمين : استحق اللعن باللسان والقتل بالسيف والسنان .

* * *

وأما المجتهدون فى الفروع فاختلفوا فى الأحكام الشرعية من الحلال والحرام ، ومواقع الاختلاف مظانّ غلبات الظنون ، بحيث يمكن تصويب كل مجتهد فيها . وإنما يبتنى ذلك على أصل ، وهو أنا نبحث : هل لله تعالى حكم فى كل حادثة أم لا ؟

فمن الأصوليين من صار إلى أن لا حكم لله تعالى فى الوقائع المجتهد فيها حكما بعينه قبل الاجتهاد ؛ من جواز وحظر ، وحلال وحرام . وإنما حكمه تعالى ما أدى إليه اجتهاد المجتهد ، وأن هذا الحكم منوط بهذا السبب . فما لم يوجد السبب لم يثبت الحكم ؛ خصوصاً على مذهب من قال : إن الجواز والحظر لا يرجعان إلى صفات

فى الذات ، وإنما هى راجعة إلى أقوال الشارع : افعل ، لا تفعل . وعلى هذا المذهب كل مجتهد مصيب فى الحكم .

ومن الأصوليين من صار إلى أن لله تعالى فى كل حادثة حكما بعينه ، قبل الاجتهاد من جواز وحظر ، بل وفى كل حركة يتحرك بها الإنسان حكم تكليف من تحليل وتحريم ، وإنما يرتاده[1] المجتهد بالطلب والاجتهاد ، إذ الطلب لابد له من مطلوب . والاجتهاد يجب أن يكون من شىء إلى شىء ، فالطلب المرسل لا يعقل . ولهذا يتردد المجتهد بين النصوص والظواهر والعمومات ، وبين المسائل المجمع عليها ، فيطلب الرابطة المعنوية ، أو التقريب من حيث الأحكام والصور ، حتى يثبت فى المجتهد فيه مثل ما يلفيه فى المتفق عليه ، ولو لم يكن له مطلوب معين : كيف يصح منه الطلب على هذا الوجه ؟ فعلى هذا المذهب : المصيب واحد من المجتهدين فى الحكم المطلوب ، وإن كان الثانى معذوراً نوع عذر إذ لم يقصر فى الاجتهاد .

ثم : هل يتعين المصيب ، أم لا ؟ فأكثرهم على أنه لا يتعين ، فالمصيب واحد لا بعينه .

ومن الأصوليين من فصل الأمر فيه فقال : ينظر فى المجتهد فيه ، فإن كانت مخالفة النص ظاهرة فى واحد من المجتهدين ، فهو المخطئ بعينه خطأ لا يبلغ تضليلا . والمتمسك بالخبر الصحيح والنص الظاهر مصيب بعينه . وإن لم تكن مخالفة النص ظاهرة فلم يكن مخطئاً بعينه ، بل كل واحد منهما مصيب فى اجتهاده ، وأحدهما مصيب فى الحكم لا بعينه .

هذه جملة كافية فى أحكام المجتهدين فى نوعى : الأصول والفروع . والمسألة مشكلة ، والقضية معضلة .

---

(١) ارتاد الرجل الشىء : طلبه

٢ — حكم الاجتهاد والتقليد ، والمجتهد والمقلد

ثم الاجتهاد من فروض الكفايات ، لا من فروض الأعيان ، إذا اشتغل بتحصيله واحد سقط الفرض عن الجميع ، وإن قصر فيه أهل عصر عصوا بتركه ، وأشرفوا على خطر عظيم . فإن الأحكام الشرعية الاجتهادية إذا كانت مترتبة على الاجتهاد ، ترتب المسبب على السبب ، ولم يوجد السبب : كانت الأحكام عاطلة ، والآراء كلها فائلة[١] . فلا بد إذن من مجتهد .

وإذا اجتهد المجتهدان ، وأدى اجتهاد كل واحد منهما إلى خلاف ما أدى إليه اجتهاد الآخر ، فلا يجوز لأحدهما تقليد الآخر . وكذلك إذا اجتهد مجتهد واحد فى حادثة ، وأدى اجتهاده إلى جواز أو حظر ، ثم حدثت تلك الحادثة بعينها فى وقت آخر ، فلا يجوز له أن يأخذ باجتهاده الأول ، إذ يجوز أن يبدو له فى الاجتهاد الثانى ما أغفله فى الاجتهاد الأول .

وأما العامى فيجب عليه تقليد المجتهد ، وإنما مذهبه فيما يسأله : مذهب من يسأله عنه ، هذا هو الأصل . إلا أن علماء الفريقين لم يجوزوا أن يأخذ العامى الحنفى إلا بمذهب أبى حنيفة ، والعامى الشافعى إلا بمذهب الشافعى ، لأن الحكم بأن لا مذهب للعامى ، وأن مذهبه مذهب المفتى ، يؤدى إلى خلط وخبط ، فلهذا لم يجوزوا ذلك .

وإذا كان مجتهدان فى بلد : اجتهد العامى فيهما حتى يختار الأفضل والأورع ويأخذ بفتواه . وإذا أفتى المفتى على مذهبه ، وحكم به قاض من القضاة على مقتضى فتواه ، ثبت الحكم على المذاهب كلها ، وكان القضاء إذا اتصل بالفتوى ألزم الحكم كالقبض مثلا إذا اتصل بالعقد . ثم العامى بأى شىء يعرف أن المجتهد قد وصل إلى حد الاجتهاد ، وكذلك المجتهد نفسه متى يعرف أنه قد استكمل شرائط الاجتهاد ؟ ففيه نظر .

* * *

(١) فال رأيه يفيل فيلة وفيلولة : أخطأ وضعف .

ومن أصحاب الظاهر مثل داود الأصفهانى وغيره من لم يجوّز القياس والاجتهاد فى الأحكام . وقال : الأصول هى : الكتاب والسنة ، والإجماع فقط ، ومنع أن يكون القياس أصلا من الأصول . وقال : إن أول من قاس إبليس ، وظن أن القياس أمر خارج عن مضمون الكتاب والسنة . ولم يدر أنه طلب حكم الشرع من مناهج الشرع . ولم تنضبط قط شريعة من الشرائع إلا باقتران الاجتهاد بها ؛ لأن من ضرورة الانتشار فى العالم الحكم بأن الاجتهاد معتبر . وقد رأينا الصحابة رضى الله عنهم : كيف اجتهدوا ، وكم قاسوا خصوصاً فى مسائل المواريث من توريث الإخوة مع الجد وكيفية توريث الكلالة ، وذلك مما لا يخفى على المتدبر لأحوالهم .

٣ — أصناف المجتهدين

ثم المجتهدون من أئمة الأمة محصورون فى صنفين ؛ لا يعدوان إلى ثالث .

أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأى

أصحاب الحديث :

وهم أهل الحجاز ، هم أصحاب مالك بن أنس ، وأصحاب محمد بن إدريس الشافعى ، وأصحاب سفيان الثورى ، وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأصحاب داود بن على بن محمد الأصفهانى . وإنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ، ولا يرجعون إلى القياس الجلىّ والخفىّ ما وجدوا خبراً أو أثراً .

وقد قال الشافعى : إذا وجدتم لى مذهباً ، ووجدتم خبراً على خلاف مذهبى ، فاعلموا أن مذهبى ذلك الخبر . ومن أصحابه : أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى ، والربيع بن سليمان الجيزى ، وحرملة بن يحيى التجيبى ، والربيع بن سليمان المرادى ، وأبو يعقوب البويطى ، والحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى ، ومحمد بن عبد الله

ابن عبد الحكم المصرى ، وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبى . وهم لايزيدون على اجتهاده اجتهاداً ، بل يتصرفون فيما نقل عنه ، توجيها ، واستنباطاً ، ويصدرون عن رأيه جملة ، فلا يخالفونه ألبتة .

أصحاب الرأى :

وهم أهل العراق ؛ هم أصحاب أبى حنيفة النعمان بن ثابت . ومن أصحابه : محمد ابن الحسن ، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن محمد القاضى ، وزفر بن الهذيل ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وابن سماعة ، وعافية القاضى ، وأبو مطيع البلخى ، وبشر المريسى .

وإنما سموا أصحاب الرأى ، لأن أكثر عنايتهم بتحصيل وجه للقياس ، والمعنى المستنبط من الأحكام ، وبناء الحوادث عليها . وربما يقدمون القياس الجلى على آحاد الأخبار . وقد قال أبو حنيفة : علمنا هذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى ، ولنا ما رأينا .

وهؤلاء ربما يزيدون على اجتهاده اجتهاداً ، ويخالفونه فى الحكم الاجتهادى . والمسائل التى خالفوه فيها معروفة .

تفرقة وتذكرة :

اعلم أن بين الفريقين اختلافات كثيرة فى الفروع ، ولهم فيها تصانيف ، وعليها مناظرات ، وقد بلغت النهاية فى مناهج الظنون ، حتى كأنهم قد أشرفوا على القطع واليقين ، وليس يلزم من ذلك تكفير ، ولا تضليل ، بل كل مجتهد مصيب كما ذكرنا قبل هذا .

الباب الثانى

أهل الكتاب

الخارجون عن الملة الحنيفية ، والشريعة الإسلامية ممن يقول بشرعية وأحكام ، وحدود وأعلام . وهم قد انقسموا :

إلى من له كتاب محقق مثل التوراة والإنجيل ، وعن هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب .

وإلى من له شبهة كتاب مثل المجوس والمانوية . فإن الصحف التى أنزلت على إبراهيم عليه السلام قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس ، ولهذا يجوز عقد العهد والذمام معهم ، وَيُنْحَى بهم نحو اليهود والنصارى ، إذ هم من أهل الكتاب ، ولكن لا يجوز مناكحتهم ، ولا أكل ذبائحهم ، فإن الكتاب قد رفع عنهم .

فنحن نقدم ذكر أهل الكتاب ، لتقدمهم بالكتاب ، ونؤخر ذكر من له شبهة كتاب .

أهل الكتاب والأمِّيُّون :

الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والأميون ، والأمى من لا يعرف الكتابة . وكانت اليهود والنصارى بالمدينة ، والأميون بمكة .

وأهل الكتاب كانوا ينصرون دين الأسباط[1] ، ويذهبون مذهب بنى إسرائيل ، والأميون كانوا ينصرون دين القبائل ، ويذهبون مذهب بنى إسماعيل. ولما انشعب النور الوارد من آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام ، ثم الصادر عنه إلى شعبتين : شعبة فى بنى إسرائيل ، وشعبة فى بنى إسماعيل . وكان النور المنحدر منه إلى بنى إسرائيل

(١) الأسباط : جمع سبط ، وهو الفريق من اليهود ؛ يقال للعرب قبائل ولليهود أسباط .

ظاهراً ، والنور المنحدر منه إلى بنى إسماعيل مخفياً ؛ كان يستدل على النور الظاهر بظهور الأشخاص وإظهار النبوة فى شخص . ويستدل على النور المخفى بإبانة المناسك والعلامات وستر الحال فى الأشخاص .

وقبلة الفرقة الأولى : بيت المقدس . وقبلة الفرقة الثانية : بيت الله الحرام الذى وضع للناس بمكة مباركا وهدى للعالمين . وشريعة الأولى : ظواهر الأحكام . وشريعة الثانية : رعاية المشاعر الحرام . وخصماء الفريق الأول : الكافرون مثل فرعون وهامان . وخصماء الفريق الثانى : المشركون مثل عبدة الأصنام والأوثان . فتقابل الفريقان وصح التقسيم بهذين التقابلين .

اليهود والنصارى :

وهاتان الأمتان من كبار أمم أهل الكتاب . والأمة اليهودية أكبر لأن الشريعة كانت لموسى عليه السلام ، وجميع بنى إسرائيل كانوا متعبدين بذلك ، مكلفين بالتزام أحكام التوراة .

والإنجيل النازل على المسيح عليه السلام لا يتضمن أحكاما ، ولا يستبطن حلالا ولا حراما ، ولكنه رموز وأمثال ، ومواعظ ومزاجر ، وما سواها من الشرائع والأحكام فمحالة على التوراة كما سنبين . فكانت اليهود لهذه القضية لم ينقادوا لعيسى ابن مريم عليه السلام ، وادعوا عليه أنه كان مأموراً بمتابعة موسى عليه السلام ، وموافقة التوراة ، فغير وبدل . وعدوا عليه تلك التغييرات ، منها : تغيير السبت إلى الأحد . ومنها تغيير أكل لحم الخنزير ، وكان حراما فى التوراة . ومنها : الختان والغسل ، وغير ذلك .

والمسلمون قد بينوا أن الأمتين قد بدلوا وحرفوا ، وإلا فعيسى عليه السلام كان مقرراً لما جاء به موسى عليه السلام ، وكلاهما مبشران بمقدم نبينا محمد نبي الرحمة صلوات الله

عليهم أجمعين . وقد أمرهم أئمتهم وأنبياؤهم وكتابهم بذلك . وإنما بنى أسلافهم الحصون والقلاع بقرب المدينة لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى آخر الزمان . فأمروهم بمهاجرة أوطانهم بالشام إلى تلك القلاع والبقاع ، حتى إذا ظهر وأعلن الحق بفاران[1] ، وهاجر إلى دار هجرته يثرب هجروه وتركوا نصره . وذلك قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ[2]) .

وإنما الخلاف بين اليهود والنصارى ما كان يرتفع إلا بحكمه ، إذ كانت اليهود تقول (لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ[3]) وكانت النصارى تقول : (لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ[4]) وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم : (لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ[5]) وما كان يمكنهم إقامتها إلا بإقامة القرآن الحكيم ، وبحكم نبي الرحمة رسول آخر الزمان . فلما أبوا ذلك وكفروا بآيات الله (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ[6]) الآية .

الفصل الأول

اليهود خاصة

هاد الرجل : أى رجع وتاب . وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام : ـ إنَّا هُدْنا إليكَ ـ أى رجعنا وتضرعنا .

وهم أمة موسى عليه السلام ، وكتابهم التوراة . وهو أول كتاب نزل من السماء ؛ أعنى أن ما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان يسمى كتابا،

---

(١) فاران : جبال بالحجاز ، كانت مظهر النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) البقرة آية ٨٩ .

(٣، ٤) البقرة آية ١١٣ .

(٥) المائدة آية ٦٨ .

(٦) البقرة آية ٦١ .

بل صحفا . وقد ورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنّ الله تعالى خَلَق آدمَ بيدِهِ ، وخلَق جنّة عدنٍ بيدِهِ ، وكتبَ التوراةَ بيدِهِ » فأثبت لها اختصاصاً آخر سوى سائر الكتب . وقد اشتمل ذلك على أسفار . فيذكر مبتدأ الخلق فى السفر الأول . ثم يذكر الأحكام والحدود ، والأحوال والقصص ، والمواعظ والأذكار فى سفر سفر .

وأنزل عليه أيضاً الألواح على شبه مختصر مافى التوراة ؛ تشتمل على الأقسام العلمية والعملية . قال الله تعالى : (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً[(١)]) إشارة إلى تمام القسم العلمى (وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ[(٢)]) إشارة إلى تمام القسم العملى .

قالوا : وكان موسى عليه السلام قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وصيه وفتاه والقائم بالأمر من بعده ليفضى بها إلى أولاد هارون ، لأن الأمر كان مشتركا بينه وبين أخيه هارون عليهما السلام ، إذ قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام فى دعائه حين أوحى إليه أولا : (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي[(٣)]) وكان هو الوصى . فلما مات هارون فى حال حياة موسى انتقلت الوصية إلى يوشع بن نون وديعة ليوصلها إلى شبير وشبر ابنى هارون قراراً . وذلك أن الوصية والإمامة بعضها مستقر ، وبعضها مستودع .

واليهود تدعى أن الشريعة لاتكون إلا واحدة . وهى ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به . فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية ، وأحكام مصلحية .

ولم يجيزوا النسخ أصلا . قالوا : فلا يكون بعده شريعة أصلا ؛ لأن النسخ فى الأوامر بداء ، ولا يجوز البداء على الله تعالى .

ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه . وعلى التشبيه ونفيه ، والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة ، واستحالتها .

(١ ، ٢) الأعراف آية ١٤٥ . (٣) طه آية ٣٢ .

أما النسخ فـكما ذكرنا .

وأما التشبيه فلأنهم وجدوا التوراة ملئت من المتشابهات مثل الصورة ، والمشافهة ، والتـكليم جهراً ، والنزول على طور سينا انتقالا ، والاستواء على العرش استقراراً ، وجواز الرؤية فوقاً وغير ذلك .

وأما القول بالقدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين فى الإسلام . فالربانيون كالمعتزلة فينا ، والقراءون كالمجبرة والمشبهة .

وأما جواز الرجعة فإنما وقع لهم من أمرين ، أحدهما : حديث عزير عليه السلام إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه . والثانى : حديث هارون عليه السلام ، إذ مات فى التيه . وقد نسبوا موسى إلى قتله بألواحه ، قالوا : حسده ، لأن اليهود كانوا أميل إليه منهم إلى موسى . واختلفوا فى حال موته . فمنهم من قال إنه مات وسيرجع . ومنهم من قال: غاب ، وسيرجع .

واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة نبينا المصطفى عليه السلام حقاً ، وكون صاحب الشريعة صادقاً . بله ما حرفوه وغيروه وبدلوه ، إما تحريفاً من حيث الـكتابة ، والصورة . وإما تحريفاً من حيث التفسير والتأويل .

وأظهرها ذكر إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل ، ودعاؤه فى حقه ، وفى حق ذريته ، وإجابة الرب تعالى إياه : إنى باركت على إسماعيل وأولاده ، وجعلت فيهم الخير كله ، وسأظهرهم على الأمم كلها ، وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتى .

واليهود معترفون بهذه القضية ، إلا أنهم يقولون : أجابه بالملك دون النبوة والرسالة.

وقد ألزمتهم أن الملك الذى سلمتم : أهو ملك بعدل وحق أم لا ؟ فإن لم يكن بعدل وحق ، فـكيف يمنّ على إبراهيم عليه السلام بملك فى أولاده وهو جور وظلم ؟ وإن سلمتم العدل والصدق من حيث الملك ، فالملك يجب أن يكون صادقا على الله تعالى فيما

يدعيه ويقوله . وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق ؟ إذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى . ففى تكذيبه تجويره ، وفى التجوير رفع المنة بالنعمة ، وذلك خلف .

ومن العجب أن فى التوراة : أن الأسباط من بنى إسرائيل كانوا يراجعون القبائل من بنى إسماعيل ، ويعلمون أن فى ذلك الشعب علما لدنّيا لم تشتمل التوراة عليه ، وورد فى التواريخ أن أولاد إسماعيل عليه السلام كانوا يسمون آل الله ، وأهل الله ، وأولاد إسرائيل : آل يعقوب ، وآل موسى وآل هارون . وذلك كسر عظيم .

وقد ورد فى التوراة أن الله تعالى جاء من طورسينا ، وظهر بساعير ، وعلن بفاران، وساعير جبال بيت المقدس التى كانت مظهر عيسى عليه السلام . وفاران : جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ولما كانت الأسرار الإلهية ، والأنوار الربانية فى الوحى والتنزيل والمناجاة ، والتأويل على مراتب ثلاث : مبدأ ، ووسط ، وكمال ، والمجىء أشبه بالمبدإ ، والظهور أشبه بالوسط ، والإعلان أشبه بالكمال ؛ عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل : بالمجىء من طورسينا ، وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير ، وعن البلوغ إلى درجة الكمال بالاستواء والإعلان على فاران ، وفى هذه الكلمات : إثبات نبوة المسيح عليه السلام ، والمصطفى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد قال المسيح فى الإنجيل : ما جئت لإبطال التوراة ، بل جئت لأكملها . قال صاحب التوراة : النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . وأنا أقول : « إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فضع له خدك الأيسر » .

والشريعة الأخيرة وردت بالأمرين جميعاً . أما القصاص ففى قوله تعالى : (كُتِبَ

عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى[١]) وأما العفو ففى قوله تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى[٢]) .

ففى أحكام التوراة : أحكام السياسة الظاهرة العامة . وفى الإنجيل : أحكام السياسة الباطنة الخاصة . وفى القرآن أحكام السياستين جميعا (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ[٣]) إشارة إلى تحقيق السياسة الظاهرة . وقوله تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) ، وقوله : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[٤]) إشارة إلى تحقيق السياسة الباطنة . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « هوَ أنْ تعفوَ عمّن ظلمَك ، وتعطى من حرَمك : وتصل من قطعك » .

ومن العجب أن من رأى غيره يصدق ما عنده ويكمله ويرقيه من درجة إلى درجة ، كيف يسوغ له تكذيبه ؟ والنسخ فى الحقيقة ليس إبطالا ، بل هو تكميل .

وفى التوراة أحكام عامة ، وأحكام خاصة ، إما بأشخاص ، وإما بأزمان . وإذا انتهى الزمان لم يبق ذلك لا محالة ، ولا يقال إنه إبطال أو بداء . كذلك هاهنا .

وأما السبت فلو أن اليهود عرفوا : لم ورد التكليف بملازمة السبت ، وهو يوم أى شخص من الأشخاص ؟ وفى مقابلة أية حالة من الأحوال ؟ وجزئى أى زمان ؟ عرفوا أن الشريعة الأخيرة حق ، وأنها جاءت لتقرير السبت لا لإبطاله ، وهم الذين عدوا فى السبت حتى مسخوا قردة خاسئين . وهم يعترفون بذلك ، وبأن موسى عليه السلام بنى بيتا وصور فيه صوراً وأشخاصاً ، وبين مراتب الصور ، وأشار إلى تلك الرموز . ولكن لما فقدوا الباب ، باب حطة ؛ ولم يمكنهم التسور على سنن اللصوص ، تحيروا تائهين ، وتاهوا متحيرين ، فاختلفوا على إحدى وسبعين فرقة .

ونحن نذكر منها أشهرها وأظهرها عندهم ، ونترك الباقى هملا ، والله الموفق .

(١ ، ٢ ، ٣) البقرة آية ١٧٨ ، ٢٣٧ ، ١٧٩ .

(٤) الأعراف آية ١٩٩ .

١ — العِنانية

نسبوا إلى رجل يقال له عنان بن داود ، رأس الجالوت . يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد ، وينهون عن أكل الطير والظباء والسمك والجراد ، ويذبحون الحيوان على القفا ، ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإشاراته . ويقولون إنه لم يخالف التوراة ألبتة ، بل قررها ، ودعا الناس إليها . وهو من بنى إسرائيل المتعبدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام ؛ إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته .

ومن هؤلاء من يقول : إن عيسى عليه السلام لم يدع أنه نبي مرسل ، وليس من بنى إسرائيل ، وليس هو صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام ، بل هو من أولياء الله المخلصين العارفين بأحكام التوراة . وليس الإنجيل كتاباً أنزل عليه وحيا من الله تعالى ، بل هو جمع أحواله من مبدئه إلى كماله . وإنما جمعه أربعة من أصحابه الحواريين فكيف يكون كتاباً منزلا ؟

قالوا : واليهود ظلموه حيث كذبوه أولا ، ولم يعرفوا بعد دعواه ، وقتلوه آخرا ، ولم يعلموا بعد محله ومغزاه . وقد ورد في التوراة ذكر المشيحا في مواضع كثيرة ، وذلك هو المسيح ؛ ولكن لم ترد له النبوة ، ولا الشريعة الناسخة . وورد فارقليط وهو الرجل العالم ؛ وكذلك ورد ذكره في الإنجيل ، فوجب حمله على ما وجد . وعلى من ادعى غير ذلك تحقيقه وحده .

٢ — العِيسوِيّة

نسبوا إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني . وقيل : إن اسمه عوفيد ألوهيم ، أي عابد الله . كان من زمن المنصور ، وابتدأ دعوته من زمن آخر ملوك بنى أمية : مروان بن محمد الحمار ، فاتبعه بشر كثير من اليهود ، وادّعوا له آيات ومعجزات ،

وزعموا أنه لما حورب خط على أصحابه خطا بعود آس ، وقال : أقيموا فى هذا الخط ، فليس ينالكم عدو بسلاح . فكان العدو يحملون عليهم حتى إذا بلغوا الخط رجعوا عنهم خوفاً من طلسم أو عزيمة ربما وضعها . ثم إن أبا عيسى خرج من الخط وحده على فرسه فقاتل وقتل من المسلمين كثيرا . وذهب إلى أصحاب موسى بن عمران الذين هم وراء النهر المرمل ليسمعهم كلام الله . وقيل لما حارب أصحاب المنصور بالرى قتل وقتل أصحابه .

زعم أبو عيسى أنه نبي ؛ وأنه رسول المسيح المنتظر . وزعم أن للمسيح خمسة من الرسل يأتون قبله واحداً بعد واحد . وزعم أن الله تعالى كلمه ، وكلفه أن يخلص بنى إسرائيل من أيدى الأمم العاصين ، والملوك الظالمين . وزعم أن المسيح أفضل ولد آدم ؛ وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضين ، وإذ هو رسوله فهو أفضل الكل أيضاً . وكان يوجب تصديق المسيح ؛ ويعظم دعوة الداعى ، ويزعم أيضاً أن الداعى هو المسيح .

وحرم فى كتابه الذبائح كلها ، ونهى عن أكل كل ذى روح على الإطلاق طيرا كان أو بهيمة . وأوجب عشر صلوات ؛ وأمر أصحابه بإقامتها وذكر أوقاتها ، وخالف اليهود فى كثير من أحكام الشريعة الكثيرة المذكورة فى التوراة .

وتوراة الناس هى التى جمعها ثلاثون حبرا لبعض ملوك الروم حتى لا يتصرف فيها كل جاهل بمواضع أحكامها ، والله الموفق .

٣ — المقَارِبَةُ واليُوذْعَانيةَّ

نسبوا إلى يوذعان من همدان . وقيل : كان اسمه يهوذا . كان يحث على الزهد ، وتكثير الصلاة ، وينهى عن اللحوم والأنبذة . وفيما نقل عنه تعظيم أمر الداعى . وكان يزعم أن للتوراة ظاهراً وباطنا ، وتنزيلا وتأويلا . وخالف بتأويلاته عامة اليهود ،

وخالفهم فى التشبيه ومال إلى القدر . وأثبت الفعل حقيقة للعبد ، وقدر الثواب والعقاب عليه ، وشدد فى ذلك .

ومنهم : الموشكانية : أصحاب موشكان . كان على مذهب يوذعان غير أنه كان يوجب الخروج على مخالفيه ، ونصب القتال معهم . فخرج فى تسعة عشر رجلا فقتل بناحية قم . وذكر عن جماعة من الموشكانية أنهم أثبتوا نبوة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام إلى العرب وسائر الناس سوى اليهود ، لأنهم أهل ملة وكتاب .

وزعمت فرقة من المقاربة أن الله تعالى خاطب الأنبياء عليهم السلام بواسطة ملك اختاره ، وقدمه على جميع الخلائق واستخلفه عليهم . وقالوا : كل ما فى التوراة وسائر الكتب من وصف الله تعالى ، فهو خبر عن ذلك الملك ، وإلا فلا يجوز أن يوصف الله تعالى بوصف . قالوا : وإن الذى كلم موسى عليه السلام تكليما هو ذلك الملك . والشجرة المذكورة فى التوراة هو ذلك الملك . ويتعالى الرب تعالى عن أن يكلم بشراً تكليما . وحمل جميع ما ورد فى التوراة من طلب الرؤية : وشافهت الله ، وجاء الله ، وطلع الله فى السحاب ، وكتب التوراة بيده ، واستوى على العرش استقراراً ، وله صورة آدم ، وشعرقطط ، ووفرة[1] سوداء ، وأنه بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه ، وأنه ضحك الجبار حتى بدت نواجذه ، إلى غير ذلك ، على ذلك الملك . قال : ويجوز فى العادة أن يبعث ملكا روحانياً من جملة خواصه ، ويلقى عليه اسمه ، ويقول : هذا هو رسولى ، ومكانه فيكم مكانى ، وقوله قولى ، وأمره أمرى ، وظهوره عليكم ظهورى ، كذلك يكون حال ذلك الملك .

وقيل إن أرنوس حيث قال فى المسيح إنه هو الله ، وإنه صفوة العالم ، أخذ قوله من هؤلاء ، وكانوا قبل أرنوس بأربعمائة سنة ، وهم أصحاب زهد وتقشف .

وقيل صاحب هذه المقالة هو : بنيامين النهاوندى ، قرر لهم هذا المذهب وأعلمهم أن الآيات المتشابهات فى التوراة كلها مؤولة ، وأنه تعالى لا يوصف بأوصاف البشر ،

(١) الوفرة : الشعر إلى الأذنين .

ولا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء منها ، وأن المراد بهذه الكلمات الواردة في التوراة ذلك الملك المعظم .

وهذا كما يحمل فى القرآن المجيء ، والإتيان على إتيان ملك من الملائكة ، وهو كما قال تعالى فى حق مريم عليها السلام (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا[١]) . وفى موضع آخر : (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا[٢]) وإنما النافخ جبريل عليه السلام ، حين تمثل لها بشراً[٣] سويًّا ليهب لها غلاماً زكيًّا .

٤ — السّامرة

هؤلاء قوم يسكنون جبال بيت المقدس وقرايا من أعمال مصر ، ويتقشفون فى الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود ، أثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام . وأنكروا نبوة من بعدهم من الأنبياء إلا نبياً واحداً ، وقالوا : التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتى من بعد موسى ، يصدق ما بين يديه من التوراة ، ويحكم بحكمها ، ولا يخالفها ألبتة .

وظهر فى السامرة رجل يقال له الألفان ، ادعى النبوة وزعم أنه هو الذى بشر به موسى عليه السلام ، وأنه هو الكوكب الدرىّ الذى ورد فى التوراة أنه يضيء ضوء القمر ، وكان ظهوره قبل المسيح عليه السلام بقريب من مائة سنة .

وافترقت السامرة إلى دوستانيه وهم الألفانية ، وإلى كوستانية . والدوستانية معناها : الفرقة المتفرقة الكاذبة . والكوستانية معناها : الجماعة الصادقة . وهم يقرون بالآخرة ،

---

(١) الأنبياء آية ٩١ . (٢) التحريم آية ١٢ .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة مريم آية ١٧، ١٨، ١٩ : (فتمثل لها بشراً سويا . قالت أعوذ بالله منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) .

والثواب والعقاب فيها . والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب فى الدنيا . وبين الفريقين اختلاف فى الأحكام والشرائع .

وقبلة السامرة جبل يقال له غريزيم بين بيت المقدس ونابلس . قالوا : إن الله تعالى أمر داود أن يبنى بيت المقدس بجبل نابلس وهو الطور الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام . فتحول داود إلى إيلياء وبنى البيت ثمة ، وخالف الأمر فظلم . والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر اليهود ، ولغتهم غير لغة اليهود ، وزعموا أن التوراة كانت بلسانهم وهى قريبة من العبرانية فنقلت إلى السريانية .

فهذه أربع فرق هم الكبار . وانشعبت منهم الفرق إلى إحدى وسبعين فرقة .

وهم بأسرهم أجمعوا على أن فى التوراة بشارة بواحد بعد موسى ، وإنما افتراقهم إما فى تعيين ذلك الواحد ، أو فى الزيادة على ذلك الواحد ، وذكر المشيحا وآثاره ظاهر فى الأسفار ، وخروج واحد فى آخر الزمان هو الكوكب المضىء الذى تشرق الأرض بنوره أيضاً متفق عليه ، واليهود على انتظاره ، والسبت يوم ذلك الرجل ، وهو يوم الاستواء بعد الخلق .

وقد اجتمعت اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقياً على قفاه ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى .

وقالت فرقة منهم إن ستة الأيام التى خلق الله تعالى فيها السموات والأرض هى ستة آلاف سنة . فإن يوماً عند الله كألف سنة مما تعدون ، بالسير القمرى ، وذلك هو ما مضى من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وبه يتم الخلق .

ثم إذا بلغ الخلق إلى النهاية ابتدأ الأمر . ومن ابتداء الأمر يكون الاستواء على العرش ، والفراغ من الخلق . وليس ذلك أمراً كان ومضى ، بل هو فى المستقبل إذا عددنا الأيام بالألوف .

الفصل الثانى

النصارى

النصارى أمة المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عليه السلام . وهو المبعوث حقًا بعد موسى عليه السلام ، المبشر به فى التوراة . وكانت له آيات ظاهرة ، وبينات زاهرة ، ودلائل باهرة . مثل إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه[١] والأبرص ، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه . وذلك حصوله من غير نطفة سابقة . ونطقه البين من غير تعليم سالف . وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعون سنة . وقد أوحى الله تعالى إليه إنطاقا فى المهد ، وأوحى إليه إبلاغا عند الثلاثين . وكانت مدة دعوته ثلاث سنين ، وثلاثة أشهر ، وثلاثة أيام .

فلما رفع إلى السماء اختلف الحواريون وغيرهم فيه . وإنما اختلافاتهم تعود إلى أمرين :

أحدهما : كيفية نزوله واتصاله بأمه ، وتجسد الكلمة .

والثانى : كيفية صعوده ، واتصاله بالملائكة ، وتوحد الكلمة .

أما الأول فإنهم قضوا بتجسد الكلمة ، ولهم فى كيفية الاتحاد والتجسد كلام :

فنهم من قال : أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف . ومنهم من قال : انطبع فيه انطباع النقش فى الشمع . ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى . ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت . ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء ، والماء اللبن .

وأثبتوا لله تعالى أقانيم[٢] ثلاثة . قالوا : البارى تعالى جوهر واحد ، يعنون به القائم

(١) الأكمه . من كمه يكمه كمها مثل تعب يتعب تعبا ، فهو أكمه وهى كمهاء ؛ وهو العمى يولد عليه الإنسان ، وربما كان من مرض .

(٢) الأقنوم : الأصل والشخص ، والكلمة من الدخيل .

بالنفس ، لا التحيز والحجمية . فهو واحد بالجوهرية ، ثلاثة بالأقنومية ، ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم . وسموها : الأب والإبن ، وروح القدس ، وإنما العلم تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم .

وقالوا فى الصعود إنه قتل وصلب ، قتله اليهود حسداً وبغيا ، وإنكاراً لنبوته ودرجته . ولكن القتل ما ورد على الجزء اللاهوتى ، وإنما ورد على الجزء الناسوتى . قالوا : وكمال الشخص الإنسانى فى ثلاثة أشياء : نبوة ، وإمامة ، وملكة . وغيره من الأنبياء كانوا موصوفين بهذه الصفات الثلاث أو ببعضها . والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الابن الوحيد فلا نظير له ، ولا قياس له إلى غيره من الأنبياء ، وهو الذى به غفرت زلة آدم عليه السلام ، وهو الذى يحاسب الخلق .

ولهم فى النزول اختلاف . فمنهم من يقول : ينزل قبل يوم القيامة كما قال أهل الإسلام . ومنهم من يقول : لا نزول له إلا يوم الحساب . وهو بعد أن قتل وصلب نزل ورأى شخصه شمعون الصفا ، وكلمه وأوصى إليه ، ثم فارق الدنيا وصعد إلى السماء . فكان وصيه شمعون الصفا وهو أفضل الحواريين علما وزهداً وأدبا . غير أن فولوس شَوَّش أمره ، وصير نفسه شريكا له ، وغير أوضاع كلامه ، وخلطه بكلام الفلاسفة ووساوس خاطره .

ورأيت رسالة فولوس التى كتبها إلى اليونانيين : إنكم تظنون أن مكان عيسى عليه السلام كمكان سائر الأنبياء وليس كذلك . بل إنما مثله مثل « ملكيزداق » وهو ملك السلام الذى كان إبراهيم عليه السلام يعطى إليه العشور . وكان يبارك على إبراهيم ويمسح رأسه ومن العجب أنه نقل فى الأناجيل أن الرب تعالى قال : إنك أنت الابن الوحيد ، ومن كان وحيداً كيف يمثل بواحد من البشر ؟

ثم إن أربعة من الحواريين اجتمعوا وجمع كل واحد منهم جمعاً سماه الإنجيل . وهم : متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا . وخاتمة إنجيل متى أنه قال : إنى أرسلكم إلى الأمم كما أرسلنى أبى إليكم . فاذهبوا وادعوا الأمم باسم الآب ، والابن ، وروح القدس .

وفاتحة إنجيل يوحنا : على القديم الأزلى قد كانت الكلمة ، وهو ذا الكلمة كانت عند الله ، والله هو كان الكلمة ، وكل كان بيده .

ثم افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة ، وكبار فرقهم ثلاث : الملكانية ، والنسطورية ، واليعقوبية ، وانشعبت منها : الإليانية ، والبليارسية ، والمقدانوسية والسبالية والبوطينوسية ، والبولية ، إلى سائر الفرق .

١ — الملكانية

أصحاب ملكا الذى ظهر بأرض الروم واستولى عليها . ومعظم الروم ملكانية . قالوا : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح ، وتدرعت بناسوته . ويعنون بالكلمة : أقنوم العلم ، ويعنون بروح القدس : أقنوم الحياة ، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا ، بل المسيح مع ما تدرع به ابن ، فقال بعضهم : إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن .

وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الأقانيم ، وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث ، وأخبر عنهم القرآن (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ[١]) وقالت الملكانية : إن المسيح ناسوت[٢] كلى لا جزئى ، وهو قديم أزلى ، من قديم أزلى ، وقد ولدت مريم عليها السلام إلها أزليا ، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت[٣] معاً ، وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عز وجل وعلى المسيح لما وجدوا فى الإنجيل حيث قال : إنك أنت الابن الوحيد ، وحيث قال له شمعون الصفا : إنك ابن الله حقا .

ولعل ذلك من مجاز اللغة ، كما يقال لطلاب الدنيا : أبناء الدنيا ، ولطلاب الآخرة : أبناء الآخرة ، وقد قال المسيح عليه السلام للحواريين : « أنا أقول لكم : أحبوا أعداءكم

---

(١) المائدة آية ٧٣ .

(٢) الناسوت : كلمة سريانية الأصل ومعناها : طبيعة الإنسان . وقيل : أصلها الناس زيد فى آخرها واو وتاء مثل ملكوت وجبروت .

(٣) كلمة سريانية بمعنى الألوهة ، وقيل أصله لاه بمعنى إله زيدت فيه الواو والتاء .

وباركوا على لاعنيكم ، وأحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل من يؤذيكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماء ، الذى تشرق شمسه على الصالحين والفجرة ، وينزل قطره على الأبرار والأثمة ، وتكونوا تامين كما أن أباكم الذى فى السماء تام » وقال : « انظروا صدقاتكم فلا تعطوها قدّام الناس لتراءوهم فلا يكون لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماء » وقال حين كان يصلب « أذهب إلى أبى وأبيكم » .

ولما قال أريوس : القديم هو الله ، والمسيح هو مخلوق ، اجتمعت البطارقة والمطارنة والأساقفة فى بلد قسطنطينية بمحضر من ملكهم ، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا ، واتفقوا على هذه الكلمة اعتقاداً ودعوة ، وذلك قولهم :

« نؤمن بالله الواحد الآب[1] مالك كل شىء ، وصانع ما يرى وما لا يرى ، وبالابن الواحد يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شىء من أجلنا ، ومن أجل معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانا ، وحبل به ، وولد من مريم البتول ، وقتل وصلب أيام فيلاطوس ودفن ، ثم قام فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه . وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد ، روح الحق الذى يخرج من أبيه . وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا . وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية ، وبقيام أبداننا . وبالحياة الدائمة أبد الآبدين » .

هذا هو الاتفاق الأول على هذه الكلمات ، وفيه إشارة إلى حشر الأبدان .

وفى النصارى من قال بحشر الأرواح دون الأبدان ، وقال إن عاقبة الأشرار فى القيامة غم وحزن الجهل . وعاقبة الأخيار : سرور وفرح العلم . وأنكروا أن يكون فى الجنة نكاح وأكل وشرب .

وقال مار إسحاق منهم : إن الله تعالى وعد المطيعين وتوعد العاصين . ولا يجوز أن

---

(١) الآب : عند النصارى : الأقنوم الأول .

يخلف الوعد لأنه لا يليق بالكريم ، ولكن يخلف الوعيد ، فلا يعذب العصاة ، ويرجع الخلق إلى سرور وسعادة ونعيم . وعمم هذا الكل ؛ إذ العقاب الأبدى لا يليق بالجواد الحق تعالى .

٢ — النَّسطورِيَّة

أصحاب نسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون ، وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه . وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة . قال : إن الله تعالى واحد ، ذو أقانيم ثلاثة : الوجود ، والعلم ، والحياة . وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ، ولا هى هو . واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام ، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية ، ولكن كإشراق الشمس فى كوة على بلورة . وكظهور النقش فى الشمع إذا طبع بالخاتم .

وأشبه المذاهب بمذهب نسطور فى الأقانيم : أحوال أبى هاشم من المعتزلة ، فإنه يثبت خواص مختلفة لشىء واحد ، ويعنى بقوله : واحد ، يعنى الإله . قال هو واحد بالجوهر ، أى ليس هو مركباً من جنسين بل هو بسيط وواحد . ويعنى بالحياة والعلم أقنومين جوهرين ، أى أصلين مبدأين للعالم . ثم فسر العلم بالنطق ، والكلمة . ويرجع منتهى كلامه إلى إثبات كونه تعالى موجوداً ، حياً ، ناطقاً كما تقول الفلاسفة فى حد الإنسان ، إلا أن هذه المعانى تتغاير فى الإنسان لكونه جوهراً مركباً ، وهو جوهر بسيط غير مركب .

وبعضهم يثبت لله تعالى صفات أخر بمنزلة القدرة والإرادة ونحوهما . ولم يجعلوها أقانيم كما جعلوا الحياة والعلم أقنومين .

ومنهم من أطلق القول بأن كل واحد من الأقانيم الثلاثة : حى ، ناطق ، إله . وزعم الباقون أن اسم الإله لا يطلق على كل واحد من الأقانيم .

وزعموا أن الابن لم يزل متولداً من الآب ، وإنما تجسد واتحد بجسد المسيح حين ولد.

والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت ، فهو إله وإنسان اتحدا ، وهما جوهران ، أقنومان طبيعتان : جوهر قديم ، وجوهر محدث ، إله تام وإنسان تام . ولم يبطل الاتحاد قدم القديم ، ولا حدوث المحدث ، لكنهما صارا مسيحاً واحداً ، طبيعة واحدة . وربما بدلوا العبارة فوضعوا مكان الجوهر : الطبيعة ، ومكان الأقنوم : الشخص .

وأما قولهم فى القتل والصلب فيخالف قول الملكانية واليعقوبية . قالوا إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، لأن الإله لا تحله الآلام .

وبوطينوس ، وبولس الشمشاطى يقولان : إن الإله واحد ، وإن المسيح ابتدأ من مريم عليها السلام ، وإنه عبد صالح مخلوق ؛ إلا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته وسماه ابنا على التبنى ، لا على الولادة والاتحاد .

ومن النسطورية قوم يقال لهم المصلين ، قالوا فى المسيح مثل ما قال نسطور ، إلا أنهم قالوا : إذا اجتهد الرجل فى العبادة ، وترك التغذى باللحم ، والدسم ، ورفض الشهوات الحيوانية ، والنفسانية ، تصفى جوهره حتى يبلغ ملكوت السماوات ويرى الله تعالى جهرة ، وينكشف له ما فى الغيب فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ومن النسطورية من ينفى التشبيه ، ويثبت القول بالقدر ؛ خيره وشره من العبد كما قالت القدرية .

٣ — اليعقوبية

أصحاب يعقوب . قالوا بالأقانيم الثلاثة كما ذكرنا ، إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحما ودما ، فصار الإله هو المسيح . وهو الظاهر بجسده ، بل هو هو . وعنهم أخبرنا القرآن الكريم (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ[1]) .

---

(١) المائدة آية ٧٢ .

فمنهم من قال : إن ا سيح هو الله تعالى .

ومنهم من قال : ظهر اللاهوت بالناسوت ، فصار ناسوت المسيح مظهر الجوهر ، لا على طريق حلول جزء فيه ، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التى هى فى حكم الصفة ، بل صار هو هو ، وهذا كما يقال : ظهر المَلَكُ بصورة إنسان ، أو ظهر الشيطان بصورة حيوان ، وكما أخبر التنزيل عن جبريل عليه السلام (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا[1]) .

وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد ، أقنوم واحد ، إلا أنه من جوهرين وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعتين ، فجوهر الإله القديم ؛ وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيباً كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً ، أقنوماً واحداً ، وهو إنسان كله وإله كله ، فيقال : الإنسان صار إلها ، ولا ينعكس فلا يقال : الإله صار إنسانا . كالفحمة تطرح فى النار فيقال : صارت الفحمة ناراً ، ولا يقال صارت النار فحمة ، وهى فى الحقيقة لا نار مطلقة ، ولا فحمة مطلقة ، بل هى جمرة . وزعموا أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئى لا الكلى . وربما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج والادراع[2] ، والحلول كحلول صورة الإنسان فى المرآة المجلوة .

* * *

وأجمع أصحاب التثليث كلهم على أن القديم لا يجوز أن يتحد بالمحدث ، إلا أن الأقنوم الثانى الذى هو الكلمة اتحدت دون سائر الأقانيم .

وأجمعوا كلهم على أن المسيح عليه السلام ولد من مريم عليها السلام ، وقتل وصلب .

ثم اختلفوا فى كيفية ذلك ، فقالت الملكانية واليعقوبية : إن الذى ولد من مريم هو الإله : فالملكانية لما اعتقدت أن المسيح ناسوت كلى أزلى ، قالوا : إن مريم إنسان جزئى ، والجزئى ، لا يلد الكلى ، وإنما ولده الأقنوم القديم ، واليعقوبية لما اعتقدت أن

---

(١) مريم آية ١٧ .

(٢) مأخوذ من قولهم : ادرع فلان الليل ، دخل فى ظلمته بمعنى أحاطت به .

المسيح هو جوهر من جوهرين ، وهو إله ، وهو المولود ، قالوا : إن مريم ولدت إلهاً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وكذلك قالوا فى القتل والصلب : إنه وقع على الجوهر الذى هو من جوهرين ، قالوا : ولو وقع على أحدهما لبطل الاتحاد .

وزعم بعضهم أنا نثبت وجهين للجوهر القديم : فالمسيح قديم من وجه ، محدث من وجه .

وزعم قوم من اليعقوبية أن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً ، لكنها مرت بها كالماء بالميزاب[1] ، وماظهر بها شخص المسيح فى الأعين فهو كالخيال والصورة فى المرآة ، وإلا فما كان جسما متجسما كثيفاً فى الحقيقة . وكذلك القتل والصلب إنما وقع على الخيال والحسبان ، وهؤلاء يقال لهم الإليانية . وهم قوم بالشام ، واليمن ، وأرمينية ، قالوا : وإنما صلب الإله من أجلنا حتى يخلصنا . وزعم بعضهم أن الكلمة كانت تداخل جسم المسيح عليه السلام أحياناً ، فتصدر عنه الآيات ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وتفارقه فى بعض الأوقات فترد عليه الآلام والأوجاع .

ومنهم بليارس وأصحابه ، حكى عنه أنه كان يقول : إذا صار الناس إلى الملكوت الأعلى أكلوا ألف سنة ، وشربوا ، وناكحوا ، ثم صاروا إلى النعم التى وعدهم آريوس ؛ وكلها لذة ، وراحة ، وسرور وحبور ، لا أكل فيها ولاشرب ولانكاح .

وزعم مقدانيوس أن الجوهر القديم أقنومان فحسب : آب ، وابن ، والروح مخلوق .

وزعم سباليوس أن القديم جوهر واحد ، أقنوم واحد ، له ثلاث خواص ، واتحد بكليته بجسد عيسى ابن مريم عليهما السلام .

وزعم آريوس أن الله واحد ، سماه أبا . وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء ، وهو مخلوق قبل خلق العالم ، وهو خالق الأشياء ، وزعم أن لله تعالى روحاً

---

(١) الميزاب : القناة يجرى فيها الماء من وزب الماء يزب وزوبا : سال ، ويجمع على ميازيب .

مخلوقة أكبر من سائر الأرواح ، وأنها واسطة بين الآب والابن ، تؤدى إليه الوحى — وزعم أن المسيح ابتدأ جوهراً ، لطيفاً ، روحانياً ، خالصاً ، غير مركب ، ولا ممزوج بشىء من الطبائع الأربع ، وإنما تدرع بالطبائع الأربع عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم .

وهذا آريوس قبل الفرق الثلاث ، فتبرءوا منه لمخالفتهم إياه فى المذهب .

الباب الثالث

من له شبهة كتاب

(ا) قد بينا كيفية تحقيق الكتاب ، وميزنا بين حقيقة الكتاب وشبهة الكتاب، وأن الصحف التي كانت لإبراهيم عليه السلام كانت شبهة كتاب ، وفيها مناهج علمية ، ومسالك عملية .

أما العلميات فتقرير كيفية الخلق والإبداع ، وتسوية المخلوقات على سنة نظام وقوام تحصل منها حكمته الأزلية ، وتنفذ فيها مشيئته السرمدية[1] . ثم تقرير التقدير والهداية عليها ، ليتقدر كل نوع وصنف بقدره المحكوم المحتوم ، ويقبل هدايته السارية فى العالم بقدر استعداده المعلوم . والعلم كل العلم لا يعدو هذين النوعين ، وذلك قوله تعالى : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى[2]) وقال عزوجل خبراً عن إبراهيم عليه السلام : (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ[3]) وخبراً عن موسى عليه السلام : (الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى[4]) .

وأما العمليات ، فتزكية النفوس عن درن الشبهات ، وذكر الله تعالى بإقامة العبادات ، ورفض الشهوات الدنيوية ، وإيثار السعادات الأخروية ، ولن يحصل البلوغ إلى كمال المعاد إلا بإقامة هذين الركنين : أعنى الطهارة ، والشهادة . والعمل كل العمل

---

(١) السرمدى : الدائم .
(٢) الأعلى آية ١ ـ ٣ .
(٣) الشعراء آية ٧٨ .
(٤) طه آية ٥٠ .

لا يعدوهذين النوعين ، وذلك قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى[١]) .

ثم قال عز وجل من قائل : (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى[٢]) فبين أن الذى اشتملت عليه الصحف هو الذى اشتملت عليه هذه السورة .

وبالحقيقة هذا هو الإعجاز الحقيقى .

(ب) المجوس ، وأصحاب الاثنين ، والمانوية ، وسائر فرقهم :

المجوسية : يقال لها الدين الأكبر ، والملة العظمى ، إذ كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام بعد إبراهيم الخليل عليه السلام لم تكن فى العموم كالدعوة الخليلية ، ولم يثبت لها من القوة والشوكة ، والملك ، والسيف ، مثل الملة الحنيفية ، إذ كانت ملوك العجم كلها على ملة إبراهيم عليه السلام ، وجميع من كان فى زمان كل واحد منهم من الرعايا فى البلاد على أديان ملوكهم ، وكان لملوكهم مرجع هو : « موبذ موبذان » يعنى أعلم العلماء ، وأقدم الحكماء ، يصدرون عن أمره ولا يخالفونه ، ولا يرجعون إلا إلى رأيه ، ويعظمونه تعظيم السلاطين لخلفاء الوقت .

وكانت دعوة بنى إسرائيل أكثرها فى بلاد الشام وما وراءها من المغرب . وقلّ ماسرى من ذلك إلى بلاد العجم .

وكانت الفرق فى زمان إبراهيم الخليل عليه السلام راجعة إلى صنفين اثنين . أحدهما : الصابئة ، والثانى الحنفاء[٣] .

فالصابئة :

كانت تقول : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها ، وقربها من رب الأرباب . والجسمانى بشر مثلنا : يأكل مما نأكل ، ويشرب

(١، ٢) الأعلى آية ١٤ — ١٩ .

(٣) أصل الحنف : الاعوجاج والميل فى الرجل إلى داخل ، ومنه سمى الموحد حنيفا لأنه مائل إلى الدين المستقيم .

مما نشرب ، يماثلنا فى المادة والصورة . قالوا : (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ[١]) .

والحنفاء :

كانت تقول : إنا نحتاج فى المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات ، يماثلنا من حيث البشرية، ويمايزنا من حيث الروحانية ، فيتلقى الوحى بطرف الروحانية ، ويلقى إلى نوع الإنسان بطرف البشرية ، وذلك قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ[٢]) وقال عز ذكره : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً[٣]) .

* * *

ثم لما لم يتطرق للصابئة الاقتصار على الروحانيات البحتة ، والتقرب إليها بأعيانها ، والتلقى عنها بذواتها ، فزعت جماعة إلى هيا كلها وهى السيارات السبع ، وبعض الثوابت. فصابئة النبط والفرس والروم مفزعها السيارات . وصابئة الهند : مفزعها الثوابت .

وسنذكر مذاهبهم على التفصيل ، على قدر الإمكان ، بتوفيق الله تعالى . وربما نزلوا عن الهيا كل إلى الأشخاص التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى عنهم شيئاً .

والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب ، والثانية هم عبدة الأصنام .

ولما كان الخليل عليه السلام مكلفا بكسر المذهبين على الفرقتين ، وتقرير الحنيفية السمحة السهلة ، احتج على عبدة الأصنام قولا وفعلا ، كسراً من حيث القول ، وكسراً من حيث الفعل . فقال لأبيه آزر : (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً[٤]) الآيات حتى (فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ[٥]) وذلك إلزام من

---

(١) المؤمنون آية ٣٤ (٢) الكهف آية ١١٠ .
(٣) الإسراء آية ٩٣ . (٤) مريم آية ٤٢ .
(٥) التلاوة: فجعلهم ... وهى آية ٥٨ من سورة الأنبياء .

حيث الفعل ، وإفحام من حيث الكسر . ففرغ من ذلك كما قال الله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[(١)]) .

وابتدأ بإبطال مذاهب عبدة الكواكب على صيغة الموافقة كما قال تعالى (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ[(٢)]) أى كما آتيناه الحجة كذلك نريه المحجة ، فساق الإلزام على أصحاب الهيا كل مساق الموافقة فى المبدإ ، والمخالفة فى النهاية ؛ ليكون الإلزام أبلغ ، والإفحام أقوى . وإلا فإبراهيم الخليل عليه السلام لم يكن فى قوله : (هذَا رَبِّى[(٣)]) مشركا ، كما لم يكن فى قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا[(٤)]) كاذبا . وسوق الكلام من جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام . فلما أظهر الحجة ، وبين المحجة ، قرر الحنيفية التى هى الملة الكبرى ، والشريعة العظمى ، وذلك هو الدين القيم .

وكان الأنبياء من أولاده كلهم يقررون الحنيفية . وبالخصوص صاحب شرعنا محمد صلوات الله عليه ، كان فى تقريرها قد بلغ النهاية القصوى ، وأصاب المرمى وأصمى[(٥)] .

ومن العجب أن التوحيد من أخص أركان الحنيفية ، ولهذا يقترن نفى الشرك بكل موضع ذكر الحنيفية : (حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[(٦)]) ـ (حُنَفَاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ[(٧)]) .

ثم إن التثنية اختصت بالمجوس حتى أثبتوا أصلين اثنين ، مُدَبِّرَين قديمين ؛ يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضر ، والصلاح والفساد ، يسمون أحدهما : النور والآخر الظلمة .

وبالفارسية : يَزْدان ، وأهرِمَن . ولهم فى ذلك تفصيل مذهب .

ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين :

إحداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة .

والثانية : بيان سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ ، والخلاص معادا .

(١ ، ٢ ، ٣) الأنعام آية ٨٣ ، ٧٥ ، ٧٦ . (٤) الأنبياء آية ٦٣ .

(٥) أصمى المرء الصيد : رماه فقتله فكان مكانه وهو يراه ، وأصله من السرعة والخفة .

(٦) آل عمران آية ٦٧ . (٧) الحج آية ٣١ .

الفصل الأول

المجوس

أثبتوا أصلين كما ذكرنا ، إلا أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النور أزلىّ ، والظلمة محدثة .

ثم لهم اختلاف فى سبب حدوثها : أمن النور حدثت ؟ والنور لايحدث شرا جزئياً، فكيف يحدث أصل الشر ؟ أم من شىء آخر ؟ ولا شىء يشرك النور فى الإحداث والقدم ؟ وبهذا يظهر خبط المجوس .

وهؤلاء يقولون : المبدأ الأول من الأشخاص : كَيُومرث ، وربما يقولون زرْوان الكبير . والنبى الثانى : زردشت .

والكيومرثية يقولون : كيومرث هو آدم عليه السلام ، وتفسير كيومرث هو : الحى الناطق . وقد ورد فى تواريخ الهند والعجم أن كيومرث هو آدم عليه السلام ، ويخالفهم سائر أصحاب التواريخ .

١ — الكَيُومَرْثِية

أصحاب المقدم الأول كيومرث أثبتوا أصلين : يزدان ، وأهرمن . وقالوا : يزدان أزلى قديم ، وأهرمن محدث مخلوق . وقالوا : إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكر فى نفسه : أنه لو كان لى منازع كيف يكون ؟ وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور ، فحدث الظلام من هذه الفكرة . وسمى : أهرمن . وكان مطبوعا على الشر ، والفتنة والفساد ، والفسق والضرر والإضرار . فخرج على النور ، وخالفه طبيعة وفعلا . وجرت محاربة بين عسكر النور ، وعسكر الظلمة . ثم إن الملائكة توسطوا

فصالحوا على أن يكون العالم السفلى خالصاً لأهرمن سبعة آلاف سنة . ثم يخلى العالم ويسلمه إلى النور . والذين كانوا فى الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم . ثم بدأ برجل يقال له كيومرث ، وحيوان يقال له ثور فقتلهما . فنبت من مسقط ذلك الرجل رِيبَاس ، وخرج من أصل ريباس رجل يسمى (ميشة) ، وامرأة تسمى: (ميشانة) ؛ وهما أبوا البشر . ونبت من مسقط الثور : الأنعام ، وسائر الحيوانات .

وزعموا أن النور خيَّر الناس ، وهم أرواح بلا أجساد ، بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن ، وبين أن يلبسهم الأجساد فيحاربوا أهرمن . فاختاروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن ؛ على أن تكون لهم النصرة من عند النور ، والظفر بجنود أهرمن ، وحسن العاقبة . وعند الظفر به وإهلاك جنوده تكون القيامة .

فذاك سبب الامتزاج ، وهذا سبب الخلاص .

٢ — الزَّرْوَانيَّة

قالوا : إن النور أبدع أشخاصا من نور كلها روحانية ، نورانية ، ربانية . ولكن الشخص الأعظم الذى اسمه زروان شك فى شيء من الأشياء ، فحدث أهرمن الشيطان ، يعنى إبليس من ذلك الشك .

وقال بعضهم لا ، بل إن زروان الكبير قام فزمزم[1] تسعة آلاف وتسعمائة وتسعاً وتسعين سنة ليكون له ابن فلم يكن . ثم حدّث نفسه وفكر ، وقال : لعل هذا العلم ليس بشيء ، فحدث أهرمن من ذلك الهم الواحد . وحدث هُرْمَز من ذلك العلم ، فكانا جميعاً فى بطن واحد . وكان هرمز أقرب من باب الخروج ، فاحتال أهرمن الشيطان حتى شق بطن أمه فخرج قبله وأخذ الدنيا .

وقيل : إنه لما مثل بين يدى زروان فأبصره ورأى ما فيه من الخبث والشرارة[2] والفساد ، أبغضه ولعنه وطرده ، فمضى واستولى على الدنيا . وأما هرمز فبقى زمانا لا يَدَ له

(١) زمزم الشيء : سمع صوته من بعيد وله دوى ، وزمزم العلوج : تراطنوا .

(٢) من الشر وأصل الفعل : شر — شرا ، وشرارة وشرراً ، اتصف بالشر .

عليه ، وهو الذى اتخذه قوم ربًّا وعبدوه لما وجدوا فيه من الخير والطهارة والصلاح ، وحسن الأخلاق .

وزعم بعض الزروانية أنه لم يزل — كان — مع الله شىء ردىء : إما فكرة رديئة ، وإما عفونة رديئة ، وذلك هو مصدر الشيطان .

وزعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها فى خير محض ، ونعيم خالص ، فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن والمحن ، وكان بمعزل عن السماء فاحتال حتى خرق السماء وصعد .

وقال بعضهم : كان هو فى السماء والأرض خالية عنه ، فاحتال حتى خرق السماء ونزل إلى الأرض بجنوده كلها فهرب النور بملائكته وأتبعه الشيطان حتى حاصره فى جنته ، وحاربه ثلاثة آلاف سنة ، لا يصل الشيطان إلى الرب تعالى ، ثم توسط الملائكة وتصالحا على أن يكون إبليس وجنوده فى قرار الأرض تسعة آلاف سنة ، بالثلاثة آلاف التى قاتله فيها ، ثم يخرج إلى موضعه ، ورأى الرب تعالى عن قولهم ، الصلاح فى احتمال المكروه من إبليس وجنوده ، وألا يَنْقُضَ الشرط حتى تنقضى المدة المضروبة للصلح . فالناس فى البلايا والفتن والخزايا والمحن إلى انقضاء المدة . ثم يعودون إلى النعيم الأول . وشرط إبليس عليه أن يمكنه من أشياء يفعلها ويطلقه فى أفعال رديئة يباشرها ، فلما فرغا من الشرط أشهد عليهما عدلين ، ودفعا سيفيهما إليهما وقالا لهما : من نكث فاقتلاه بهذا السيف .

ولست أظن عاقلا يعتقد هذا الرأى القائل ، ويرى هذا الاعتقاد المضمحل الباطل ، ولعله كان رمزا إلى ما يتصور فى العقل ، ومن عرف الله سبحانه وتعالى بجلاله وكبريائه ؛ لم يسمح بهذه الترهات[1] عقله ولم يسمع مثل هذه الترهات سمعه .

وأقرب من هذا ما حكاه أبو حامد الزَّوْزنى: أن المجوس زعمت أن إبليس كان لم يزل فى الظلمة والجو خلاء بمعزل عن سلطان الله ، ثم لم يزل يزحف ويقرب بحيله حتى رأى

---

(١) الترهات ؛ الواحدة : الترهة : الأباطيل والدواهى .

النور، فوثب وثبة فصار فى سلطان الله فى النور،وأدخل معه هذه الآفات والشرور،فخلق الله تعالى هذا العالم شبكة له فوقع فيها، وصار متعلقاً بها لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه؛ فهو محبوس فى هذا العالم، مضطرب فى الحبس، يرمى بالآفات والمحن والفتن إلى خلق الله تعالى، فمن أحياه الله رماه بالموت، ومن أصحّه رماه بالسقم، ومن سره رماه بالحزن. فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة، وفى كل يوم ينقص سلطانه حتى لا تبقى له قوة، فإذا كانت القيامة ذهب سلطانه وخمدت نيرانه، وزالت قوته، واضمحلت قدرته فيطرحه فى الجو، والجو ظلمة ليس لها حد ولا منتهى، ثم يجمع الله تعالى أهل الأديان فيحاسبهم ويجازيهم على طاعة الشيطان وعصيانه.

وأما المَسْخِيَّة فقالت إن النور كان وحده نوراً محضاً، ثم انمسخ بعضه فصار ظلمة.

وكذلك الخُرَّمدينية قالوا بأصلين، ولهم ميل إلى التناسخ والحلول، وهم لا يقولون: بأحكام وحلال وحرام.

ولقد كان فى كل أمة من الأمم قوم مثل الإباحية، والمزدكية، والزنادقة، والقرامطة كان تشويش ذلك الدين منهم، وفتنة الناس مقصورة عليهم.

٣ — الزَّرْدَشْتِيَّة

أولئك أصحاب زردشت بن بورشب الذى ظهر فى زمان كشتاسب بن لهراست الملك، وأبوه كان من أذربيجان، وأمه من الرى واسمها: دغدويه.

زعموا أن لهم أنبياء وملوكا: أولهم كيومرث. وكان أول من ملك الأرض، وكان مقامه بإصطخر. وبعده أو شهنك بن فراوك، ونزل أرض الهند، وكانت له دعوة ثمة. وبعده طمهورث، وظهرت الصابئة فى أول سنة من ملكه. وبعده أخوه جم الملك. ثم بعده أنبياء وملوك؛ منهم منوجهر، ونزل بابل وأقام بها. وزعموا أن موسى عليه السلام ظهر فى زمانه، حتى انتهى الملك إلى كشتاسب بن لهراسب، وظهر فى زمانه زردشت الحكيم.

وزعموا أن الله عز وجل خلق ، من وقت ما فى الصحف الأولى ، والكتاب الأعلى من ملكوته خلقاً روحانيا . فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته فى صورة من نور متلألئ على تركيب صورة الإنسان ، وأحف[1] به سبعين من الملائكة المكرمين ، وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض ، وبنى آدم غير متحركة ثلاثة آلاف سنة . ثم جعل روح زردشت فى شجرة أنشأها فى أعلى عليين . وأحف بها سبعين من الملائكة المكرمين . وغرسها فى قلة جبل من جبال أذربيجان يعرف باسمو يذخر . ثم مازج شبح زردشت بلبن بقرة ، فشربه أبو زردشت فصار نطفة ثم مضغة فى رحم أمه ؛ فقصدها الشيطان وعيّرها . فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالة على برئها فبرئت . ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر . فاحتالوا على زردشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ، ومدرجة الخيل ، ومدرجة الذئب . فكان ينهض كل واحد منهم لحمايته من جنسه . ونشأ بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله تعالى نبيا ورسولا إلى الخلق . فدعا كشتاسب الملك ، فأجابه إلى دينه . وكان دينه : عبادة الله ، والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الخبائث .

وقال : النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك يزدان وأهرمن ، وهما مبدأ موجودات العالم ، وحصلت التراكيب من امتزاجهما . وحدثت الصور من التراكيب المختلفة . والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو لا شريك له ولا ضد ، ولاند ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة ، كما قالت الزروانية . لكن الخير والشر والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ، وهما يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص . والبارى تعالى هو الذى مزجهما وخلطهما لحكمة رآها فى التراكيب . وربما جعل النور أصلا ، وقال : وجوده وجود حقيقى ، وأما الظلمة فتتبع كالظل بالنسبة إلى الشخص فإنه يرى أنه موجود ، وليس بموجود حقيقة ، فأبدع النور وحصل الظلام تبعاً ، لأن

(١) جعلهم حافين به ؛ أى محيطين به .

من ضرورة الوجود التضاد ، فوجوده ضرورى واقع فى الخلق لا بالقصد الأول ؛ كما ذكرنا فى الشخص والظل .

وله كتاب قد صنفه ، وقيل إن ذلك أنزل عليه وهو « زند أوستا » يقسم العالم قسمين : مينة ، وكيتى ؛ يعنى الروحانى والجسمانى ، أو الروح والشخص ، وكما قسم الخلق إلى عالمين ، يقول إن ما فى العالم ينقسم قسمين : بخشش وكنش ، يريد به : التقدير والفعل ، وكل واحد مقدر على الثانى ، ثم يتكلم فى موارد التكليف وهى حركات الإنسان ، فيقسمها ثلاثة أقسام : منش ، وكويش ، وكنش ؛ يعنى بذلك : الاعتقاد والقول والعمل ، وبالثلاثة يتم التكليف ، فإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة ، وإذا جرى فى هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر .

وتدعى الزردشتية له معجزات كثيرة ، منها : دخول قوائم فرس كشتاسب فى بطنه ، وكان زردشت فى الحبس ، فأطلقه فانطلقت قوائم الفرس . ومنها أنه مر على أعمى بالدينور فقال : خذوا حشيشة وصفها لهم واعصروا ماءها فى عينه فإنه يبصر ، ففعلوا فأبصر الأعمى .

وهذا من جملة معرفته بخاصية الحشيش ، وليس من المعجزات فى شىء .

ومن المجوس الزردشتية صنف يقال لهم السيسانية ، والبهافريدية ، رئيسهم رجل يقال له سيسان من رستاق(١) نيسابور ، من ناحية يقال لها خواف ، خرج فى أيام أبى مسلم صاحب الدولة ، وكان زمزميا فى الأصل يعبد النيران ، ثم ترك ذلك ودعا المجوس إلى ترك الزمزية ورفض عبادة النيران ، ووضع لهم كتابا ، وأمرهم فيه بإرسال الشعور ، وحرم عليهم الأمهات والبنات والأخوات ، وحرم عليهم الخمر ، وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة . وهم يتخذون الرباطات ، ويتباذلون الأموال ، ولا يأكلون الميتة ، ولا يذبحون الحيوان حتى يهرم ، وهم أعدى خلق الله للمجوس الزمازمة ، ثم إن

---

(١) رستاق : كلمة معربة ، بمعنى الناحية التى هى طرف الإقليم .

موبذ المجوس رفعه إلى أبى مسلم فقتله على باب الجامع بنيسابور . وقال أصحابه : إنه صعد إلى السماء على برذون أصفر ، وإنه سينزل على البرذون فينتقم من أعدائه . وهؤلاء قد أقروا بنبوة زردشت ، وعظموا الملوك الذين يعظمهم زردشت .

ومما أخبر به زردشت فى كتاب زند أوستا أنه قال : سيظهر فى آخر الزمان رجل اسمه « أشيزريكا » ومعناه : الرجل العالم ، يزين العالم بالدين والعدل ، ثم يظهر فى زمانه « بتياره » فيوقع الآفة فى أمره وملكه عشرين سنة ، ثم يظهر بعد ذلك أشيزريكا على أهل العالم ، ويحيى العدل ، ويميت الجور ، ويرد السنن المغيرة إلى أوضاعها الأول ، وتنقاد له الملوك ، وتتيسر له الأمور ، وينصر الدين والحق ، ويحصل فى زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن .

مقالة زَرْدَشْت فى المبادئ[١]

وقد نقل الجيهانى مقالة من مقالات زردشت فى المبادئ وهى :

أن دين زردشت هو الدعوة إلى دين مارسيان ، وأن معبود أورمزد ، والملائكة المتوسطون فى رسالاته إليه : بهمن ، وأرديبهشت ، وشهريور ، وإسفندارمز ، وخرداد ، ومرداد . وقد رآهم زردشت واستفاد منهم العلوم ، وجرت مساءلات بينه وبين أورمزد من غير توسط .

أولها : قال زردشت : ما الشىء الذى كان ويكون ، وهو الآن موجود؟

قال أورمزد : أنا والدين والكلام . أما الدين فعمل أورمزد وكلامه وإيمانه ، وأما الكلام فكلامه ، والدين أفضل من الكلام ؛ إذ العمل أفضل من القول . وأول من أبدع من الملائكة : بهمن ، وعلمه الدين ، وخصه بموقع النور مكانا ، وأقنعه بذاته ذاتا ، فالمبادئ على هذا الرأى ثلاثة :

---

(١) نقلتها عن طبعة محمد فتح الله بدران ، حيث أثبت فضيلة أنها ثابته فى خمسة مخطوطات أصول للكتاب . راجع ص ٩٥٧ الطبعة الأولى طبعة الأزهر .

السؤال الثانى : قال : لِمَ لم تُخلق الأشياء كلها فى زمان غير متناه ؟ إذ قد جعلتَ الزمان نصفين : نصفه متناه ، ونصفه غير متناه . فلو خلقتها فى زمان غير متناه ؛ كان لا يستحيل شىء منها .

قال أورمزد : فإذن كان لا يمكن أن تفنى — ثَمّ — آفات الأثيم إبليس .

السؤال الثالث : قال : مماذا خلقت هذا العالم ؟

قال أورمزد : خلقت جميع هذا العالم من نفسى . أما أنفس الأبرار فمن شعر رأسى وأما السماء فمن أم رأسى . والظفر والماضد فمن جبهتى ، والشمس فمن عينى ، والقمر فمن أنفى ، والكواكب فمن لسانى ، وسروس وسائر الملائكة فمن أذنى ، والأرض فمن عصب رجلى . وأريت هـذا الدينَ أولا كيومرث فشعر به وحفظه من غير تعلم ولا مدارسة .

قال زردشت : فلماذا أريت هذا الدين كيومرث بالوهم ؟ وألقيته إلىّ بالقول ؟

قال أورمزد : لأنك تحتاج أن تتعلم هذا الدين وتعلمه غيرك . وكيومرث لم يجد من يقبله ، فأمسك عن التكلم ، وهذا خير لك ، لأنى أقول أنت تسمع ، وأنت تقول والناس يسمعون ويقبلون .

فقال زردشت لأورمزد : هل أريت هذا الدين أحداً قبلى غير كيومرث ؟

قال : بلى ! أريت هذا الدين « جم » خمسين نجما مخمسا ؛ من أجل إنكاره الضحاك .

قال : إذا كنت عالما أنه لا يقبله ، فلماذا أريته ؟ قال : لو لم أره لما صار إليك ، وقد أريته أيضاً أفريدون ، وكيكاوس ، وكيقباد ، وكشتاسب .

قال زردشت : خلْقُك العالم ، وترويجك الدين لأى شىء ؟

قال : لأن فناء العفريت الأثيم لايمكن إلا بخلق العالم وترويج الدين ، ولو لم يتروج أمر الدين لما أمكن أن تتروج أمور العالم .

فلما أخذ زردشت الدين من أورمزد الوهاب واستحكمه وعمل به ، وزمزم فى بيت

عليه ؛ غاظ ذلك (كون) الأثيم وأقلقه ؛ إذ كان شريراً ممتلئا موتا وظلمة وبلاء ومحنة ، فدعا بشياطينه ، وأسماؤهم : برى ديوانياخ ، ودويهمان زوش ، ونومر بفنارديو . وأمرهم جميعاً بالمسير إلى زردشت وقتله . فعلم زردشت بذلك ، فقرأ وزمزم ، وأراق المـاء على يدى مارسيان ، فانهزموا عنه مقهورين . وجرت محاربات أخرى فهزمهم زردشت بإحدى وعشرين آية من كتابه أوستا ، وتوارت الشياطين عن الناس .

ولمـا بلغ زردشت مبلغ الـكمال بأربعين سنة ، وتمت له المخاطبات فى سبع عودات إلى أورمزد ، أكمل فيها معرفة شرائع دين الله وفرائضه وسننه ، أمره الله بالمسير إلى كشتاسب الملك ، وإظهار ذكر الله واسمه . فنفذ لأمر الله ودعا ملـكين كانا بذلك الصقع يقال لهما : فور بمارای ، وبيويدست ، فدعاهما إلى دين الله والـكفر بالشيطان ، وفعل الخير ، واجتناب الشر . فلم يقبلا قوله ، وأخذتهما العزة بالإثم فجاءتهما ريح فحملتهما من الأرض ، ووقفت بهما فى الهواء ، واجتمع الناس ينظرون إليهما ؛ فغشيهما الطير من كل ناحية ، وأتوا على لحومهما ، وسقطت عظامهما على الأرض .

ولمـا بلّغ كشتاسب لقى منه كل ما أنبأه به أورمزد من الحبس والبلاء ، حتى حدث أمر الفرَس الذى دخلت قوائمه فى باطن بدنه ، حتى لم ير أثرها فى جسده ، واستبهم حاله على الناس وتحيروا . وأخرجه كشتاسب من الحبس وسأله الحال ، فقال : تلك آية من آيات صدق الذى أخبرنى به إلهى وخالقى ، وشارطهم على الإيمان به إن هو دعا وأخرج قوائم الفرس وشرطوا ، ودعا باسم الله ، فخرجت قوائم الفرس كما كانت . فآمن به كشتاسب . وأمر بجمع علماء أهل زمانه من بابل ، وإيران شهر ، وأمرهم بمحاورة زردشت فناظروه فاعترفوا له بالفضيلة .

قال : ومما جاء به زردشت المصطفى من دين مارسيان أن إلهه أورمزد لم يزل ، ولم يزل معه شىء سماه : أسنى أسنه ، وهو شىء مضىء حوله وهو فوق . وأن إبليس لم يزل معه شىء سماه : أستا أستاه ، وهو مظلم حوله ، وهو أسفل .

وأول ما خلق الله من الملائكة بهمن ، ثم أرديبهشت ، ثم شهريور ، ثم إسفندارمز ثم خرداد ، ثم مرداد ، وخلق بعضهم من بعض كما يؤخذ السراج من السراج من غير أن ينقص من الأول شيء . وقال لهم : من ربكم وخالقكم ؟ فقالوا : أنت ربنا وخالقنا . وعلم أورمزد أن إبليس سيتحرك من ظلمته ، فأعلم بذلك الملائكة ، وبدأ بإعداد مايورطه ويدفع شره وأذاه عن عالمه ، ويبطل إرادته ؛ فخلق السماء فى خمسة وأربعين يوما ، وسمى كاهينازى شورم ، ومعناه : ظهور ضمائر أهل الدنيا ، إلى سائر الكاهينازات المذكورات عندهم ، وخلق الأرض فى خمسة وأربعين يوما .

وأول من ابتعثه أورمزد إلى الأرض : كيومرث ، وقد كان يستنشق النسيم ثلاثة آلاف سنة ، ثم أخرجه فى قامة ثلاثة رجال ، ولما أن جاء وقت تحريك إبليس فى ظلمته ، ارتفع ورأى النور ، وطمع فى الاستيلاء على « أسنى أورمزد » وتصييره مظلما ، ودخل السماء يكيد ثَمَّ لكيومرث ثلاثين سنة ، وصارت نطفته ثلاثة أقسام : قسم أمر الله الأرض أن تحفظه ، وقسم أمر سروس الملك أن يحفظه ، وثلث : اختطفته الشياطين .

وأمر أورمزد بسد الثقوب التى صعد منها إبليس ، فبقى داخل السماء منقطعاً عن أصله وقوته ، فانتصب لمنابذة أورمزد ، ورام الصعود إلى الجنان ، فدفعه عن ذلك قدر ثلاثة آلاف سنة ، ثم أعلمه أنه يسعى فى الباطل والخسار ، ويروم مالا يقدر عليه ، واتفق الأمر بينهما على أن يبقى إبليس وجنوده فى قرار الضوء تسعة آلاف سنة ، ويروى سبعة آلاف سنة ، ثم يبطل . ويحتمل خلقه الأذى فى هذه السنين ، ويصبرون عليه وعلى ما ينالهم من الفقر ، والبلاء والموت وسائر الآفات ، ليعوضهم منها الحياة الدائمة فى الجنان .

واشترط إبليس لنفسه وشياطينه ثمانية عشر شرطاً :

الأول منها : أن تصير معيشة خلقه من خلق الله . والثانى : أن يكون ممن خلقه على خلق الله . والثالث : أن يسلط خلقه على خلق الله . والرابع : أن يخلط جوهر خلقه بجوهر خلق الله . والخامس : أن يصير له السبيل إلى أن يأخذ الطين الذى فى خلق الله .

والسادس : أن يصير له من النور الذى فى خلق الله مايريد . والسابع : أن يصير له من الرياح التى فى خلق الله حاجته . والثامن : أن يصير له من الرطوبة التى فى خلق الله والتاسع : أن يصير له من النار التى فى خلق الله . والعاشر : أن يصير له من المودة والمصاهرة التى فى خلق الله ليخلط الأشرار بالأخيار . والحادى عشر : أن يصير له من العقل والبصر الذى فى خلق الله ليعرف خلقه مسالك المنافع والمضار . والثانى عشر : أن يصير له من العدل الذى فى خلق الله ليجعل للأشرار فيه نصيباً . والثالث عشر : أن تخفى على الناس معرفة عمل الصالحين والأشرار إلى يوم القيامة والحساب . والرابع عشر : أن يصير له السبيل إلى أن يبلغ بأهل بيت الشرارة والخبث غاية الغنى والدرجات ، ويصيرهم عند الناس صالحين . والخامس عشر : أن يصير له السبيل إلى أن يجعل كذب الأشرار مقبولا على الأخيار . والسادس عشر : أن يصير له السبيل إلى أن يعمر من أهل الدنيا من أراد من خلقه ألف سنة ، أو ثلاثة آلاف سنة ، ويصيرهم أغنياء أقوياء قادرين على مايريدون ، وأن يلهم الناس حتى يكونوا بإعطاء الأشرار أسخى منهم بإعطاء الأخيار وأطيب نفساً . والسابع عشر : أن يصير له السبيل إلى إفناء أهل بيت الصالحين ، حتى لا يعرف منهم أحد بعد ثلاثمائة وخمسين سنة . والثامن عشر : أن يملك أمر من يحيى الأموات ، ويبقى الأخيار ، وينفى الأشرار إلى يوم القيامة .

فتمت البيعة وأقاما عليها ، ودفعا سيفيهما إلى عدلين ، على أن يقتلا من رجع عن شرطه . وأمر الله تعالى الشمس والقمر والكواكب أن تجرى لمعرفة الأيام والشهور والأعوام التى جعلها عدة الإنظار والإمهال .

ومما نص عليه زردشت أن للعالم قوة إلهية ؛ هى المدبرة لجميع مافى العالم ، المنتهية مبادئها إلى كمالاتها . وهذه القوة تسمى مشاسبند ، وهى على لسان الصابئة : المدبر الأقرب ، وعلى لسان الفلاسفة : العقل الفعال ؛ ومنه الفيض الإلهى ، والعناية الربانية . وعلى لسان المانوية : الأرواح الطيبة . وعلى لسان العرب : الملائكة . وعلى لسان الشرع والكتاب الإلهى : الروح (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا[1]) .

---

(١) القدر آية ٤ .

وأثبت غيره : منشاه ، ومنشايه ، ويعنى بهما آدم وحواء فى العالم الجسمانى ، والعقل والنفس فى العالم الروحانى .

الفصل الثانى

الثنوية

هؤلاء هم أصحاب الاثنين الأزليين . يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس ، فإنهم قالوا بحدوث الظلام ، وذكروا سبب حدوثه .

وهؤلاء قالوا بتساويهما فى القدم ، واختلافهما فى الجوهر والطبع والفعل والحيز والمكان والأجناس ، والأبدان والأرواح .

١ — المانَوِيَّة

أصحاب مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى زمان سابور بن أردشير ، وقتله بهرام ابن هرمز بن سابور ، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام . أحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية ، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام .

حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق ، وكان فى الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم : أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور ، والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ، ولن يزالا ، وأنكر وجود شىء إلا من أصل قديم ، وزعم أنهما لم يزالا قويين حساسين ، داركين سميعين بصيرين ، وهما مع ذلك فى النفس ، والصورة ، والفعل ، والتدبير متضادان . وفى الحيز متحاذيان ، تحاذى الشخص والظل .

وإنما تتبين جواهرهما وأفعالهما فى هذا الجدول :

	النــــور	الظلمــــة
الجوهر	جوهره : حسن ، فاضل ، كريم ، صاف ، نقي ،طيب الريح ، حسن المنظر .	جوهرها : قبيح ، ناقص ، لئيم ، كدر، خبيث،منتن، الريح ، قبيح المنظر .
النفس	نفسه : خيرة ، كريمة،حكيمة نافعة ، عالمة .	نفسها : شريرة،لئيمة ، سفيهة ضارة ، جاهلة .
الفعل	فعله :الخير،والصلاح،والنفع والسرور ، والترتيب ، والنظام ، والاتفاق .	فعلها:الشر،والفساد،والضرر والغم ، والتشـــويش ، والتبير ، والاختلاف .
الحيز	جهته : جهةفوق . وأ كثرهم على أنه مرتفع من ناحية الشمال ، وزعم بعضهم أنه بجنب الظلمة .	جهتها : جهة تحت.وأ كثرهم على أنها منحطة من ناحية الجنوب . وزعم بعضهم أنها بجنب النور .
الأجناس	أجناسه خمسة : أربعة منها أبدان والخامس روحه . فالأبدان هى : النار ، والنور . والريح،والماء . وروحها : النسيم ، وهى تتحرك فى هذه الأبدان	أجناسها خمسة : أربعة منها أبدان والخامس روحها . فالأبدان هى : الحريق ، والظلمة ، والسموم ، والضباب،وروحها الدخان وتدعى الهامة،وهى تتحرك فى هذه الأبدان .
الصفات	حية ، خيرة ، طاهرة،زكية. وقال بعضهم :كون النور لم يزل على مثال هذا العالم : له أرض وجو . فأرض النور	ميتة ، شريرة،نجسة ، دنسة . وقال بعضهم :كون الظلمة لم تزل على مثال هذا العالم : لها أرض وجو . فأرض

النــور	الظلمــة
لم تزل لطيفة على غير صورة هذه الأرض ، بل هى على صورة جرم الشمس ، وشعاعها كشعاع الشمس. ورائحتها أطيب رائحة ، وألوانها ألوان قوس قزح	الظلمة لم تزل كثيفة على غير صورة هذه الأرض ، بل هى أكثف وأصلب . ورائحتها كريهة ، أنتن الروائح . وألوانها ألوان السواد .

* * *

النــور	الظلمــة
وقال بعضهم: لاشىء إلا الجسم والأجسام على ثلاثة أنواع: أرض النور وهى خمسة ، وهناك جسم آخر ألطف منه وهو الجو ، وهو نفس النور ، وجسم آخر وهو ألطف منه وهو النسيم ؛ وهو روح النور .	وقال بعضهم: لاشىء إلا الجسم والأجسام على ثلاثة أنواع: أرض الظلمة . وجسم آخر أظلم منه وهو الجو. وجسم آخر أظلم منه وهو السموم .

* * *

النــور	الظلمــة
قال : ولم يزل يولد النور ملائكة وآلهة ، وأولياء ، لا على سبيل المناكحة ، بل كما تتولد الحكمة من الحكيم ، والمنطق الطيب من الناطق.	قال : ولم تزل تولد الظلمة شياطين وأراكنة[1] ؛ وعفاريت ؛ لا على سبيل المناكحة ، بل كما تتولد الحشرات من العفونات القذرة.
قال: وملك ذلك العالم هو روحه ويجمع عالمه : الخير ، والحمد ، والنور .	قال : وملك ذلك العالم هو روحه ويجمع عالمه : الشر ، والنميمة ، والظلمة .

(١) الأراكنة ، جمع أركون : وهو الرئيس والدهقان المعظم ، والكلمة يونانية الأصل .

ثم اختلفت المانوية فى المزاج وسببه ، والخلاص وسببه . قال بعضهم : إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق ، لابالقصد والاختيار . وقال أكثرهم : إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل ، فنظرت الروح فرأت النور ، فبعثت الأبدان على ممازجة النور ، فأجابتها لإسراعها إلى الشر . فلما رأى ذلك ملك النور ، وجه إليها ملكا من ملائكته فى خمسة أجناس من أجناسها الخمسة ، فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية ، فخالط الدخان النسيم ، وإنما الحياة والروح فى هذا العالم من النسيم . والهلاك والآفات من الدخان . وخالط الحريق النار ، والنور الظلمة ، والسموم الريح ، والضباب الماء . فما فى العالم من منفعة ، وخير وبركة ، فمن أجناس النور ، ومافيه من مضرة وشر وفساد ، فمن أجناس الظلمة .

فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكا من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة لتتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة . وإنما سارت الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب لاستصفاء أجزاء النور من أجزاء الظلمة ؛ فالشمس تستصفى النور الذى امتزج بشياطين الحر ، والقمر يستصفى النور الذى امتزج بشياطين البرد . والنسيم الذى فى الأرض لا يزال يرتفع لأن من شأنه الارتفاع إلى عالمها . وكذلك جميع أجزاء النور أبداً فى الصعود والارتفاع . وأجزاء الظلمة أبداً فى النزول والتسفل حتى تتخلص الأجزاء من الأجزاء ، ويبطل الامتزاج ، وتنحل التراكيب ، ويصل كل إلى كله وعالمه ، وذلك هو القيامة والمعاد .

قال : ومما يعين فى التخليص والتمييز ، ورفع أجزاء النور : التسبيح ، والتقديس ، والكلام الطيب ، وأعمال البر ، فترتفع بذلك الأجزاء النورية فى عمود الصبح إلى فلك القمر ، ولا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى نصفه فيمتلىء فيصير بدراً . ثم يؤدى إلى الشمس إلى آخر الشهر ، وتدفع الشمس إلى نور فوقها ، فيسرى ذلك فى العالم إلى أن يصل إلى النور الأعلى الخالص . ولا يزال يفعل ذلك حتى لا يبقى من أجزاء النور شىء

فى هذا العالم إلا قدر يسير منعقد ، لا تقدر الشمس والقمر على استصفائه ، فعند ذلك يرتفع الملك الذى يحمل الأرض ، ويدع الملك الذى يجذب السماوات ؛ فيسقط الأعلى على الأسفل . ثم توقد نار حتى يضطرم الأعلى والأسفل ، ولا تزال تضطرم حتى يتحلل ما فيها من النور ، وتكون مدة الاضطرام ألفاً وأربعمائة وثمانيا وستين سنة .

وذكر الحكيم مانى فى باب الألف من الجبلة الأولى ؛ وفى أول الشابرقان : أن ملك عالم النور فى كل أرضه لا يخلو منه شىء ، وأنه ظاهر باطن ، وأنه لا نهاية له إلا من حيث تناهى أرضه إلى أرض عدوه .

وقال أيضاً : إن ملك عالم النور فى سرة أرضه . وذكر أن المزاج القديم هو امتزاج الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة . والمزاج المحدث هو : الخير ، والشر .

وقد فرض مانى على أصحابه العُشر فى الأموال كلها . والصلوات الأربع فى اليوم والليلة ، والدعاء إلى الحق ، وترك الكذب ، والقتل ، والسرقة ، والزنا والبخل ، والسحر ، وعبادة الأوثان ، وأن يأتى على ذى روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله .

واعتقاده فى الشرائع والأنبياء : أن أول من بعث الله تعالى بالعلم ، والحكمة : آدم أبو البشر . ثم بعث شيثاً بعده ، ثم نوحا بعده ، ثم إبراهيم بعده عليهم الصلاة والسلام ، ثم بعث بالبددة إلى أرض الهند ، وزردشت إلى أرض فارس . والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب . وبولس بعد المسيح إليهم . ثم يأتى خاتم النبيين إلى أرض العرب .

* * *

وزعم أبو سعيد المانوى ؛ رئيس من رؤسائهم ؛ أن الذى مضى من المزاج إلى الوقت الذى هو فيه ، وهو سنة إحدى وسبعين ومائتين من الهجرة : أحد عشر ألفاً وسبعمائة سنة ، وأن الذى بقى إلى وقت الخلاص : ثلاثمائة سنة .

وعلى مذهبه مدة المزاج اثنا عشر ألف سنة ، فيكون قد بقى من المدة خمسون سنة فى زماننا هذا ، وهو إحدى وعشرون وخمسمائة هجرية .

فنحن فى آخر المزاج وبدء الخلاص . فإلى الخلاص الكلى ، وانحلال التراكيب خمسون سنة !

٢ — المزْدَكِيَّة

أصحاب مزدك . ومزدك هو الذى ظهر فى أيام قباذ والد أنو شروان . ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه . واطلع أنو شروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله .

حكى الوراق أن قول المزدكية كقول كثير من المانوية فى الكونين ، والأصلين . إلا أن مزدك كان يقول : إن النور يفعل بالقصد والاختيار . والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق . والنور عالم حساس ، والظلام جاهل أعمى . وإن المزاج كان على الاتفاق والخبط ، لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار .

وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال . ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال ، أحل النساء وأباح الأموال . وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلإ . وحكى عنه أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة .

ومذهبه فى الأصول والأركان أنها ثلاثة : الماء والأرض والنار . ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير ، ومدبر الشر . فما كان من صفوها فهو مدبر الخير ، وما كان من كدرها فهو مدبر الشر .

وروى عنه : أن معبوده قاعد على كرسيه فى العالم الأعلى ، على هيئة قعود خسرو فى العالم الأسفل ، وبين يديه أربع قوى : قوى التمييز ، والفهم ، والحفظ ، والسرور ، كما بين يدى خسرو أربعة أشخاص : موبذ موبذان ، والهربذ الأكبر ، والأصبهبذ ،

والرامشكر . وتلك الأربع يدبرون أمر العالم بسبعة من ورائهم : سالار ، وبيشكار ، وبالون ، وبراون ، وكازران ، ودستور ، وكوذك . وهذه السبعة تدور فى اثنى عشر روحانيين : خوانده ، ودهنده ، وستاننده ، وبرنده خورننده ، ودونده ، وخيزنده ، وكشنده ، وزننده ، وكننده وآبنده ، وشونده ، وباينده .

وكل إنسان اجتمعت له هذه القوى الأربع ، والسبع ، والاثنا عشر : صار ربانيا فى العالم السفلى ، وارتفع عنه التكليف .

قال : وإن خسرو العالم الأعلى إنما يدبر بالحروف التى مجموعها الاسم الأعظم . ومن تصور من تلك الحروف شيئاً انفتح له السر الأكبر . ومن حرم ذلك بقى فى عمى الجهل والنسيان والبلادة ، والغم فى مقابلة القوى الأربع الروحانية .

* * *

وهم فرق : الكوذية ، وأبو مسلمية ، والماهانية ، والأسبيدخامكية . والكوذية بنواحى الأهواز ، وفارس ، وشهرزور . والأخر بنواحى سغد سمرقند ، والشاش ، وإيلاق .

٣ — الدَّيْصَانِيَّة

أصحاب ديصان . أثبتوا أصلين : نورا ، وظلاما . فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً .

فما كان من خير ونفع ، وطيب ، وحسن ؛ فمن النور . وما كان من شر وضرر ، ونتن ، وقبح ؛ فمن الظلام . وزعموا أن النور : حى ، عالم ، قادر ، حساس ، دراك ، ومنه تكون الحركة والحياة . والظلام : ميت ، جاهل ، عاجز ، جماد ، موات ، لا فعل له ولا تمييز . وزعموا أن الشر يقع منه طباعا وخرقا . وزعموا أن النور جنس واحد ، وكذلك الظلام جنس واحد ، وأن إدراك النور إدراك متفق ، فإن سمعه وبصره وسائر

حواسه شيء واحد ، فسمعه هو بصره ، وبصره هو حواسه . وإنما قيل سميع بصير لاختلاف التركيب ؛ لا لأنهما في نفسهما شيئان مختلفان . وزعموا أن اللون هو الطعم ، وهو الرائحة ، وهو المحسة[1] ، وإنما وجدوه لونا لأن الظلمة خالطته ضربا من المخالطة ، ووجده طعما لأنها خالطته بخلاف ذلك الضرب ؛ وكذلك القول في لون الظلمة وطعمها ورائحتها ومحستها . وزعموا أن النور بياض كله ، وأن الظلام سواد كله . وزعموا أن النور لم يزل يلقى الظلمة بأسفل صفحة منه ، وأن الظلمة لم تزل تلقاه بأعلى صفحة منها .

واختلفوا في المزاج والخلاص ، فزعم بعضهم أن النور داخل الظلمة ، والظلمة تلقاه بخشونة وغلظ ، فتأذى بها . وأحب أن يرققها ويلينها ، ثم يتخلص منها ، وليس ذلك لاختلاف جنسهما ، ولكن كما أن المنشار جنسه حديد ، وصفحته لينة ، وأسنانه خشنة ؛ فاللين في النور ، والخشونة في الظلمة ، وهما جنس واحد ، فتلطف النور بلينه حتى يدخل تلك الفُرج ، فما أمكنه إلا بتلك الخشونة ، فلا يتصور الوصول إلى كمال وجود إلا بلين وخشونة .

وقال بعضهم : بل الظلام لما احتال حتى تشبث بالنور من أسفل صفحته ، فاجتهد النور حتى يتخلص منه ويدفعه عن نفسه ، فاعتمد عليه فلجج[2] فيه ، وذلك بمنزلة الإنسان الذي يريد الخروج من وحل وقع فيه ، فيعتمد على رجله ليخرج فيزداد لجوجا فيه ، فاحتاج النور إلى زمان ليعالج التخلص منه والتفرد بعالمه .

وقال بعضهم : إن النور إنما دخل أجزاء الظلام اختياراً ليصلحها ويستخرج منها أجزاء صالحة لعالمه ، فلما دخل تشبثت به زمانا فصار يفعل الجور والقبيح اضطراراً لا اختيارا ، ولو انفرد في عالمه ما كان يحصل منه إلا الخير المحض ، والحسن البحت ، وفرق بين الفعل الاضطراري ، وبين الفعل الاختياري .

---

(١) أصل المحسة : آلة الحسن .

(٢) لج في الأمر : لازمه وأبى أن ينصرف عنه .

٤ — المَرْقَيُونِيَّة

أصحاب مرقيون : أثبتوا أصلين قديمين متضادين : أحدهما : النور ، والثانى : الظلمة . وأثبتوا أصلا ثالثا هو المعدل الجامع ، وهو سبب المزاج . فإن المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلا بجامع . وقالوا : إن الجامع دون النور فى المرتبة ، وفوق الظلمة . وحصل من الاجتماع والامتزاج هذا العالم .

ومنهم من يقول : الامتزاج إنما حصل بين الظلمة والمعدل ، إذ هو أقرب منها ، فامتزجت به لتطيب به ، وتلتذ بملاذه ، فبعث النور إلى العالم الممتزج روحا مسيحية ، وهو روح الله وابنه ، تحننا على المعدل الجامع السليم الواقع فى شبكة الظلام الرجيم ، حتى يخلصه من حبائل الشياطين. فمن اتبعه فلم يلامس النساء ، ولم يقرب الزهومات(١)؛ أفلت ونجا ، ومن خالفه خسر وهلك .

قالوا : وإنما أثبتنا المعدل ، لأن النور الذى هو الله تعالى لا يجوز عليه مخالطة الشياطين ، وأيضاً فإن الضدين يتنافران طبعاً ، ويتمانعان ذاتا ونفساً ، فكيف يجوز اجتماعهما وامتزاجهما ؟ فلابد من معدل يكون بمنزلة دون النور ، وفوق الظلام ، فيقع الامتزاج منه . وهذا على خلاف ماقالته المانوية ، وإن كان ديصان أقدم : وإنما أخذ مانى منه مذهبه ، وخالفه فى المعدل . وهو أيضاً خلاف ما قال زردشت ، فإنه يثبت التضاد بين النور والظلمة ، ويثبت المعدل كالحاكم على الخصمين ، الجامع بين المتضادين : لا يجوز أن يكون طبعه وجوهره من أحد الضدين ، وهو الله عز وجل الذى لا ضد له ولا ند .

وحكى محمد بن شبيب عن الديصانية أنهم زعموا أن المعدل هو الإنسان الحساس الدراك ؛ إذ هو ليس بنور محض ، ولا ظلام محض . وحكى عنهم : أنهم يرون المناكحة وكل ما فيه منفعة لبدنه وروحه حراما ، ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الألم .

(١) الزهومات : جمع زهومة ، وهى الدسم أو اللحم السمين .

وحكى عن قوم من الثنوية أن النور والظلمة لم يزالا حيين ، إلا أن النور حساس عالم ، والظلام جاهل أعمى . والنور يتحرك حركة مستوية مستقيمة ، والظلام يتحرك حركة عجرفية[1] خرقاء معوجة ، فبينماهما كذلك إذ هجم بعض هامات الظلام على حاشية من حواشى النور ، فابتلع النور منه قطعة على الجهل ، لا على القصد والعلم . وذلك كالطفل الذى لا يفصل بين الجمرة والتمرة ، وكان ذلك سبب المزاج . ثم إن النور الأعظم دبر فى الخلاص ، فبنى هذا العالم ليستخلص ما امتزج به من النور ، ولم يمكنه استخلاصه إلا بهذا التدبير .

٥ — الكِيْنَوِيَّة ، والصِّيَامِيَّة وَالتَّنَاسُخِيَّة منهم

حكى جماعة من المتكلمين أن الكينوية زعموا أن الأصول ثلاثة : النار ، والأرض والماء ، وإنما حدثت الموجودات من هذه الأصول دون الأصلين اللذين أثبتهما الثنوية .

قالوا : والنار بطبعها خيرة ، نورانية . والماء ضدها فى الطبع ، فما كان من خير فى هذا العالم فمن النار ، وما كان من شر فمن الماء ، والأرض متوسطة .

وهؤلاء يتعصبون للنار شديدا من حيث إنها علوية ، نورانية ، لطيفة ، لا وجود إلا بها ، ولا بقاء إلا بإمدادها ، والماء يخالفها فى الطبع فيخالفها فى الفعل ، والأرض متوسطة بينهما ، فتركيب العالم من هذه الأصول .

والصيامية منهم أمسكوا عن طيبات الرزق ، وتجردوا لعبادة الله ، وتوجهوا فى عباداتهم إلى النيران تعظيما لها وأمسكوا أيضاً عن النكاح والذبائح .

والتناسخية منهم : قالوا بتناسخ الأرواح فى الأجساد ، والانتقال من شخص إلى شخص ، وما يلقى الإنسان من الراحة ، والتعب ، والدعة ، والنصب ، فمرتب على ما أسلفه من قبل وهو فى بدن آخر ، جزاء على ذلك ، والإنسان أبدا فى أحد أمرين :

---

(١) أصل العجرفة : التكبر ، والجفوة فى الكلام ، يقال : فى الجمل عجرفة وعجرفية فى المشى ، إذا كان لا يبالى لسرعته .

إما فى فعل ، وإما فى جزاء . وما هو فيه : فإما مكافأة على عمل قدمه ، وإما عمل ينتظر المكافأة عليه ، والجنة والنار فى هذه الأبدان ، وأعلى عليين : درجة النبوة ، وأسفل السافلين : دركة الحية ، فلا وجود أعلى من درجة الرسالة ، ولا وجود أسفل من دركة الحية .

ومنهم من يقول ، الدرجة الأعلى درجة الملائكة ، والأسفل دركة الشياطين .

ويخالفون بهذا المذهب سائر الثنوية ، فإنهم يعنون بأيام الخلاص ، رجوع أجزاء النور إلى عالمه الشريف الحميد ، وبقاء أجزاء الظلام فى عالمه الخسيس الذميم .

* * *

وأما بيوت النيران للمجوس :

فأول بيت بناه أفريدون : بيت نار بطوس ، وآخر بمدينة بخارى ، هو بردسون ، واتخذ بهمن بيتا بسجستان يدعى كركو ، ولهم بيت نار آخر فى نواحى بخارى ، يدعى قباذان ، وبيت نار يسمى كويسه ، بين فارس وأصبهان ، بناه كيخسرو ، وآخر بقومس يسمى جربر ، وبيت نار يسمى كنكدز ؛ بناه سياوش فى مشرق الصين ، وآخر بأرجان من فارس اتخذه أرجان جد كشتاسب ؛ وهذه البيوت كانت قبل زردشت .

ثم جدد زردشت بيت نار بنيسابور ، وآخر بنسا ، وأمر كشتاسب أن يطلب ناراً كان يعظمها جم ، فوجدها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دارا بجرد ، وتسمى آذرخره ، والمجوس يعظمونها أكثر من غيرها ، وكيخسرو لما خرج إلى غزو أفراسياب عظمها وسجد لها . ويقال إن أنو شروان هو الذى نقلها إلى كاريان فتركوا بعضها ، وحملوا بعضها إلى نسا .

وفى بلاد الروم على أبواب قسطنطينية بيت نار اتخذه سابور بن أردشير ، فلم يزل كذلك إلى أيام المهدى ، وبيت نار بإستينيا ، على قرب مدينة السلام لبوران بنت كسرى .

وكذلك بالهند والصين بيوت نيران .

وأما اليونانيون فكان لهم ثلاثة أبيات ليست فيها نار ، وقد ذكرناها .

والمجوس إنما يعظمون النار لمعان فيها ، منها أنها جوهر شريف علوى ، ومنها أنها ما أحرقت الخليل إبراهيم عليه السلام ، ومنها ظنهم أن التعظيم لها ينجيهم فى المعاد من عذاب النار .

وبالجملة هى قبلة لهم، ووسيلة وإشارة ، والله أعلم .

الباب الأول

أهل الأهواء والنحل

من الصابئة ، والفلاسفة ، وآراء العرب فى الجاهلية ، وآراء الهند . وهؤلاء يقابلون أرباب الديانات تقابل التضادّ كما ذكرنا . واعتمادهم على : الفطر السليمة ، والعقل الكامل والذهن الصافى .

فمن معطل بطال ؛ لا يرد عليه فكره براد ، ولا يهديه عقله ونظره إلى اعتقاد ، ولا يرشده فكره وذهنه إلى معاد . قد ألف المحسوس وركن إليه ، وظن أنه لا عالم سوى ما هو فيه من مطعم شهىّ ، ومنظر بهىّ ، ولا عالم وراء هذا المحسوس . وهؤلاء هم الطبيعيون الدهريون ، لا يثبتون معقولا .

ومن محصل نوع تحصيل ، قد ترق عن المحسوس ، وأثبت المعقول ، لكنه لا يقول بحدود ، وأحكام ، وشريعة ، وإسلام . ويظن أنه إذا حصّل المعقول ، وأثبت للعالم مبدأ ومعادا ، وصل إلى الكمال المطلوب من جنسه . فتكون سعادته على قدر إحاطته وعلمه . وشقاوته بقدر سفاهته وجهله . وعقله هو المستبد بتحصيل هذه السعادة ، ووضعه هو المستعد لقبول تلك الشقاوة . وهؤلاء هم الفلاسفة الإلهيون .

قالوا : الشرائع وأصحابها : أمور مصلحية عامية . والحدود ، والأحكام ، والحلال ، والحرام : أمور وضعية . وأصحاب الشرائع رجال لهم حِكَمٌ عملية ، وربما يؤيدون من عند واهب الصور بإثبات أحكام ، ووضع حلال وحرام : مصلحة للعباد ، وعمارة للبلاد . وما يخبرون عنه من الأمور الكائنة فى حال من أحوال عالم الروحانيين من الملائكة

والعرش،والكرسى ، واللوح ، والقلم ، فإنما هى أمور معقولة لهم ؛ قد عبروا عنها بصور خيالية جسمانية . وكذلك ما يخبرون به من أحوال المعاد ؛ من الجنة والنار مثل : قصور ، وأنهار ، وطيور ، وثمار فى الجنة ؛ فترغيبات للعوام بما تميل إليه طباعهم . وسلاسل وأغلال ، وخزى ونكال فى النار ، فترهيبات للعوام بما تنزجر عنه طباعهم . وإلا ففى العالم العلوى لايتصور أشكال جسمانية ، وصور جرمانية .

وهذا أحسن ما يعتقدونه فى الأنبياء عليهم السلام . لست أعنى بهم الذين أخذوا علومهم من مشكاة النبوة ، وإنما أعنى بهؤلاء الذين كانوا فى الزمن الأول دهرية وحشيشية ، وطبيعية ، وإلهية ، قد اغتروا بحكمهم ، واستقلوا بأهوائهم وبدعهم .

ثم يتلوهم ويقرب منهم : قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية ، وربما أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيَّد بالوحى ، إلا أنهم اقتصروا على الأول منهم ، ومانفذوا إلى الآخر . وهؤلاء هم الصابئة الأولى ؛ الذين قالوا بعاذيمون ، وهرمس ، وهما : شيث وإدريس[١] عليهما السلام ، ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء عليهم السلام .

* * *

والتقسيم الضابط أن نقول :

(١) من الناس من لا يقول بمحسوس ولا معقول ، وهم السوفسطائية .

(٢) ومنهم من يقول بالمحسوس ولا يقول بالمعقول ، وهم الطبيعية .

(٣) ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول ، ولا يقول بحدود ، وأحكام ؛ وهم الفلاسفة الدهرية .

(٤) ومنهم من يقول بالمحسوس ، والمعقول ، والحدود ، والأحكام . ولا يقول بالشريعة والإسلام ، وهم الصابئة .

---

(١) راجع الكلام عنهما ص ١٠٣ فيما سيأتى .

(٥) ومنهم من يقول بهذه كلها ، وبشريعة ما ، وإسلام . ولا يقول بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وهم : المجوس ، واليهود ، والنصارى .

(٦) ومنهم من يقول بهذه كلها ، وهم المسلمون .

* * *

ونحن قد فرغنا عمن يقول بالشرائع والأديان . فنتكلم الآن فيمن لا يقول بها ، ويستبد برأيه وهواه ؛ فى مقابلتهم .

الفصل الأول

الصابئة

قد ذكرنا فيما تقدم أن الصبوة فى مقابلة الحنيفية . وفى اللغة : صبأ الرجل : إذا مال وزاغ . فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق ، وزيغهم عن نهج الأنبياء ؛ قيل لهم الصابئة .

وقد يقال : صبأ الرجل إذا عشق وهوى .

وهم يقولون : الصبوة هى الانحلال عن قيد الرجال .

وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين ، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين .

والصابئة تدعى أن مذهبها هو الاكتساب ، والحنفاء تدعى أن مذهبها هو الفطرة .

فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة .

الفصل الثاني

أصحاب الروحانيات

وفى العبارة لغتان :

رُوحانى ، بالضم ؛ من الرُّوح ، ورَوْحانى ، بالفتح ؛ من الرَّوْح .

والرُّوح والرَّوْح متقاربان[1] . فكأن الرُّوح جوهر ، والرَوْح : حالته الخاصة به .

١ — مذهب أصحاب الروحانيات

ومذهب هؤلاء : أن للعالم صانعاً ، فاطراً ، حكيما ، مقدساً عن سمات الحدثان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقرَّبين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً ، وفعلا ، وحالة .

أما الجوهر :

فهم المقدسون عن المواد الجسمانية ، المبرءون عن القوى الجسدانية ، المنزهون عن الحركات المكانية ، والتغيرات الزمانية . قد جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح : (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[2]) وإنما أرشدنا إليهم معلمنا الأول عاذيمون ، وهرمس . فنحن نتقرب إليهم ، ونتوكل عليهم ، وهم أربابنا وآلهتنا ، ووسائلنا وشفعاؤنا عند الله ، وهو رب الأرباب ، وإله الآلهة ، رب كل شيء ومليكه .

فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية ، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية ، حتى تحصل مناسبة مابيننا وبين الروحانيات . فحينئذ

---

(١) فى القاموس : الروح بالضم ، ما به حياة الأنفس ، والقرآن ، والوحى ، وعيسى عليهما السلام ، وحكم الله تعالى وأمره . وبالفتح : الراحة والرحمة .

(٢) التحريم آية ٦ .

نسأل حاجاتنا منهم ، ونعرض أحوالنا عليهم ، ونصبو فى جميع أمورنا إليهم ، فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ، ورازقنا ورازقهم ، وهذا التطهير والتهذيب ليس يحصل إلا باكتسابنا ورياضتنا ، وفطامنا أنفسنا عن دَنِيَّات الشهوات باستمداد من جهة الروحانيات ، والاستمداد هو التضرع والابتهال بالدعوات ، وإقامة الصلوات ، وبذل الزكوات ، والصيام عن المطعومات والمشروبات ، وتقريب القرابين والذبائح ، وتبخير البخورات ، وتعزيم العزائم . فيحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة ، بل يكون حكمنا وحكم من يدعى الوحى على وتيرة واحدة .

قالوا : والأنبياء أمثالنا فى النوع ، وأشكالنا فى الصورة ، يشاركوننا فى المادة ، يأكلون مما نأكل ، ويشربون مما نشرب ، ويساهموننا فى الصورة . أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ؟ وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ؟ (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ[1]) مقالتهم .

* * *

وأما الفعل :

فقالوا : الروحانيات ، هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع ، والإيجاد ، وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدإ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية .

فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها ، وهى هياكلها . فلكل روحانى هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحانى إلى ذلك الهيكل الذى اختص به ؛ نسبة الروح إلى الجسد . فهو ربه ومدبره ومديره . وكانوا يسمون الهياكل : أرباباً، وربما يسمونها : آباء . والعناصر : أمهات . ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات فى الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات

---

(١) المؤمنون آية ٣٤ .

وامتزاجات فى المركبات ؛ فيتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات ، وأنواع الحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحانى كلى ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحانى جزئى . فمع جنس المطر مَلَك ، ومع كل قطرة مَلَك .

ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة فى الجو :

مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار ، والثلوج ، والبرد ، والرياح .

ومما ينزل من السماء مثل : الصواعق ، والشهب .

ومما يحدث فى الجو : من الرعد ، والبرق ، والسحاب ، والضباب ، وقوس قزح ، وذوات الأذناب ، والهالة ، والمجرة .

ومما يحدث فى الأرض ، مثل : الزلازل ، والمياه ، والأبخرة ، إلى غير ذلك .

ومنها متوسطات القوى السارية فى جميع الموجودات ، ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات ، حتى لا نرى موجوداً ما خالياً عن قوة وهداية إذا كان قابلا لهما .

* * *

قالوا :

وأما الحالة :

فأحوال الروحانيات من الروح ، والنعمة ، واللذة ، والراحة ، والبهجة ، والسرور فى جوار رب الأرباب : كيف يخفى ؟ .

ثم طعامهم وشرابهم : التسبيح ، والتقديس ، والتهليل ، والتمجيد ، والتحميد ، وأنسهم بذكر الله تعالى وطاعته . فمن قائم ، ومن راكع ، ومن ساجد ، ومن قاعد لا يريد تبديل حالته لما هو فيه من البهجة واللذة ، ومن خاشع بصره لا يرفع ، ومن ناظر لا يغمض ، ومن ساكن لا يتحرك ، ومن متحرك لا يسكن ، ومن كروبى[1] فى عالم القبض ، ومن روحانى فى عالم البسط : (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[2]) .

(١) يقال كرب الأمر : إذا دنا والمراد بالكروبى : المقرب .

(٢) التحريم آية ٦ .

٢ — مناظرات بين الصابئة ، والحنفاء

وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء فى المفاضلة بين الروحانى المحض، وبين البشرية النبوية .

ونحن أردنا أن نوردها على شكل سؤال وجواب ، وفيها فوائد لا تحصى :

قالت الصابئة :

الروحانيات أبدعت إبداعاً لا من شىء . لا مادة ، ولا هيولى ، وهى كلها جوهر واحد على سنخ[1] واحد ، وجواهرها أنوار محضة لا ظلام فيها ، وهى من شدة ضيائها لايدركها الحس ، ولا ينالها البصر ، ومن غاية لطافتها يحار فيها العقل ، ولا يجول فيها الخيال .

ونوع الإنسان مركب من العناصر الأربعة ، مؤلف من مادة ، وصورة ، والعناصر متضادة ومزدوجة بطباعها . اثنان منها مزدوجان ، واثنان منها متضادان ، ومن التضاد يصدر الاختلاف والهرج ، ومن الازدواج يحصل الفساد والمرج . فما هو مبدع لا من شىء ، لا يكون كمخترع من شىء .

والمادة والهيولى سنخ الشر ومنبع الفساد ، فالمركب منها ومن الصورة : كيف يكون كمحض الصورة ؟ والظلام كيف يساوى النور؟ والمحتاج إلى الازدواج ، والمطرفى هوة الاختلاف ، كيف يرقى إلى درجة المستغنى عنهما ؟

أجابت الحنفاء :

بأن قالت : بم عرفتم معاشر الصابئة وجود هذه الروحانيات ؟ والحس ما دلكم عليه ، والدليل ما أرشدكم إليه ؟ قالوا : عرفنا وجودها ، وتعرفنا أحوالها من عاذيمون ، وهرمس : شيث ، وإدريس عليهما السلام .

---

(١) السنخ : الأصل ، وقد سبق .

قالت الحنفاء : لقد ناقضتم وضع مذهبكم . فإن غرضكم فى ترجيح الروحانى على الجسمانى : نفى المتوسط البشرى . فصار نفيكم إثباتاً ، وعاد إنكاركم إقراراً .

ثم من الذى يسلم أن المبدع لا من شيء أشرف من المخترع من شيء ؟ بل وجانب الروحانى أمر واحد ، وجانب الجسمانى أمران :

أحدهما : نفسه وروحه .

والثانى : حسه وجسده . فهو من حيث الروح مبدَع بأمر الله تعالى ، ومن حيث الجسد مختَرَع بخلقه . ففيه أثران : أمرى ، وخلقى : قولى ، وفعلى . فساوى الروحانى بجهة ، وفضله بجهة ، خصوصاً إذا كانت جهته الخلقية ما نقصت الجهة الأخرى ، بل كملت وطهرت .

وإنما الخطأ عرض لكم من وجهين :

أحدهما : أنكم فاضلتم بين الروحانى المجرد ، والجسمانى المجرد . فحكمتم بأن الفضل للروحانى ، وصدقتم . لكن المفاضلة بين الروحانى المجرد ، والجسمانى والروحانى المجتمع ، ولا يحكم عاقل بأن الفضل للروحانى المجرد . فإنه بطرف ساواه ، وبطرف سبقه ، والفرض فيما إذا لم يدنس بالمادة ولوازمها ، ولم تؤثر فيه أحكام التضاد والازدواج . بل كان مستخدماً لها بحيث لا تنازعه فى شيء يريده ويرضاه . بل صارت مُعِينات له على الغرض الذى لأجله حصل التركيب ، وعطلت الوحدة والبساطة ، وذلك تخليص النفوس التى تدنست بالمادة ولوازمها وصارت العلائق عوائق .

وليت شعرى : ماذا يشين اللباس الحسن الشخص الجميل ؟ وكيف يزرى اللفظ الرائق بالمعنى المستقيم ؟ ونعم ما قيل :

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

هذا كمن خاير بين اللفظ المجرد والمعنى المجرد : اختار المعنى ، قيل له : لا ، بل خاير

بين المعنى المجرد ، والعبارة والمعنى حتى لايشكل ، إذ المعنى اللطيف فى العبارة الرشيقة أشرف من المعنى المجرد.

والوجه الثانى : أنكم ماتصورتم من النبوة إلا كمالا وتماماً فحسب ، ولم يقع بصركم على أنها كمال هو مكمل غيره . ففاضلتم بين كمالين مطلقاً ، وماحكمتم إلا بالتساوى وترجيح جانب الروحانى ! ونحن نقول : ماقولكم فى كمالين : أحدهما كامل ، والثانى كامل ومكمل عالما ، أيهما أفضل ؟

قالت الصابئة :

نوع الإنسان ليس يخلو من قوتى الشهوة والغضب ، وهما ينزعان إلى البهيمية والسبعية ، وينازعان النفس الإنسانية إلى طباعها . فيثور من الشهوية : الحرص والأمل . ومن الغضبية : الكبر والحسد ، إلى غيرهما من الأخلاق الذميمة . فكيف يماثل من هذه صفته نوع الملائكة المطهرين عنهما وعن لوازمهما ولواحقهما : صافية أوضاعهم عن النوازع الحيوانية كلها ، خالية طباعهم عن القواطع البشرية بأسرها ؛ لم يحملهم الغضب على حب الجاه ، ولا حملتهم الشهوة على حب المال . بل طباعهم مجبولة على المحبة والموافقة ، وجواهرهم مفطورة على الألفة والاتحاد؟ !

أجابت الحنفاء :

بأن هذه المغالطة مثل الأولى حذو النعل بالنعل . فإن فى طرف البشرية نفسين : نفس حيوانية لها قوتان : قوة الغضب ، وقوة الشهوة . ونفس إنسانية لها قوتان : قوة علمية ، وقوة عملية ، وبتينك القوتين لها أن تجمع وتمنع ، وبهاتين القوتين لها أن تقسم الأمور وتفصل الأحوال . ثم تعرض الأقسام والأحوال على العقل . فيختار العقل ـ الذى هو كالبصر النافذ ـ له ، من العقائد : الحق دون الباطل ، ومن الأقوال : الصدق دون

الكذب . ومن الأفعال : الخير دون الشر . ويختار بقوته العملية من لوازم القوة الغضبية : الشدة ، والشجاعة ، والحمية ؛ دون الذلة والجبن والنذالة . ويختار بها أيضاً من لوازم القوه الشهوية : التآلف ، والتودد ، والبذاذة ؛ دون الشره ، والمهانة ، والخساسة . فيكون من أشد الناس حمية على خصمه وعدوه . ومن أرحم الناس تذللا وتواضعاً لوليه وصديقه . وإذا بلغ هذا الكمال فقد استخدم القوتين ، واستعملهما فى جانب الخير . ثم يترقى منه إلى إرشاد الخلائق فى تزكية النفوس عن العلائق ، وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضب ، وإبلاغها إلى حد الكمال .

ومن المعلوم أن كل نفس شريفة عالية زكية هذه حالها ، لاتكون كنفس لاتنازعها قوة أخرى على خلاف طباعها . وحكم العنين العاجز فى امتناعه عن تنفيذ الشهوة ، لا يكون كحكم المتصون الزاهد المتورع فى إمساكه عن قضاء الوطر مع القدرة عليه . فإن الأول : مضطر عاجز . والثانى : مختار ، قادر ، حسن الاختيار ، جميل التصرف . وليس الكمال والشرف فى فقدان القوتين ، وإنما الكمال كله فى استخدام القوتين .

فنفس النبي عليه السلام كنفوس الروحانيين : فطرة ، ووضعاً . وبذلك الوجه وقعت الشركة . وفضلها وتقدمها باستخدام القوتين اللتين دونها ، فلم تستخدم . واستعمالها فى جانب الخير والنظام ، فلم تستعمله ، وهو الكمال .

قالت الصابئة :

الروحانيات صور مجردة عن المواد ، وإن قدر لها أشخاص تتعلق بها تصرفا ، وتدبيراً ، لا ممازجة ولا مخالطة ، فأشخاصها نورانية أو هياكل كما ذكرنا . والغرض أنها إذا كانت صوراً مجردة كانت موجودات بالفعل لا بالقوة : كاملة لا ناقصة . والمتوسط يجب أن يكون كاملا حتى يكمل غيره . وأما الموجودات البشرية فصور فى مواد ، وإن قدر لها نفوس ، فنفوسها إما مزاجية ، وإما خارجة عن المزاج . والغرض أنها إذا كانت صوراً فى مواد ، كانت موجودات بالقوة لا بالفعل ، ناقصة لا كاملة . والمخرج من القوة

إلى الفعل يجب أن يكون أمراً بالفعل ، ويجب أن يكون غير ذات ما يحتاج إلى الخروج . فإن ما بالقوة لا يخرج بذاته من القوة إلى الفعل ، بل بغيره . والروحانيات هي المحتاج إليها حتى تخرج الجسمانيات إلى الفعل ، والمحتاج إليه كيف يساوى المحتاج ؟

أجابت الحنفاء :

هذا الحكم الذى ذكرتموه ، وهو كون الروحانيات موجودات بالفعل ، غير مسلم على الإطلاق ، لأن من الروحانيات ما يكون وجوده بالقوة ، أو ما هو فيه وجود بالقوة ، ويحتاج إلى ما وجوده بالفعل ، حتى يخرجه من القوة إلى الفعل . فإن النفس لها استعداد القبول من العقل عندكم ، والعقل له إعداد لكل شيء ، وفيض على كل شيء . وأحدهما بالقوة ، والآخر بالفعل . وهذا لضرورة الترتب فى الموجودات العلوية . فإن من لم يثبت الترتب فيها لم تتمش له قاعدة أصلا . وإذا ثبت الترتب فقد ثبت الكمال فى جانب ، والنقصان فى جانب . فليس كل روحانى كاملا من كل وجه ، ولا كل جسمانى ناقصاً من كل وجه . فمن الجسمانيات أيضاً ما وجوده كامل بالفعل ، وسائر النفوس أيضاً محتاجة إليه ، وذلك أيضاً لضرورة الترتب فى الموجودات السفلية ، وإن من لم يثبت الترتب لم تستمر له قاعدة عقلية أصلا . وإذا ثبت الترتب فقد ثبت الكمال فى جانب ، والنقصان فى جانب . فليس كل جسمانى ناقصاً من كل وجه .

قالت : وإذا سلمتم لنا أن هذا العالم الجسمانى فى مقابلة ذلك العالم الروحانى ، وإنما يختلفان من حيث إن ما فى هذا العالم من الأعيان فهو آثار ذلك العالم ، وما فى ذلك العالم من الصور فهو مثل هذا العالم ، والعالمان متقابلان كالشخص و الظل . وإذا أثبتم فى ذلك العالم موجوداً ما بالفعل كاملا تاماً ، حتى تصدر عنه سائر الموجودات : وجوداً ، ووصولا إلى الكمال . فيجب أن تثبتوا فى هذا العالم أيضاً موجوداً ما بالفعل كاملا تاماً ؛ حتى تصدر عنه صائر الموجودات : تعلماً ووصولا إلى الكمال .

قالوا : وإنما طريقنا إلى التعصب للرجال ونيابة الرسل فى الصورة البشرية ، طريقكم فى إثبات الأرباب عندكم ، وهى الروحانيات السماوية ، وذلك احتياج كل مربوب[1] إلى رب يدبره ، ثم احتياج الأرباب إلى رب الأرباب .

ومن العجب أن عند الصابئة أكثر الروحانيات قابلة منفعلة ، وإنما الفاعل الكامل واحد ، وعن هذا صار بعضهم إلى أن الملائكة إناث ، وقد أخبر التنزيل عنهم بذلك (وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا[2]) .

وإذا كان الفاعل الكامل المطلق واحداً ، فما سواه قابل محتاج إلى مخرج يخرج ما فيه بالقوة إلى الفعل . فكذلك نقول فى الموجودات السفلية : النفوس البشرية كلها قابلة للوصول إلى الكمال بالعلم والعمل ، فتحتاج إلى مخرج يخرج ما فيها بالقوة إلى الفعل ، والمخرج هو النبي والرسول ، وما هو مخرج الشىء من القوة إلى الفعل لا يجوز أن يكون أمراً بالقوة محتاجاً . فإن ما لم يتحقق بالفعل وجوداً ، لا يخرج غيره من القوة إلى الفعل ، فالبيض لا يخرج البيض من القوة إلى صورة الطير ، بل الطير يخرج البيض .

وهذا الجواب يماثل الجواب الأول من وجه ، وفيه فائدة أخرى من وجه آخر ، وهى : أن عند الحنفاء المعقول لا يكون معقولا حتى يثبت له مثال فى المحسوس ، وإلا كان متخيلا موهوماً ، والمحسوس لا يكون محسوساً حتى يثبت له مثال فى المعقول وإلا كان سراباً معدوماً ، وإذا ثبتت هذه القاعدة ، فمن أثبت عالماً روحانياً ، وأثبت فيه مدبراً كاملا من جنسه : وجوده بالفعل ، وفعله إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل بفيض الصور عليها فى قدر الاستحقاق . فيلزمه ضرورة أن يثبت عالماً جسمانياً ،

---

(١) مربوب : مفعول من رب يرب رباً الأمر إذا ساسه وقام بتدبيره ، والرب يطلق على الله تبارك وتعالى ، معرفاً بالألف واللام ومضافاً ، ويطلق على مالك الشىء ، فيقال : رب الدين ورب المال ، ويستعمل بمعنى السيد ومنه قوله عليه السلام : « حتى تلد الأمة ربتها » .

(٢) الزخرف آية ١٩ .

ويثبت فيه مدبراً كاملا من جنسه : وجوده بالفعل ، وفعله إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل بفيض الصور عليها على قدر الاستحقاق ، ويسمى المدبر فى ذلك العالم « الروح الأول » على مذهب الصابئة . والمدبر فى هذا العالم « الرسول » على مذهب الحنفاء ، ثم يكون بين الرسول والروح مناسبة وملاقاة عقلية ، فيكون الأول مصدراً، والرسول مظهراً ، ويكون بين الرسول وسائر البشر مناسبة وملاقاة حسية ، فيكون الرسول مؤدياً ، والبشر قابلا .

قالت الصابئة :

الجسمانيات مركبة من مادة ، وصورة ، والمادة لها طبيعة عدمية ، وإذا بحثنا عن أسباب الشر والفساد ، والسفه والجهل ، لم نجد لها سبباً سوى المادة والعدم ، وهما منبعا الشر .

والروحانيات غير مركبة من المادة والصورة ، بل هى صور مجردة ، والصورة لها طبيعة وجودية . وإذا بحثنا عن أسباب الخير ، والصلاح ، والحكمة ، والعلم لم نجد لها سبباً سوى الصورة ، وهى منبع الخير . فنقول : ما فيه أصل الخير ، أو ماهو أصل الخير ، كيف يماثل ما فيه أصل الشر ؟ !

أجابت الحنفاء :

بأن ما ذكرتم فى المادة أنها سبب الشر فغير مسلم : فإن من المواد ما هو سبب الصور كلها عند قوم ، وذلك هو الهيولى[1] الأولى ، والعنصر الأول . حتى صار كثير من قدماء الفلاسفة إلى أن وجودها قبل وجود العقل ، ثم إن سلم فالمركب من المادة والصورة كالمركب من الوجوب والجواز عندكم . فإن الجواز له طبيعة عدمية ، وما من وجود ، سوى وجود البارى تعالى، إلا وجوده جائز بذاته ، واجب بغيره . فيجب أن يلازمه أصل الشر .

(١) الهيولى : المادة ، وتجمع على هيوليات . والكلمة يونانية .

قالوا : وإن سلم لـكم أيضاً تلك المقدمة ، فعندنا صور النفوس البشرية ، وخصوصاً صورة النفوس النبوية ، كانت موجودة قبل وجود المواد ، وهى المبادئ الأولى ، حتى صار كثير من الحكماء إلى إثبات أناس سرمديين[1] ، وهى الصور المجردة التى كانت موجودة قبل العقل كالظلال حول العرش (يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ[2]) وكانت هى أصل الخير ومبدأ الوجود . ولـكن لما ألبست الصورة البشرية لباس المادة ؛ تشبثت بالطبيعة ، وصارت المادة شبكة لها ، فساح عليها الواهب الأول ، فبعث إليها واحداً من عالمه ، وألبسه لباس المادة ليخلص الصور عن الشبكة ، لا ليكون هو المتشبث بها ، المنغمس فيها ، المتوسخ بأوضارها[3] ، المتدنس بآثارها . وإلى هذا المعنى أشار حكماء الهند رمزا بالحمامة المطوقة ، والحمامات الواقعة فى الشبكة .

ثم قالوا : معاشر الصابئة ! أبداً تشنعون علينا بالمادة ولوازمها ، ومالم نفصل القول فيها لم ننج من تشنيعكم .

فنقول : النفوس البشرية وخصوصاً النبوية من حيث إنها نفوس فهى مفارقة للمادة ، مشاركة لتلك النفوس الروحانية : إما مشاركة فى النوع بحيث يكون التميز بالأعراض والأمور العرضية . وإما مشاركة فى الجنس بحيث يكون الفصل بالأمور الذاتية ، ثم زادت على تلك النفوس باقترانها بالجسد أو بالمادة . والجسد لم ينتقص منها ، بل كمّلت هى لوازم الجسد ، وكملَت بها ، حيث استفادت من الأمور الجسدانية ما تجسدت بها فى ذلك العالم من العلوم الجزئية ، والأعمال الخلقية . والروحانيات فقدت هذه الأبدان لفقدان هذا الاقتران . فكان الاقتران خيراً لا شر فيه ، وصلاحاً لا فساد معه ، ونظاما لا فسخ له ، فكيف يلزمنا ما ذكرتموه ؟

---

(١) أصل السرمد الدائم ، والسرمدى مالا أول له ولا آخر .

(٢) الزمر آية ٧٥ .

(٣) الوضر : الوسخ ، من وضر يوضر مثل تعب يتعب : كان وسخا .

قالت الصابئة :

الروحانيات : نورانية علوية لطيفة[١] . والجسمانيات : ظلمانية ، سفلية ، كثيفة . فكيف يتساويان ؟ والاعتبار فى الشرف والفضيلة بذوات الأشياء وصفاتها ، ومراكزها ومحالها . فعالم الروحانيات : العلو لغاية النور واللطافة . وعالم الجسمانيات : السفل لغاية الكثافة والظلمة . والعالمان متقابلان . والكمال للعلوى لا للسفلى . والصفتان متقابلتان ، والفضيلة للنور لا للظلمة .

أجابت الحنفاء :

قالوا : لسنا نوافقكم أولا على أن الروحانيات كلها نورانية ، ولا نساعدكم ثانياً أن الشرف للعلو ، ولا نساهلكم أصلا أن الاعتبار فى الشرف بذوات الأشياء .

وعلينا بيان هذه المقدمات الثلاث ، فإن فيها فوائد كثيرة .

أما الأولى ؛فقالوا : حكمتم على الروحانيات حكم التساوى ، وما اعتبرتم فيها التضاد والترتب . وإذا كانت الموجودات كلها ، روحانيها وجسمانيها ، على قضية التضاد والترتب ؛ فلم أغفلتم الحكمين ههنا ؟ وذلك أن من قال : الروحانى هو ما ليس بجسمانى ؛ فقد أدخل جواهر الشياطين والأبالسة والأراكنة[٢] فى جملة الروحانيات . وكذلك من أثبت الجن أثبتها روحانية لا جسمانية . ثم من الجن من هو مسلم ، ومنها من هو ظالم . ومن قال الروحانى هو المخلوق روحا ، فمن الأرواح ما هو خير ، ومنها ما هو شرير . والأرواح الخبيثة أضداد الأرواح الطيبة ، فلابد إذن من إثبات تضاد بين الجنسين ، وتنافر بين الطرفين . فلم تسلم دعواكم أنها كلها نورانية .

بلى : وعندنا ، معاشر الحنفاء ، الروح هو الحاصل بأمر البارى تعالى ، الباقى على مقتضى أمره . فمن كان لأمره تعالى أطوع ، وبرسالات رسله أصدق : كانت الروحانية

---

(١) لطف لطفاً ولطافة : صغر ودق فهو لطيف (ضد ضخم وكثف) .
(٢) أصل الأركون : الرئيس والمقدم والدهقان المعظم ، وهى يونانية .

فيه أكثر والروح عليه أغلب . ومن كان لأمره تعالى أنكر ، وبشرائعه أكذب : كانت الشيطنة عليه أغلب .

هذه قاعدتنا فى الروحانيات . فلا روحانى أبلغ فى الروحانية من ذوات الأنبياء والرسل عليهم السلام .

وأما قولكم : إن الشرف للعلو ، إن عنيتم به علو الجهة فلا شرف فيه . فكم من عال جهة : سافل رتبة ، وعلما ، وذاتا ، وطبيعة . وكم من سافل جهة : عال على الأشياء كلها رتبة ، وفضيلة ، وذاتا ، وطبيعة .

وأما قولكم : إن الاعتبار فى الشرف بذوات الأشياء وصفاتها ومحالها ومراكزها ؛ فليس بحق ، وهو مذهب اللعين الأول حيث نظر إلى ذاته وذات آدم عليه السلام ففضل ذاته ، إذ هى مخلوقة من النار وهى علوية نورانية ، على ذات آدم وهو مخلوق من الطين ، وهو سفلى ظلمانى .

بل عندنا الاعتبار فى الشرف بالأمر وقبوله . فمن كان أقبل لأمره ، وأطوع لحكمه وأرضى بقدره ، فهو أشرف . ومن كان على خلاف ذلك فهو أبعد وأخس ، وأخبث . فأمر البارى تعالى هو الذى يعطى الروح (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي[1]) وبالروح يحيا الإنسان الحياة الحقيقية . وبالحياة يستعد للعقل الغريزى . وبالعقل يكتسب الفضائل ويجتنب الرذائل . ومن لم يقبل أمر البارى تعالى فلا روح له ، ولا حياة له ، ولا عقل له ، ولا فضيلة له ، ولا شرف عنده .

قالت الصابئة :

الروحانيات فضلت الجسمانيات بقوتى العلم والعمل .

أما العلم فلا ينكر إحاطتهم بمغيبات الأمور عنا ، واطلاعهم على مستقبل الأحوال الجارية علينا ، ولأن علومهم كلية ، وعلوم الجسمانيات جزئية ، وعلومهم فعلية ، وعلوم

---

(١) الإسراء آية ٨٥ .

الجسمانيات انفعالية . وعلومهم فطرية ، وعلوم الجسمانيات كسبية . فمن هذه الوجوه تحقق لها الشرف على الجسمانيات .

وأما العمل فلا ينكر أيضاً عكوفهم على العبادة ، ودوامهم على الطاعة (يسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لاَ يَفْتَرُونَ[1]) لا يلحقهم كلال ولا سآمة ، ولا يرهقهم ملال ولا ندامه . فتحقق لها الشرف أيضاً بهذا الطرف . وكان أمر الجسمانيات بالخلاف من ذلك .

أجابت الحنفاء عن هذا بجوابين :

أحدهما : التسوية بين الطرفين ، وإثبات زيادة فى جانب الأنبياء عليهم السلام .

والثانى : بيان ثبوت الشرف فى غير العلم والعمل .

أما الأول : فإنهم قالوا : علوم الأنبياء عليهم السلام كلية وجزئية ، وفعلية وانفعالية ، وفطرية وكسبية . فمن حيث تلاحظ عقولهم عالم الغيب ـ منصرفة عن عالم الشهادة ـ تحصل لهم العلوم الكلية: فطرة ودفعة واحدة . ثم إذا لاحظوا عالم الشهادة حصلت لهم العلوم الجزئية: اكتسابا بالحواس على ترتيب وتدريج ، فكما أن للإنسان علوما نظرية هى المعقولات ، وعلوماً حاصلة بالحواس عن المحسوسات ، فعالم المعقولات بالنسبة إلى الأنبياء كعالم المحسوسات بالنسبة إلى سائر الناس، فنظرياتنا فطرية لهم ، ونظرياتهم لا نصل إليها قط ، بل ومحسوساتنا مكتسبة لهم ، ولنا بكواسب الجوارح : جوارح الحواس . فأمزجة الأنبياء عليهم السلام أمزجة نفسانية ، ونفوسهم نفوس عقلية ، وعقولهم عقول أمرية ، ولو وقع حجاب فى بعض الأوقات فذاك لموافقتنا ومشاركتنا كى تزكى هذه العقول وتصفى هذه الأذهان والنفوس ، وإلا فدرجاتهم وراء ما يقدر .

وأما الثانى : فإنهم قالوا : من العجب أنهم لا يعجبون بهذه العلوم ، بل ويؤثرون التسليم على البصيرة ، والعجز على القدرة ، والتبرؤ من الحول والقوة على الاستقلال ، والفطرة على الاكتساب (وَمَا أَدرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُم[2]) عَلَى (إِنمَا أُوتِيتُهُ عَلى عِلمٍ عِندِى[3]) .

---

(١) فترعن العمل فتوراً من باب قعد ـ انكسرت حدته ، ولان بعد شدته ـ الأنبياء آية ٢٠ .

(٢) الأحقاف آية ٩ .　　(٣) القصص آية ٧٨ .

ويعلمون أن الملائكة والروحانيات بأسرها ، وإن علمت إلى غاية قوة نظرها وإدراكها ، ما أحاطت بما أحاط به علم البارى تعالى ، بل لكل منهم مطرح نظر ، ومسرح فكر ، ومجال عقل ، ومنتهى أمل ، ومطار وَهْم وخيال . وأنهم إلى الحد الذى انتهى نظرهم إليه مستبصرون ، ومن ذلك الحد إلى ما وراءه مما لا يتناهى ، مسلمون مصدقون . وإنما كمالهم فى التسليم لما لا يعلمون ، والتصديق لما يجهلون (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ[1]) ليس كمال حالهم بل (سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا[2]) هو الكمال .

فمن أين لكم معاشر الصابئة أن الكمال والشرف فى العلم والعمل لا فى التسليم والتوكل ؟

وإذا كانت غاية العلوم هذه الدرجة فجعلت نهاية أقدام الملائكة والروحانيين بداية أقدام السالكين من الأنبياء والمرسلين (قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ[3]) فعالم الروحانيات بالنسبة إليهم شهادة ، وبالنسبة إلينا غيب . وعالم البشر الجسمانيات بالنسبة إلينا شهادة ، وبالنسبة إليهم غيب . والله تعالى هو الذى (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى[4]) .

قالت الحنفاء :

من علم أنه لا يعلم فقد أحاط بكل العلم ومن اعترف بالعجز عن أداء الشكر فقد أدى كل الشكر .

قالت الصابئة :

الروحانيات لهم قوة تصريف الأجسام ، وتقليب الأجرام . والقوة التى لهم ليست من جنس القوى المزاجية حتى يعرض لها كلال ولغوب فتنحسر ، ولكن القوى الروحانية بالخواص الجسمانية أشبه ، وإنك لترى الخامة اللطيفة من النبات فى بدء نموها تفتق الحجر وتشق الصخر . وما ذاك إلا لقوة نباتية فاضت عليها من القوى السماوية . ولو كانت هى

(١،٢) البقرة آية ٣٠ ، ٣٢ . (٣) النمل آية ٦٥ . (٤) طه آية ٧ .

(٥) اللغوب : التعب والإعياء .

قوى مزاجية لما بلغت إلى هذا المنتهى ، فالروحانيات هى التى تتصرف فى الأجسام تقليباً وتصريفاً ، لا يثقلهم حمل الثقيل ، ولا يستخفهم تحريك الخفيف . فالرياح تهب بتحريكها ، والسحاب يعرض ويزول بتصريفها . وكذلك الزلازل تقع فى الجبال بسبب من جهتها . وكل هذه ،وإن استندت إلى أسباب جزئية،فإنها تستند فى الآخرة إلى أسباب من جهتها .

ومثل هذه القوة عديم الوجود فى الجسمانيات .

أجابت الحنفاء :

وقالوا : منا يقتبس تفصيل القوى ، وتجنيسها .

فإن القوى تنقسم إلى : قوى معدنية ، وقوى نباتية ، وقوى حيوانية ، وقوى إنسانية ، وقوى ملكية ، وقوى روحانية ، وقوى نبوية ربانية . والإنسان مجمع القوى بجملتها . والإنسانية النبوية تفضلها بقوى ربانية ، ومعان إلهية .

فنذكر أولا : وجه تركيب الإنسان ، ووجه ترتيب القوى فيه . ثم نذكر تركيب البشرية النبوية ، وترتيب القوى فيها ، ثم نخاير بين الوضعين : الروحانى منهما ، والجسمانى ، وإليك الاختيار .

أما شخص الإنسان فمركب من الأركان الأربعة : التراب ، والماء ، والهواء ، والنار ، التى لها الطبائع الأربعة : اليبوسة ، والرطوبة ، والحرارة ، والبرودة . ثم مركب فيه نفوس ثلاثة ، إحداها : نفس نباتية تنمو وتتغذى وتولد المثل . والثانية : نفس حيوانية تحس ، وتتحرك بالإرادة . والثالثة : نفس إنسانية بها يميز ، ويفكر ، ويعبر عما يفكر .

ووجود النفس الأولى من الأركان وطبائعها ، وبقاؤها بها ، واستمدادها منها . ووجود النفس الثانية من الأفلاك وحركاتها ، وبقاؤها بها ، واستمدادها منها . ووجود النفس الثالثة من العقول البحتة والروحانيات الصرفة ، وبقاؤها بها ، واستمدادها منها .

ثم إن النباتية تطلب الغذاء طبعاً ، والحيوانية تطلب الغذاء حساً ، والإنسانية تطلب الغذاء اختياراً وعقلا . ولكل نفس منها محل . فمحل النباتية الكبد ، ومنه مبدأ النمو والنشوء ، وعن هذا جعل فيه عروق دقاق ينفذ فيها الغذاء إلى الأطراف . ومحل الحيوانية : القلب ، ومنه مبدأ تدبير الحس والحركة ، وعن هذا فتح منه عروق إلى الدماغ . فيصعد إلى الدماغ من حرارته ما يعدل تلك البرودة ، وينزل منه من آثاره ما يدبر به الحركة . ومحل الإنسانية ، تصريفاً وتدبيراً : الدماغ ، ومنه مبدأ الفكر ، والتعبير عن الفكر . وعن هذا فتحت إليه أبواب الحواس مما يلى هذا العالم ، وفتحت إليه أبواب المشاعر مما يلى ذلك العالم . وههنا ثلاثة أعضاء ممدات لابد منها : المعدة التى تمد الكبد بالغذاء . والرئة التى تمد القلب بترويح الهواء . والعروق التى تمد الدماغ بالحرارة .

فإذن التركيب الإنسانى أشرف التراكيب ، فإن فيه جميع آثار العالم الجسمانى والروحانى . وترتيب القوى فيه أكمل الترتيب . فهو مجمع آثار الكونين والعالمين . فكل ما هو فى العالم منتشر ففيه مجتمع . وكل ما هو فيه من خواص الاجتماع ، فليس العالم ألبتة ، لأن للاجتماع والتركيب خاصية لاتوجد فى حال الافتراق والانحلال . واعتبر فيه حال السكر والخل ، وحال السكنجبين[١] ، وكذلك الحكم فى كل مزاج .

هذا وجه تركيب البدن ، وترتيب القوى الخاصة به .

وأما وجه اتصال النفس به ، وترتيب القوى الخاصة بها مما يلى هذا العالم ، ومما يلى ذلك العالم ؛ فاعلم أن النفس الإنسانية جوهر هو أصل القوى المحركة ، والمدركة ، والحافظة للمزاج : تحرك الشخص بالإرادة ، لا فى جهات ميله الطبيعى ، وتتصرف فى أجزائه ، ثم فى جملته ، وتحفظ مزاجه عن الانحلال ، وتدرك بالمشاعر المركوزة فيه ، وهى الحواس الخمس ؛ فبالقوة الباصرة تدرك الألوان والأشكال ، وبالقوة السامعة تدرك الأصوات والكلمات ، وبالقوة الشامة تدرك الروائح ، وبالقوة الذائقة تدرك المطعومات ، وبالقوة اللامسة تدرك

---

(١) السكنجبين : كلمة فارسية معناها : خل وعسل . وهى بفتح السين والكاف ، وسكون النون ، وفتح الجيم .

الملموسات . وله فروع من قوى منبثة فى أعضاء البدن ، حتى إذا أحس بشىء من أعضائه ، أو تخيل ، أو توهم ، أو اشتهى ، أو غضب ، ألقى العلاقة التى بينه وبين تلك الفروع هيئة فيه حتى يفعل ، وله إدراك وقوة تحريك .

أما الإدراك فهو أن يكون مثال حقيقة المدرك : متمثلا مرتسما فى ذات المدرك ، غير مباين له . ثم المثال قد يكون مثال صورة الشىء ، وقد يكون مثال حقيقته . ومثال صورة الشىء هو ما يكون محسوساً ، فيرتسم فى القوة الباصرة وقد غشيته غواش غريبة عن ماهيته ، لو أزيلت عنه لم تؤثر فى كنه ماهيته ، مثل : أين ، وكيف ، ووضع ، وكم معينة ، لو توهم بدلها غيرها لم يؤثر فى ماهية ذلك المدرك ، والحس يناله من حيث هو مغمور فى هذه العوارض التى تلحقه بسبب المادة ، لا يجردها عنه ، ولا يناله إلا بعلاقة وضعية بين حسه ومادته .

ثم الخيال الباطن ، يتخيله مع تلك العوارض التى لا يقدر على تجريده المطلق عنها ، لكنه يجرده عن تلك العلائق الوضعية التى تعلق بها الحس . فهو يتمثل صورة مع غيبوبة حاملها ، وعنده مثال العوارض ، لا نفس العوارض . ثم الفكر العقلى يجرده عن تلك العوارض ، فيعرض ماهيته وحقيقته على العقل ، فيرتسم فيه مثال حقيقته حتى كأنه عمل بالمحسوس عملا جعله معقول . وأما ما هو برىء فى ذاته عن الشوائب المادية ، منزه عن العوارض الغريبة ، فهو معقول لذاته ، ليس يحتاج إلى عمل يعمل فيه فيعقله ما من شأنه أن يعقله . فلا مثال له يتمثل فى العقل ، ولا ماهية له فيجرد له ، ولا وصول إليه بالإحاطة والفكرة ، إلا أن البرهان يدلنا عليه ، ويرشدنا إليه .

وكثيراً ما يلاحظ العقل الإنسانى عالم العقل الفعال فيرتسم فيه من الصورة المجردة المعقولة ارتساماً بريئاً عن العلائق المادية والعوارض الغريبة ، فيبتدر الخيال إلى تمثله ، فيمثله فى صورة خيالية مما يناسب عالم الحس ، فينحدر إلى الحس المشترك ذلك المثال ، فيبصره كأنه يراه معايناً مشاهداً يناجيه ويشاهده حتى كأن العقل عمل بالمعقول عملا جعله محسوساً ، وذلك إنما يكون عند اشتغال الحواس كلها عن أشغالها ، وسكون المشار عن حركاتها فى النوم لجماعة ، وفى اليقظة للأبرار .

يا عجبا كل العجب من تركيب على هذا النمط ! ! ومن أين لغيره مثله ؟ ؟

ونعود إلى ترتيب القوى وتعيين محالها .

أما القوى المتعلقة بالبدن التى ذكرناها آلات ومشاعر للجوهر الإنسانى .

فالأولى منها : الحس المشترك المعروف (بينطاسيا) الذى هو مجمع الحواس ، ومورد المحسوسات ، وآلتها الروح المصبوب فى مبادئ عصب الحس ، لاسيما فى مقدم الدماغ .

والثانية : الخيال والمصوّرة ، وآلتها الروح المصبوب فى البطن المقدم من الدماغ ، لاسيما فى الجانب الآخر .

والثالثة : الوهم الذى هو لكثير من الحيوان وهو ما به تدرك الشاة معنى فى الذئب فتفر منه ، وبه تدرك معنى فى النوع فتنفر إليه وتزدوج به ، وآلته الدماغ كله ، لكن الأخص منه به هو التجويف الأوسط .

والرابعة : المفكرة ، وهى قوة لها أن تركب وتفصل ما يليها من الصور المأخوذة عن الحس المشترك ، والمعانى الوهمية المدركة بالوهم . فتارة تجمع ، وتارة تفصل ، وتارة تلاحظ العقل فتعرض عليه ، وتارة تلاحظ الحس فتأخذ منه ، وسلطانها فى الجزء الأول من الدماغ ، وكأنها قوة ما للوهم ، وتتوسط بين الوهم والعقل .

والخامسة : القوة الحافظة ، وهى التى كالخزانة لهذه المدركات الحسية والوهمية والخيالية دون العقلية الصرفة . فإن المعقول البحت لا يرتسم فى جسم ولا فى قوة جسم ، والحافظة قوة فى جسم ، وآلتها الروح المصبوب فى أول البطن المؤخر من الدماغ .

والسادسة : القوة الذاكرة ؛ وهى التى تستعرض ما فى الخزانة على جانب العقل أو على الخيال والوهم . وآلتها الروح المصبوب فى آخر البطن المؤخر من الدماغ .

وأما المعقول الصرف المبرأ عن الشوائب المادية ، فلا يحل فى قوة جسمانية وآلة جسدانية ، حتى يقال ينقسم بانقسامها ، ويتحقق لها وضع ومثال . ولهذا لم تكن القوة الحافظة خزانة لها ، بل المصدر الأول الذى أفاض عليها تلك الصورة صار خازناً لها .

فحيثما طالعته النفس الإنسانية بقوتها العقلية المناسبة لواهب الصور نوعا من المناسبة فاضت منه عليها تلك الصور المستحفظة له حتى كأنه ذكرها بعد ما نسيت ، ووجدها بعد ما ضلت عنه .

وغريزة النفس الصافية تنزع إلى جانب القدس فى تذكار الأمور الغائبة عن حضرة العقل نزاعا طبيعياً ، فتستحضر ما غاب عنها ، ولهذا السر أخبر الكتاب الإلهى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا[1] ﴾ حتى صار كثير من الحكماء إلى أن العلوم كلها تذكار، وذلك أن النفوس كانت فى البدء الأول فى عالم الذكر ، ثم هبطت إلى عالم النسيان ، فاحتاجت إلى مذكرات لما قد نسيت ، معيدات إلى ما كانت قد ابتدأت : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ[2] — وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ[3] ﴾ .

ثم للنفس الإنسانية قوى عقلية لا جسمانية ، وكمالات نفسانية روحانية لا جسدانية فمن قواها مالها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن ، وهى القوة التى تختص باسم العقل العملى ، وذلك أن تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل ولا يفعل ، ومن قواها مالها بحسب حاجتها إلى تكميل جوهرها عقلا بالفعل ، وإنما يخرج من القوة إلى الفعل بمخرج غير ذاتها لا محالة ، فيجب أن يكون لها قوة استعدادية تسمى عقلا هيولانيا[4] ، حتى يقبل من غيرها ما به يخرجها من الاستعداد إلى الكمال . فأول خروج لها إلى الفعل حصول قوة أخرى من واهب الصور يحصل لها عند استحضارها المعقولات الأول . فيتهيأ بها لاكتساب الثوانى : إما بالفكر ، وإما بالحدس . فيتدرج قليلا قليلا إلى أن يحصل لها ما قدر من المعقولات ، ولكل نفس استعداد إلى حد ما لا يتعداه ، ولكل عقل حد ما لا يتخطاه ، فيبلغ إلى كماله المقدر له ، ويقتصر على قوته المركوزة فيه ، ولا يتبين ههنا وجود التضادّ بين النفوس والعقول ، ووجوب الترتب فيها .

---

(١) الكهف آية ٢٤ . (٢) الذاريات آية ٥٥ . (٣) إبراهيم آية ٥ .

(٤) نسبة إلى هيولى بمعنى المادة كما سبق .

وإنما يعرف مقادير العقول ومراتب النفوس : الأنبياء والمرسلون الذين اطلعوا على الموجودات كلها : روحانياتها وجسمانياتها ، معقولاتها ومحسوساتها ، كلياتها وجزئياتها ، علوياتها وسفلياتها . فعرفوا مقاديرها ، وعينوا موازينها ومعاييرها .

وكل ماذكرناه من القوى الإنسانية فهى حاصلة لهم ، مركبة فيهم ، منصرفة كلها عن جانب الغرور إلى جانب القدس ، مستديمة الشروق بنور الحق فيها ، حتى كأن كل قوة من القوى الجسدانية والنفسانية ملك روحانى موكل بحفظ ما وجه إليه ، واستتمام ما رشح له . بل ومجموع جسده ونفسه : مجمع آثار العالمين من الروحانيات والجسمانيات . وزيادة أمرين ، أحدهما : ما حصل له من فائدة التركيب والترتيب كما بينا من مثال السكر والخل . والثانى : ما أشرق عليه من الأنوار القدسية : وحياً وإلهاماً ، ومناجاة ، وإكراماً .

فأين للروحانى هذه الدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، والكمال الموجود ؟ .

بل ومن أين للروحانيات كلها هذا التركيب الذى خص نوع الإنسان به ؟

وما تعلقوا به من القوة البالغة على تحريك الأجسام ، وتصريف الأجرام[1] ، فليس يقتضى شرفاً ، فإن ما يثبت لشيء ويثبت لضده مثله لم يتضمن شرفاً ، ومن المعلوم أن الجن والشياطين قد ثبت لهم من القوة البالغة والقدرة الشاملة ما يعجز كثير من الموجودات عن ذلك ، وليس ذلك مما يوجب شرفاً وكمالا ، وإنما الشرف فى استعمال كل قوة فيما خلقت له ، وأمرت به ، وقدرت عليه .

قالت الصابئة :

الروحانيات لها اختيارات صادرة من الأمر ، متوجهة إلى الخير ، مقصورة على نظام العالم ، وقوام الكل . لا يشوبها ألبتة شائبة الشر ، وشائبة الفساد ، بخلاف اختيار البشر فإنه متردد بين طرفى الخير والشر لولا رحمة الله فى حق البعض ، وإلا فوضع

---

(١) الجرم : بكسر الجيم ، الجسد .

اختيارهم كان ينزع إلى جانب الشر والفساد ، إذ كانت الشهوة والغضب المركوزتان فيهم يجرانهم إلى جانبهما . وأما الروحانيات فلا ينازع اختيارهم إلا التوجه إلى وجه الله تعالى ، وطلب رضاه ، وامتثال أمره . فلا جَرم كل اختيارٍ هذا حاله لا يتعذر عليه ما يختاره ، فكما أراد واختار ، وجد المراد وحصل المختار . وكل اختيارٍ ذلك حاله تعذر عليه ما يختاره ، فلا يوجد المراد ، ولا يحصل المختار .

أجابت الحنفاء بجوابين :

أحدهما : نيابة عن جنس البشر . والثانى : نيابة عن الأنبياء عليهم السلام .

أما الأول فنقول : اختيار الروحانيات إذا كان مقصوراً على أحد الطرفين ، محصوراً : كان فى وضعه مجبوراً ، ولا شرف فى الجبر . واختيار البشر تردد بين طرفى الخير والشر . فمن جانب يرى آيات الرحمن ، ومن طرف يسمع وساوس الشيطان . فتميل به تارة دعوة الحق إلى امتثال الأمر ، وتميل به طوراً داعية الشهوة إلى اتباع الهوى . فإذا أقر طوعاً وطبعاً بوحدانية الله تعالى ، واختار من غير جبر وإكراه طاعته ، وصير اختياره المتردد بين الطرفين مجبوراً تحت أمره تعالى باختيار من جهته من غير إجبار : صار هذا الاختيار أفضل وأشرف من الاختيار المجبور فطرة . كالمكره فعله : كسباً ، الممنوع عما لا يجب جبراً ، ومن لا شهوة له فلا يميل إلى المشتهى ، كيف يمدح عليه ؟ وإنما المدح كل المدح لمن زين له المشتهى فنهى النفس عن الهوى . فتبين أن اختيار البشر أفضل من اختيار الروحانيات .

وأما الثانى : فنقول : إن اختيار الأنبياء عليهم السلام مع أنه ليس من جنس اختيار البشر من وجه ، فهو متوجه إلى الخير ، مقصور على الصلاح الذى به نظام العالم وقوام الكل . صادر عن الأمر ، صائر إلى الأمر ، لا يتطاق إلى اختيارهم ميل إلى الفساد ، بل ودرجتهم فوق ما يبتدر إلى الأوهام . فإن العالى لا يريد أمراً لأجل السافل ، من حيث هو سافل ، بل إنما يختار ما يختار لنظام كلي ، وأمر أعلى من الجزئى .

ثم يتضمن ذلك حصول نظام فى الجزئى تبعاً لا مقصوداً . وهذا الاختيار والإرادة على جهة سنة الله تعالى فى اختياره ومشيئته للكائنات ، لأن مشيئته تعالى كلية متعلقة بنظام الكل ، غير معللة بعلة ، حتى لا يقال إنما اختار هذا لكذا ، وإنما فعل هذا لكذا . فلكل شىء علة ، ولا علة لصنعه تعالى ، بل لا يريد إلا كما علم . وذلك أيضاً ليس بتعليل ، لكنه بيان أن إرادته أعلى من أن تتعلق بشىء لعلة دونها ، وإلا لكان ذلك الشىء حاملا له على ما يريد . وخالق العلل والمعلولات لا يكون محمولا على شىء . فاختياره لايكون معللا بشىء . واختياره الرسول المبعوث من جهته ينوب عن اختياره كما أن أمره ينوب عن أمره ، فيسلك سبل ربه ذللا[1] ، ثم يخرج من قضية اختياره نظام حال وقوام أمر مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس . فمن أين للروحانيات هذه المنزلة ؟ وكيف يصلون إلى هذه الدرجة ؟

كيف ، وكل ما يذكرونه فموهوم ، وكل ما يذكره النبى فمحقق مشاهدة وعياناً . بل وكل مايحكى عن الروحانيات من كمال علمهم وقدرتهم ونفوذ اختيارهم واستطاعتهم ، فإنما أخبرنا بذلك الأنبياء والمرسلين عليهم السلام . وإلا فأى دليل أرشدنا إلى ذلك ونحن لم نشاهدهم ، ولم نستدل بفعل من أفعالهم على صفاتهم وأحوالهم ؟

قالت الصابئة :

الروحانيون متخصصون بالهياكل العلوية مثل زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر . وهذه السيارات كالأبدان والأشخاص بالنسبة إليها . وكل ما يحدث من الموجودات ، ويعرض من الحوادث ؛ فكلها مسببات هذه الأسباب ، وآثار هذه العلويات . فيفيض على هذه العلويات من الروحانيات تصريفات وتحريكات إلى جهات الخير والنظام ، ويحصل من حركاتها واتصالاتها تركيبات وتأليفات فى هذا العالم ، ويحدث فى المركبات أحوال ومناسبات . فهم الأسباب الأول ،

---

(١) ذللا : جمع ذلول ، وهى حال من السبل . والمعنى مسخرة فلا تعسر عليه .

والـكل مسبباتها ، والمسبب لا يساوى السبب . والجسمانيون متشخصون بالأشخاص السفلية ، والمتشخص كيف يماثل غير المتشخص ؟

وإنما يجب على الأشخاص فى أفعالهم وحركاتهم اقتفاء آثار الروحانيات فى أفعالها وحركاتها حتى يراعى أحوال الهياكل ، وحركات أفلاكها زماناً ومكاناً ، وجوهراً وهيئة ، ولباساً ، وبخوراً ، وتعزيماً ، وتنجيماً ، ودعاء ، وحاجة خاصة بكل هيكل . فيكون تقرباً إلى الهيكل . تقرباً إلى الروحانى الخاص به . فيكون تقرباً إلى رب الأرباب ، ومسبب الأسباب حتى يقضى حاجته ، ويتم مسألته .

وسيأتى تفصيل ما أجملوه من أمر الهياكل عند ذكر أصحابها إن شاء الله تعالى .

أجابت الحنفاء :

بأن قالوا : الآن نزلتم عن نيابة الروحانيات الصرفة إلى نيابة هياكلها ، وتركتم مذهب الصبوة الصرفة . فإن الهياكل أشخاص الروحانيين . والأشخاص هياكل الربانيين غير أنكم أثبتم لـكل روحانى هيكلا خاصاً ، له فعل خاص لايشاركه فيه غيره .

ونحن نثبت أشخاصاً رسلا كراماً ، تقع أوضاعهم وأشخاصهم فى مقابلة كل الـكون : الروحانى منهم فى مقابلة الروحانى منها . والأشخاص منهم فى مقابلة الهياكل منها . وحركاتهم فى مقابلة حركات جميع الـكواكب والأفلاك ، وشرائعهم مراعاة حركات استندت إلى تأييد إلهى ، ووحى سماوى ، موزونة بميزان العدل ، مقدرة على مقادير الـكتاب الأول (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ[1]) ليست مستخرجة بالآراء المظلمة ، ولا مستنبطة بالظنون الـكاذبة . إنْ طابقتها على المعقولات تطابقتا ، وإن وافقتها بالمحسوسات توافقتا .

كيف ونحن ندعى أن الدين الإلهى هو الموجود الأول . والـكائنات تقدرت عليه ،

---

(١) الحديد آية ٢٥ .

وأن المناهج التقديرية هى الأقدم . ثم المسالك الخلقية والسنن الطبيعية توجهت إلينا . ولله تعالى سنتان فى خلقه وأمره . والسنة الأمرية أقدم وأسبق من السنة الخلقية . وقد أطلع خواصّ عباده من البشر على السنتين : (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً[1]) هذا من جهة الخلق : (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً[2]) هذا من جهة الأمر .

فالأنبياء عليهم السلام متوسطون فى تقرير سنة الأمر . والملائكة متوسطون فى تقرير سنة الخلق . والأمر أشرف من الخلق . فمتوسط الأمر أشرف من متوسط الخلق ، فالأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة .

وهذا عجب حيث صارت الروحانيات الأمرية متوسطات فى الخلق . وصارت الأشخاص الخلقية متوسطين فى الأمر ، ليعلم أن الشرف والكمال فى التركيب لا فى البساطة ، واليد للجسمانى لا للروحانى . والتوجه إلى التراب أولى من التوجه إلى السماء . والسجود لآدم عليه السلام أفضل من التسبيح والتحميد والتقديس .

وليعلم أن الكمال فى إثبات الرجال ، لا فى تعيين الهياكل والظلال ، وأنهم هم الآخرون وجوداً ، السابقون فضلا . وأن آخر العمل أول الفكرة ، وأن الفطرة لمن له الحجة . وأن المخلوق بيديه لا يكون كالمكون بحرفيه ، قال عز وجل : (فَوَعِزَّتِي وَجلاَلِي لاَ أَجْعَلُ مَنْ خَلَقْتُهُ بِيَدِي كَمَنْ قُلْتُ لَهُ كُنْ فَكَانَ[3]) .

قالت الصابئة :

الروحانيات مبادئ الموجودات ، وعالمها معاد الأرواح . والمبادئ أشرف ذاتاً وأسبق وجوداً . وأعلى رتبة ودرجة من سائر الموجوات التى حصلت بتوسطها . وكذلك عالمها عالم المعاد والمعاد كمال ، فعالمها عالم الكمال .

(١ ، ٢) فاطر آية ٤٢ والتلاوة — فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولم تجد لسنة الله تحويلا — .
(٣) من الأحاديث القدسية .

فالمبدأ منها، والمعاد إليها، والمصدر عنها، والمرجع إليها بخلاف الجسمانيات . وأيضاً فإن الأرواح إنما نزلت من عالمها حتى اتصلت بالأبدان، فتوسخت بأوضار الأجسام . ثم تطهرت عنها بالأخلاق الزكية، والأعمال المرضية، حتى انفصلت عنها، فصعدت إلى عالمها الأول . والنزول هو النشأة الأولى ، والصعود هو النشأة الأخرى . فعرف أنهم أصحاب الكمال، لا أشخاص الرجال .

أجابت الحنفاء :

قالوا : من أين سلمتم هذا التسليم : أن المبادىء هى الروحانيات ؟ وأىّ برهان أقمتم ؟ وقد نقل عن كثير من قدماء الحكماء أن المبادىء هى الجسمانيات على اختلاف منهم فى الأول . منها أنه نار ، أو هواء ، أو ماء ، أو أرض ؟ واختلاف آخر : أنه مركب أو بسيط . واختلاف آخر : أنه إنسان أو غيره ؟ حتى صارت جماعة إلى إثبات أناس سرمديين .

ثم منهم من يقول: إنهم كانوا كالظلال حول العرش . ومنهم من يقول : إن الآخر وجوداً من حيث الشخص فى هذا العالم : هو الأول وجوداً من حيث الروح فى ذلك العالم . وعليه خرج أن أول الموجودات نور محمد عليه السلام . فإذا كان شخصه هو الآخر من جملة الأشخاص النبوية ؛ فروحه هو الأول من جملة الأرواح الربانية ، وإنما حضر هذا العالم ليخلص الأرواح المدنسة بالأوضار الطبيعية فيعيدها إلى مبدئها . وإذا كان هو المبدأ فهو المعاد أيضاً . فهو النعمة والنعيم ، وهو الرحمة وهو الرحيم .

قالوا : ونحن إذا أثبتنا أن الكمال فى التركيب لا فى البساطة والتحليل ، فيجب أن يكون المعاد بالأشخاص والأجساد ، لا بالنفوس والأرواح . والمعاد كمال لا محالة ، غير أن الفرق بين المبدإ والمعاد هو أن الأرواح فى المبدإ مستورة بالأجساد . وأحكام الأجساد غالبة ، وأحوالها ظاهرة للحس ، والأجساد فى المعاد مغمورة بالأرواح . وأحكام النفوس غالبة ، وأحوالها ظاهرة للعقل . وإلا فلو كانت الأجساد تبطل رأساً وتضمحل أصلا ،

وتعود الأرواح إلى مبدئها الأول ، ما كان للاتصال بالأبدان ، والعمل بالمشاركة فائدة . ولبطل تقدير الثواب والعقاب على فعل العباد . ومن الدليل القاطع على ذلك أن النفوس الإنسانية فى حال اتصالها بالبدن اكتسبت أخلاقاً نفسانية صارت هيئات متمكنة فيها تمكن الملكات ، حتى قيل إنها نزلت منزلة الفصول اللازمة التى تميزها عن غيرها ، ولولاها لبطل التمييز . وتلك الهيئات إنما حصلت بمشاركات من القوى الجسمانية ، بحيث لن يتصور وجودها إلا مع تلك المشاركة ، وتلك القوى لن تتصور إلا فى أجسام مزاجية . فإذا كانت النفوس لن تتصور إلا معها وهى المعينة المخصصة ، وتلك لن تتصور إلا مع الأجسام ، فلا بد من حشر الأجسام ، والمعاد بالأجسام .

قالت الصابئة :

طريقنا فى التوسل إلى حضرة القدس ظاهر ، وشرعنا معقول . فإن قدماءنا من الزمان الأول لما أرادوا الوسيلة عملوا أشخاصاً فى مقابلة الهياكل العلوية على نسب وإضافات راعوا فيها جوهراً وصورة . وعلى أوقات وأحوال وهيئات أوجبوا على من يتقرب بها إلى ما يقابلها من العلويات : تختما ولباساً ، وتبخراً ودعاء وتعزيما فتقربوا إلى الروحانيات ، فتقربوا إلى رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . وهو طريق متبع ، وشرع ممهد ، لا يختلف بالأمصار والمدن ، ولا ينتسخ بالأدوار والأكوار [١] . ونحن تلقينا مبدأه من عاذيمون وهرمس [٢] العظيمين ، فعكفنا على ذلك دائمين .

وأنتم معاشر الحنفاء تعصبتم للرجال ، وقلتم بأن الوحى والرسالة ينزل عليهم من عند الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة ، فما الوحى أولا ؟ وهل يجوز أن يكلم الله بشرا ؟ وهل يكون كلامه من جنس كلامنا ؟ وكيف ينزل ملك من السماء وهو ليس بجسمانى ؟ أبصورته ؟ أم بصورة البشر ؟ وما معنى تصوره بصورة الغير ؟ أفيخلع صورته ويلبس لباساً آخر ؟ أم يتبدل وضعه وحيقته ؟ ثم ما البرهان أولا على جواز انبعاث الرسل فى صورة البشر ؟

---

(١) الأكوار : جمع كور ؛ بمعنى دور .

(٢) سيأتى الكلام عنهما وتعريفهما بصحيفة ١٠٣ .

وما دليل كل مدع منهم ؟ أفنأخذ بمجرد دعواه ؟ أم لابد من دليل خارق للعادة ؟ وإنْ أظهر ذلك ، أفهو من خواص النفوس ؟ أو من خواص الأجسام ؟ أم من فعل البارى تعالى ؟ ثم ما الكتاب الذى جاء به ؟ أفهو كلام البارى تعالى ؟ وكيف يتصور فى حقه كلام ؟ أم هو كلام الروحانى ؟ ثم هذه الحدود والأحكام أكثرها غير معقولة ، فكيف يسمح عقل الإنسان بقبول أمر لا يعقله ؟ وكيف تطاوعه نفسه بتقليد شخص هو مثله ؟ أبأنْ يريد أن يتفضل عليه ؟ (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [١]) .

أجابت الحنفاء :

بأن المتكلمين منا يكفوننا جواب هذا الفصل بطريقين . أحدهما : الإلزام ، تعرضا لإبطال مذهبكم . والثانى : الحجة ، تعرضاً لإثبات مذهبنا .

أما الإلزام فقالوا : إنكم ناقضتم مذهبكم حيث قلتم بتوسط عاذيمون وهرمس ، وأخذتم طريقتكم منهما . ومن أثبت المتوسط فى إنكار المتوسط فقد ناقض كلامه وتخلف مرامه .

وزادوا هذا تقريراً بأنكم معاشر الصابئة أيضاً متوسطون ، يحتاج إليكم فى التزام مذهبكم ، إذ من المعلوم أن كل من دب ودرج منكم ليس يعرف طريقتكم ، ولا يقف على صنعتكم من علم وعمل . أما العلم فالإحاطة بحركات الكواكب والأفلاك ، وكيفية تصرف الروحانيات فيها . وأما العمل فصنعة الأشخاص فى مقابلة الهيا كل على النسب ، بل قوم مخصوصون أو واحد فى كل زمان يحيط بذلك علما ، ويتيسر له عملا . فقد أثبتم متوسطا عالماً من جنس البشر ، وقد ناقض آخر كلامكم أوله .

---

(١) المؤمنون آية ٢٤ .

وزادوا هذا تقريراً آخر بإلزام الشرك عليهم . إما الشرك فى أفعال البارى تعالى ، وإما الشرك فى أوامره .

أما الشرك فى الأفعال فهو إثبات تأثيرات الهياكل والأفلاك . فإن عندهم الإبداع الخاص بالرب تعالى هو اختراع الروحانيات ، ثم تفويض أمور العالم العلوى إليها . والفعل الخاص بالروحانيات هو تحريك الهياكل ، ثم تفويض أمور العالم السفلى إليها ؛ كمن يبنى معملة ، وينصب أركانا للعمل من : الفاعل ، والمادة ، والآلة ، والصورة . ويفوض العمل إلى التلامذة . فهؤلاء اعتقدوا أن الروحانيات آلهة ، والهياكل أرباب ، والأصنام فى مقابلة الهياكل باتخاذ وتصنع من كسبهم وفعلهم . فألزم أصحاب الأصنام : أنكم تكلفتم كل التكلف حتى توقعوا حجراً جماداً فى مقابلة هيكل . وما بلغت صنعتكم إلى إحداث : حياة فيه ، وسمع ، وبصر ، ونطق ، وكلام (أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ[1]) . أو ليست أوضاعكم الفطرية ، وأشخاصكم الخلقية أفضل منها وأشرف ؟ أو ليست النسب والإضافات النجومية المرعية فى خلقتكم أشرف وأكمل مما راعيتموها فى صنعتكم ؟ (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[2]) أو لستم تحتاجون إلى التوسط المعمول لقضاء حاجة ؟ إما جلب نفع ، أو دفع ضر ؟ فهذا العامل الصانع أقدر ، إذ فيه من القوة العلمية والعملية ما يستعمل به الهياكل العلوية ، ويستخدم الأشخاص الروحانية ، فهلا ادعى لنفسه ما يثبت بفعله فى جماد ؟؟

ولهذا الإلزام تفطن اللعين فرعون حيث ادعى الإلهية والربوبية لنفسه ، وكان فى الأصل على مذهب الصابئة فصبا عن ذلك ودعا إلى نفسه فقال (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى[3]) (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي[4]) إذ رأى فى نفسه قوة الاستعمال والاستخدام ،

---

(١) الأنبياء آية ٦٥ ، ٦٦ . (٢) الصافات آية ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) النازعات آية ٢٤ . (٤) القصص آية ٣٨ .

واستظهر بوزيره « هامان » وكان صاحب الصنعة . فقال : (يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ ؛ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى[1]) وكان يريد أن يبنى صرحاً مثل الرصد فيبلغ به إلى حركات الأفلاك والكواكب ، وكيفية تركيبها ، وهيئاتها ، وكمية أدوارها وأكوارها . فلربما يطلع على سر التقدير فى الصنعة ، ومآل الأمر فى الخلقة والفطرة ، ومن أين له هذه القوة والبصيرة ؟ ولكن اعتزاز بنوع فطنة وكياسة فى جبلته ، واغترار بضرب إمهال فى مهلته . فما تمت لهم الصنعة حتى (أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا[2]) .

* * *

فحدث بعده السامرى وقد نسج على منواله فى الصنعة حتى أخذ قبضة من أثر الروحانى وأراد أن يرقى الشخص الجمادى عن درجته إلى درجة الحيوانى (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ[3]) وما أمكنه أن يحدث فيه ما هو أخص أوصاف المتوسط من الكلام والهداية : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً[4]) فانحسر فى الطريق حتى كان من الأمر ما كان ، وقيل : (لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا[5]) .

ويا عجبا من هذا السر !

حيث أغرق فرعون فأدخل النار مكافأة على دعوى الإلهية لنفسه ، وأحرق العجل ، ثم نسف فى اليم مكافأة على إثبات الإلهية له ، وما كان للنار والماء على الحنفاء يد الاستيلاء (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ[6]) . (فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِى وَلاَ تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ[7]) .

هذه مراتب الشرك فى الفعل والخلق .

---

(١) غافر آية ٣٦ ، ٣٧ — (٢) نوح آية ٢٥ — (٣) طه آية ٨٨

(٤) الأعراف آيه ١٤٨ — (٥) طه آيه ٩٧ .

(٦) الأنبياء آيه ٦٩ — (٧) القصص آيه ٧ .

ويشبه أن يكون دعوى اللعينين : نمرود ، وفرعون أنهما إلهان أرضيان كالآلهة السماوية الروحانية : دعوى الإلهية من حيث الأمر ، لا من حيث الفعل والخلق ، وإلا ففي زمان كل واحد منهما من هو أكبر منه سناً ، وأقدم فى الوجود عليه ، فلما ظهر من دعواهما أن الأمر كله لهما ، فقد ادعيا الإلهية لنفسهما .

وهذا هو الشرك الذى ألزمه المتكلم على الصابئ . فإنه لما ادعى أنه أثبت فى الأشخاص ما يقضى به حاجة الخلق ، فقد عاد بالتقدير إلى صنعته ، ووقف بالتدبير إلى معاملته . فكان الأمر بأن هذا الفعل واجب الإقدام عليه . وهذا واجب الإحجام عنه ، أمراً فى مقابلة أمر البارى تعالى . والمتوسط فيه متوسط الأمر ، وكان شركا إذا لم ينزل الله به سلطانا ، ولا أقام عليه حجة وبرهانا .

كيف ومايتمسك به من الأحكام مرتبة على هيئات فلكية لم تبلغ قوة البشر قط إلى مراعاتها ، ولا يشك أن الفلك كله يتغير لحظة فلحظة يتغير جزء من أجزائه تغير الوضع والهيئة ، بحيث لم يكن على تلك الهيئة فيما سبق ، ولا يرجع إلى تلك الحالة فيما يستقبل . ومتى يقف الحاكم على تغيرات الأوضاع حتى تكون صنعته فى الأشخاص والأصنام مستقيمة ؟ وإذا لم تستقم الصنعة فكيف تكون الحاجة مقضية ؟ ومن رفع الحاجة إلى من لا ترفع الحوائج إليه فقد أشرك كل الشرك .

* * *

وأما الطريق الثانى : فإقامة الحجة على إثبات المذهب . ولمتكلمى الحنفاء فيه مسلكان : أحدهما : أن يسلك الطريق نزولا من أمر البارى تعالى إلى سد حاجات الخلق . والثانى : أن يسلك الطريق صعوداً من حاجات الخلق إلى إثبات أمر البارى تعالى ، ثم تخرج الإشكالات عليهما .

أما الأول فقال المتكلم الحنيف : قد قامت الحجة على أن البارى تعالى خالق الخلائق ورازق العباد ، وأنه المالك الذى له الملكُ والملِك . والمالك هو أن يكون له على عباده أمر

وتصريف ، وذلك أن حركات العبادات قد انقسمت إلى اختيارية ، وغير اختيارية . فما كان منها باختيار من جهتهم فيجب أن يكون للمالك فيها حكم وأمر . وما كان منها بلا اختيار فيجب أن يكون فيها تصريف وتقدير . ومن المعلوم أن ليس كل أحد يعرف حكم البارى تعالى وأمره . فلا بد إذن من واحد يستأثره بتعريف حكمه وأمره فى عباده ، وذلك الواحد يجب أن يكون من جنس البشر حتى يعرفهم أحكامه وأوامره . ويجب أن يكون مخصوصاً من عند الله عز وجل بآيات خلقية هى حركات تصريفية وتقديرية ، يجريها الله على يده عند التحدى بما يدعيه ، تدل تلك الآيات على صدقه ، نازلة منزلة التصديق بالقول . ثم إذا ثبت صدقه وجب اتباعه فى جميع ما يقول ويفعل . وليس يجب الوقوف على كل ما يأمر به وينهى عنه ، إذ ليس كل علم تبلغ إليه قوة البشر .

ثم الوحى من عند الله العزيز، يمد حركاته الفكرية والقولية والعملية بالحق فى الأفكار والصدق فى الأقوال والخير فى الأفعال . فبطرف يماثل البشر ، وهو طرف الصورة ، وبطرف يوحى إليه ؛ وهو طرف المعنى والحقيقة (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً [١]) فبطرف يشابه نوع الإنسان ، وبطرف يماثل نوع الملائكة ، وبمجموعهما يفضل النوعين حتى تكون بشريته فوق بشرية النوع مزاجاً واستعدادا . وملكيته فوق ملكية النوع الآخر قبولا وأداء . فلا يضل ولا يغوى بطرف البشرية ، ولا يزيغ ولا يطغى بطرف الروحانية . فيقرر أن أمر البارى تعالى واحد لا كثرة فيه ، ولا انقسام له (وَمَا أَمْرُنَا إلاّ وَاحِدَةٌ [٢]) غير أنه يلبس تارة عبارة العربية ، وتارة عبارة العبرية . والمصدر يكون واحداً ، والمظهر متعددا .

* * *

والوحى إلقاء الشىء إلى الشىء بسرعة . فيلقى الروح الأمر إليه دفعة واحدة بلا زمان (كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ [٣]) فيتصور فى نفسه الصافية صورة الملقى ، كما يتمثل فى المرآة المجلوة

---

(١) الإسراء آية ٩٣ .   (٢ ، ٣) القمر آية ٥٠ .

صورة المقابل فيعبر عنه إما بعبارة قد اقترنت بنفس التصور ، وذلك هو (آيَاتُ الـكِتَابِ[١]) أو بعبارة نفسه وذلك هو أخبار النبوة ، وهذا كله بطرفه الروحانى .

وقد يتمثل الملك الروحانى له بمثال صورة البشر تمثل المعنى الواحد بالعبارات المختلفة ، أو تمثل الصورة الواحدة فى المرايا المتعددة ، أو الظلال المتكاثرة للشخص الواحد . فيكالمه مكالمة حسية ، ويشاهد مشاهدة عينية ؛ ويكون ذلك بطرفه الجسمانى . وإن انقطع الوحى عنه لم ينقطع عنه التأييد والعصمة حتى يقومه فى أفـكاره ، ويسدده فى أقواله ، ويوفقه فى أفعاله .

ولا تستبعدوا معاشر الصابئة تلقى الوحى على الوجه المذكور ، ونزول الملك على النسق المعقود . وعندكم أن هرمس العظيم صعد إلى العالم الروحانى فانخرط فى سلـكهم . فإذا تصور صعود البشر ، فلم لا يتصور نزول الملك ؟ وإذا تحقق أنه خلع لباس البشرية ، فلم لا يجوز أن يلبس الملك لباس البشرية ؟ فالحنيفية إثبات الـكمال فى هذا اللباس ؛ أعنى لباس الناس . والصبوة إثبات الـكمال فى خلع كل لباس . ثم لا يتطرق ذلك لهم حتى يثبتوا لباس الهيا كل أولا ، ثم لباس الأشخاص والأوثان ثانيا . ولقد قال لهم رأس الحنفاء متبرئا عن الهيا كل والأشخاص (إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنا مِنَ المُشْرِكِينَ[٢]) .

* * *

وأما الثانى : فهو الصعود من حاجة الناس إلى إثبات أمر البارى تعالى . قال المتكلم الحنيف : لما كان نوع الإنسان محتاجاً إلى اجتماع على نظام ، وذلك الاجتماع لن يتحقق إلا بحدود وأحكام فى حركاته ومعاملاته ، يقف كل منهم عند حده المقدر له لا يتعداه ، وجب أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يبين فيه أحكام الله تعالى فى الحركات وحدوده فى المعاملات . فيرتفع به الاختلاف والفرقة ، ويحصل به الاجتماع والألفة . وهذا

---

(١) يونس آية ١ . وجاءت فى غير سورة مثل : يوسف ، والرعد ، والحجر .

(٢) الأنعام آية ٧٨ ، ٧٩ .

الاحتياج لما كان لازماً لنوع الإنسان ضرورة ؛ يجب أن يكون المحتاج إليه قائماً ضرورة ، بحيث تكون نسبته إليه نسبة الغنى والفقير ، والمعطى والسائل ، والملك والرعية . فإن الناس لو كانوا كلهم ملوكا لم يكن ملك أصلا ؛ كما لو كانوا كلهم رعايا لم تكن رعية أصلا . ثم لا يبقى ذلك الشخص ببقاء الزمان ، وعمره لا يساوى عمر العالم ، فينوب منابه علماء أمته ، ويرث علمه أمناء شريعته ، فتبقى سنته ومنهاجه ، ويضىء على البرية مدى الدهر سراجه . والعلم بالتوارث ، وليست النبوة بالتوارث ، والشريعة تركة الأنبياء ، والعلماء ورثة الأنبياء .

قالت الصابئة :

الناس متماثلة فى حقيقة الإنسانية والبشرية ، ويشملهم حد واحد ، وهو الحيوان الناطق المائت . والنفوس والعقول متساوية فى الجوهرية ، فحد النفس بالمعنى الذى يشترك فيه الإنسان والحيوان والنبات أنه كمال جسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة . وبالمعنى الذى يشترك فيه الإنسان والملك ، أنه جوهر غير جسم ، هو كمال الجسم ، محرك له بالاختيار عن مبدأ نطقى ، أى عقلى ، بالفعل أو بالقوة . فالذى بالفعل هو خاصة النفس الملكية . والذى بالقوة هو فصل النفس الإنسانية .

وأما العقل فقوة أو هيئة لهذه النفس ، مستعدة لقبول ماهيات الأشياء مجردة عن المواد ، والناس فى ذلك على استواء من القدم . وإنما الاختلاف يرجع إلى أحد أمرين ، أحدهما : اضطرارى ، وذلك من حيث المزاج المستعد لقبول النفس . والثانى : اختيارى وذلك من حيث الاجتهاد المؤثر فى رفع الحجب المادية . وتصقيل النفس عن الصدأ المانعة لارتسام الصور المعقولة ، حتى لو بلغ الاجتهاد إلى غاية الكمال : تساوت الأقدام ، وتشابهت الأحكام . فلا يتفضل بشر على بشر بالنبوة ، ولا يتحكم أحد على أحد بالاستتباع .

أجابت الحنفاء :

بأن التماثل والتشابه فى الصور البشرية والإنسانية مسلم لا مرية فيه ، وإنما التنازع بيننا فى النفس ، والعقل قائم ، فإن عندنا النفوس والعقول على التضاد والترتب ، وعلينا بيان ذلك على مساق حدودكم ، ومذاق أصولنا .

فقولكم إن النفس جوهر غير جسم هو كمال الجسم ، محرك له بالاختيار ، وذلك إذا أطلق النفس على الإنسان والملك ، وهو كمال جسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة ، وإذا أطلق على الإنسان والحيوان ، فقد جعلتم لفظ النفس من الأسماء المشتركة ، وميزتم بين النفس الحيوانى ، والنفس الإنسانى ، والنفس الملكى ، فهلا زدتم فيه قسما ثالثا وهو النفس النبوى حتى يتميز عن الملكى ، تميز الملكى عن الإنسانى ؟ فإن عندكم المبدأ النطقى للإنسان بالقوة ، والمبدأ العقلى للملك بالفعل ، فقد تغايرا من هذا الوجه ، ومن حيث إن الموت الطبيعى يطرأ على الإنسان ولا يطرأ على الملك ، وذلك تمييز آخر ، فليكن فى النفس النبوى مثل هذا الترتيب .

وأما الكمال الذى تعرضتم له فإنما يكون كمالا للجسم إذا كان اختيار المحرك محموداً ، فأما إذا كان اختياره مذموما من كل وجه صار الكمال نقصانا ، وحينئذ يقع التضاد بين النفس الخيرة والنفس الشريرة ، حتى تكون إحداها فى جانب الملكية ، والثانية فى جانب الشيطانية ، فيحصل التضاد المذكور ، كما حصل الترتب المذكور ، فإن الاختلاف بالقوة والفعل اختلاف بالترتب ، والاختلاف بالكمال والنقص والخير والشر اختلاف بالتضاد ، فبطل التماثل .

ولا تظنن أن الاختلاف بين النفسين الخيرة والشريرة اختلاف بالعوارض ، فإن الاختلاف بين النفس الملكية والشيطانية بالنوع ، كما أن الاختلاف بين النفس الإنسانية والملكية بالنوع ، وكيف لا يكون كذلك ؟ والاختلاف ههنا بالقوة والفعل ،

والاختلاف ثم بالخير والشر ؟ وهذا لسر ، وهو أن الخير غريزة هى هيئة متمكنة فى النفس بأصل الفطرة ، وكذلك الشر طبيعة غريزية . لست أقول فعل الخير ، وفعل الشر ، فإن الغريزة غير الفعل المترتب عليها . فتحقق أن ههنا نفساً محركة للبدن اختياراً نحو الخير عن مبدإ عقلى ؛ إما بالقوة أو بالفعل . وهو كمال للجسم وليس بجسم ، وأن ههنا نفساً محركة للبدن اختياراً نحو الشر عن مبدإ نطق ، إما بالقوة ، أو بالفعل ، وهو نقص للجسم وليس بجسم .

ولا ينبون طبعك عن أمثال ما يورد عليك المتكلم الحنيف ، فإنما يغترفه من بحر ، وليس ينحته من صخر . فلربما لايساعدك على أن الإنسان نوع الأنواع . وأن الاختلاف فيه يقع فى العوارض واللوازم . بل يثبت فى النفوس الإنسانية اختلافاً جوهرياً ، فيفصل بعضها على بعض بالفصول الذاتية ، لا باللوازم العرضية . فكما أن الاختلاف بالقوة والفعل فى النفس الإنسانية والملكية اختلاف جوهرى أوجب اختلاف النوع والنوع ، وإن شملهما اسم النفس الناطقة . والفصل الذاتى هو القوة والفعل ؛ كذلك نقول فى نفس لها قوة علم خاص ، وقوة عمل خاص ، وقوة خير ، وقوة شر ، وكمال مطلق هو أصل الخير ، ونقص مطلق هو أصل الشر .

وأما ما ذكره المتكلم الصابى من حد العقل : أنه قوة أو هيئة للنفس مستعدة لقبول ماهيات الأشياء مجردة عن المواد ، فغير شامل لجميع العقول عنده ، ولا عند الحنيف ، بل هو تعرض للعقل الهيولانى فقط . فأين العقل النظرى ؟ وحَدُّه : أنه قوة للنفس تقبل ماهيات الأمور الكلية من جهة ما هى كلية . وأين العقل العملى ؟ وحَدُّه : أنه قوة للنفس هى مبدأ لتحريك القوة الشوقية إلى ما يختار من الجزئيات لأجل غاية مظنونة . وأين العقل بالملكة ؟ وهو استكمال القوة الهيولانية حتى تصير قريبة من الفعل . وأين العقل بالفعل ؟ وهو استكمال النفس بصورة ما أو صورة معقولة ، حتى متى ما شاء عقلها وأحضرها بالفعل . وأين العقل المستفاد ؟ وهو ماهية مجردة عن المادة؟ مرتسمة فى النفس على سبيل الحصول من خارج . وأين العقول المفارقة ؟ فإنها ماهيات

مجردة عن المادة . وأين العقل الفعال ؟ فإنه من جهة ماهو عقل ، فإنه جوهرى صورى، ذاته ماهية مجردة فى ذاتها ؛ لا بتجريدها غيرها ؛ عن المادة ، وعن علائق المادة ، وهى ماهية كل موجود ، ومن جهة ما هو فعال ، فإنه جوهر بالصفة المذكورة ، من شأنه أن يخرج العقل الهيولانى من القوة إلى الفعل بإشراقه عليه ؟ .

فقد تعرض لنوع واحد من العقول ، ولا خلاف أن هذه العقول قد اختلفت حدودها وتباينت فصولها كما سمعت .

فأخبرنى أيها المتكلم الحكيم ، من أى عقل تعد عقلك أولا ؟ وهل ترضى أن يقال لك : تساوت الأقدام فى العقول ؟ حتى يكون عقلك بالفعل والإفادة كعقل غيرك بالقوة والاستعداد ؟ بل واستعداد عقلك لقبول المعقولات كاستعداد عقل غبى غوى لا يرد عليه الفكر برادة ، ولا ينفك الخيال عن عقله ، كما لا ينفك الحس عن خياله ؟ وإذا كانت الأقدام متساوية فما هذا الترتب فى الأقسام ، وإذا أثبت ترتباً فى العقول ، فبالضرورة أن ترتقى فى الصعود إلى درجة الاستقلال والإفادة ، وتنزل فى الهبوط إلى درجة الاستعداد والاستفادة . ثم هل فى نوعه ما هو عديم الاستعداد أصلا حتى يشبه أن يكون عقلا ، وليس عقلا ؟ وما النوع الذى تثبته للشياطين ؟ أو هو من عداد ما ذكرنا ! أم خارج عن ذلك ؟ فإنك إذا ذكرت حد الملك ، وأنه جوهر بسيط ذو حياة ونطق عقلى ، غير مائت ؛ هو واسطة بين البارى تعالى والأجسام السماوية والأرضية ، وعددت أقسامه : أن منه ما هو عقلى ، ومنه ما هو نفسى ، ومنه ما هو حسى ، فيلزمك من حيث التضاد أن تذكر حد الشيطان على الضد مما ذكرته من حد الملك ، وتعد أقسامه وأنواعه أيضاً . ويلزمك من حيث الترتب أن تذكر حد الإنسان على الضد مما ذكرته من حد الملك ، وتعد أقسامه وأنواعه كذلك حتى يكون من الإنسان ما هو محسوس فقط ، ومنه ما هو — مع كونه محسوساً — روحانى نفسانى عقلى ، وذلك هو درجة النبوة . فمن عقل عمل من حس ، ومن حس عمل من عقل ، ومن نفس مزاجى ، ومن مزاجى نفسى ، ومن روح جسمانى ، ومن جسم روحانى . دع عنك كلام العامة ولا تظنن هذه الطامة .

قالت الصابئة :

لقد حصرتمونا بإبطال تساوى العقول والنفوس ، وإثبات الترتب والتضاد فيهما . ولاشك أن من سلم الترتب فقد لزمه الاتباع . فأخبرونا ما رتبة الأنبياء بالنسبة إلى نوع الإنسان ؟ وما رتبتهم بالإضافة إلى الملك والجن وسائر الموجودات ؟ ثم ما مرتبة النبى عند البارى تعالى ؟ فإن عندنا الروحانيات أعلى مرتبة من جميع الموجودات ، وهم المقربون فى الحضرة الإلهية ، والمكرمون لديه . ونراكم تارة تقولون : إن النبى يتعلم من الروحانى، ونراكم تارة تقولون : إن الروحانى يتعلم من النبى .

أجابت الحنفاء :

بأن الكلام فى المراتب صعب ، ومن لم يصل إلى رتبة من المراتب كيف يمكنه أن يستوفى بيانها ؟ .

لكنا نعرف أن رتبته بالنسبة إلينا : رتبتنا بالنسبة إلى من هو دوننا فى الجنس من الحيوان . فكما أنا نعرف أسامى الموجودات ولا يعرفها الحيوان ، كذلك هم يعرفون خواص الأشياء وحقائقها ، ومنافعها ومضارها ، ووجوه المصالح فى الحركات ، وحدودها وأقسامها ونحن لا نعرفها .

وكما أن نوع الإنسان ملك الحيوان بالتسخير ، فالأنبياء عليهم السلام ملوك الناس بالتدبير ، وكما أن حركات الناس معجزات الحيوان ، كذلك حركات الأنبياء معجزات الناس ؛ لأن الحيوانات لا يمكنها أن تبلغ إلى الحركات الفكرية حتى تميز الحق من الباطل ، ولا أن تبلغ إلى الحركات القولية حتى تميز الصدق من الكذب . ولا أن تبلغ إلى الحركات الفعلية حتى تميز الخير من الشر . فلا التمييز العقلى لها بالوجود ، ولا مثل هذه الحركات لها بالفعل . وكذلك حركات الأنبياء ، لأن منتهى فكرهم لا غاية له ؛ وحركات أفكارهم فى مجالى القدس مما تعجز عنها قوة البشر حتى يسلم لهم :

« لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل » . وكذلك حركاتهم القولية والفعلية لا تبلغ إلى غاية انتظامها وجريانها على سنن الفطرة حركة كل البشر . وهم فى الرتبة العليا ، والدرجة الأولى من درجات الموجودات كلها . فقد أحاطوا علماً بما أطلعهم الرب تعالى على ذلك دون غيرهم من الملائكة والروحانيين . فنى الأول تكون حاله حال التعلم : (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى[1]) . وفى الأخير حاله حال التعليم ، وذلك فى حق آدم عليه السلام : (أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ[2]) . حين كان الأمر على بدء الظهور والكشف . فانظر كيف يكون الحال فى نهاية الظهور .

وأما إضافتهم إلى جناب القدس فالعبودية الخاصة : (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ[3]) قولوا إنا عباد مربوبون ، وقولوا فى فضلنا ماشئتم : أحق الأسماء لهم وأخص الأحوال بهم : (عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) لا جرم كان أخص التعريفات لجلاله تعالى بأشخاصهم : إله إبراهيم : إله إسماعيل وإسحاق : إله موسى وهرون : إله عيسى : إله محمد ، عليهم السلام . فكما أن من العبودية ما هو عام الإضافة ، ومنها ما هو خاص الإضافة ، كذلك التعريف إلى الخلق بالإلهية والربوبية ، والتجلى للعباد بالخصوصية ، منه ماله عموم رب العالمين — ومنه ماله خصوص — رب موسى وهرون .

فهذه نهاية مذهبى الصابئة والحنفاء . وفى الفصول التى جرت بين الفريقين فوائد لا تحصى .

وكان فى الخاطر بعدُ زوايا نريد نمليها ، وفى القلم خفايا أكاد أخفيها ، فعدلت عنها إلى ذكر حكم هرمس العظيم ، لا على أنه من جملة فرق الصابئة ، حاشاه ، بل على أن حكمه مما تدل على تقرير مذهب الحنفاء فى إثبات الكمال فى الأشخاص البشرية ، وإيجاب القول باتباع النواميس الإلهية ، على خلاف مذاهب الصابئة .

---

(١) النجم آية ٥ . (٢) البقرة آية ٣٢ . (٣) الزخرف آية ٨١ .

حِكَمَ هرمس العظيم

المحمودة آثاره ، المرضية أقواله وأفعاله ، الذى يعد من الأنبياء الكبار ، ويقال هو إدريس النبى عليه السلام . وهو الذى وضع أسامى البروج والكواكب السيارة ، ورتبها فى بيوتها . وأثبت لها الشرف والوبال ، والأوج والحضيض ، والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع ، والمقابلة والمقارنة ، والرجعة والاستقامة . وبين تعديل الكواكب وتقويمها . وأما الأحكام المنسوبة إلى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع .

وللهند والعرب طريقة أخرى فى الأحكام أخذوها من خواص الكواكب ، لا من طبائعها . ورتبوها على الثوابت ، لا على السيارات .

ويقال إن عاذيمون وهرمس هما شيث ، وإدريس عليهما السلام . ونقلت الفلاسفة عن عاذيمون أنه قال : المبادئ الأول خمسة : البارى تعالى ، والعقل ، والنفس ، والمكان ، والخلاء ، وبعدها وجود المركبات . ولم ينقل هذا عن هرمس .

ومن حكم هرمس :

قوله : أول مايجب على المرء الفاضل بطباعه ، المحمود بسنخه[1] ، المرضى فى عادته ، المرجو فى عاقبته : تعظيم الله عز وجل ، وشكره على معرفته . وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة له ، والاعتراف بمنزلته . وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ، ولنفسه عليه حق الاجتهاد ، والدأب فى فتح باب السعادة . ولخلصائه عليه حق التحلى لهم بالود ، والتسارع إليهم بالبذل . فإذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه إلا كف الأذى عن العامة ، وحسن المعاشرة ، وسهولة الخلق .

انظروا معاشر الصابئة : كيف عظم أمر الرسالة حتى قرن طاعة الرسول الذى عبر بالناموس بمعرفة الله تعالى . ولم يذكر ههنا تعظيم الروحانيات ، ولا تعرض لها وإن كانت هى من الواجبات .

---

(١) السنخ : بكسر السين ، الأصل . وسنخ سنوخاً فى العلم ؛ رسخ .

وسئل : بماذا يحسن رأى الناس فى الإنسان ؟ قال : بأن يكون لقاؤه لهم لقاء جميلا ، ومعاملته إياهم معاملة حسنة .

وقال : مودة الإخوان أن تكون لرجاء منفعة ، أو لدفع مضرة ، ولكن لصلاح فيه ، وطباع له .

وقال : أفضل ما فى الإنسان من الخير العقل . وأجدر الأشياء ألا يندم عليه صاحبه العمل الصالح . وأفضل ما يحتاج إليه فى تدبير الأمور الاجتهاد ، وأظلم الظلمات الجهل . وأوثق الإسار الحرص .

وقال : من أفضل البر ثلاثة : الصدق فى الغضب ، والجود فى العسرة ، والعفو عند المقدرة .

وقال : من لم يعرف عيب نفسه ، فلا قدر لنفسه عنده .

وقال : الفصل بين العاقل والجاهل : أن العاقل منطقه له ، والجاهل منطقه عليه .

وقال : لا ينبغى للعاقل أن يستخف بثلاثة أقوام : السلطان ، والعلماء ، والإخوان . فإن من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه ، ومن استخف بالإخوان أفسد عليه مروءته .

وقال : الاستخفاف بالموت أحد فضائل النفس .

وقال : المرء حقيق له أن يطلب الحكمة ويثبتها فى نفسه أولا ، بألا يجزع من المصائب التى تعم الأخيار ، ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه من الشرف ، ولا يعير أحداً بما هو فيه ، ولا يغيره الغنى والسلطان . وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت ، وتكون سنته مالا عيب فيه ، ودينه مالا يختلف فيه ، وحجته مالا ينتقض .

وقال : أنفع الأمور للناس القناعة والرضى . وأضرها الشره والسخط . وإنما يكون كل السرور بالقناعة والرضى ، وكل الحزن بالشره والسخط .

ويحكى عنه فيما كتبه : أن أصل الضلال والهلكة ، لأهله ، أن يعد ما فى العالم من

الخير من عطية الله عز وجل ومواهبه . ولا يعد مافيه من الشر والفساد من عمل الشيطان ومكايد . ومن افترى على أخيه فرية لم يخلص من تبعتها حتى يجازى بها . فكيف يخلص من أعظم الفرية على الله عز وجل أن يجعله سبباً للشرور وهو معدن الخير ؟

وقال : الخير والشر واصلان إلى أهلهما لا محالة . فطوبى(١) لمن جرى وصول الخير إليه وعلى يديه . والويل لمن جرى وصول الشر إليه وعلى يديه .

وقال : الإخاء الدائم الذى لا يقطعه شىء اثنان ، أحدهما : محبة المرء نفسه فى أمر معاده ، وتهذيبه إياها فى العلم الصحيح والعمل الصالح . والآخر : مودته لأخيه فى دين الحق ، فإن ذلك مصاحب أخاه فى الدنيا بجسده ، وفى الآخرة بروحه .

وقال : الغضب سلطان الفظاظة ، والحرص سلطان الفاقة ، وهما منشآ كل سيئة ، ومفسدا كل جسد ، ومهلكا كل روح .

وقال : كل شىء يطاق تغييره إلا الطباع ، وكل شىء يقدر على إصلاحه غير الخلق السوء ، وكل شىء يستطاع دفعه إلا القضاء .

وقال : الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش للبدن ، لأن هذين خلاء النفس ، وهذين خلاء البدن .

وقال : أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض : لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق فى الجماعة .

وقال : أدحض الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض حجته .

وقال : من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى ، فدينه دين الله عزوجل ، وخصمه شاهد له بفلج(٢) حجته . ومن كان دينه الإهلاك والفظاظة والأذى ، فدينه دين الشيطان ، وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه .

---

(١) دعاء ، بمعنى : له الحظ والعيش الطيب . وأصل الطوبى : الغبطة والسعادة .

(٢) الفلج : الشق .

وقال : الملوك تحتمل الأشياء كلها إلا ثلاثة : قدح فى الملك ، وإفشاء للسر ، وتعرض للحرمة .

وقال : لا تكن أيها الإنسان كالصبى إذا جاع ضغا[1] ، ولا كالعبد إذا شبع طغى ولا كالجاهل إذا ملك بغى .

وقال : لا تشيرن على عدو ولا صديق إلا بالنصيحة . فأما الصديق فتقضى بذلك من واجبه حقه . وأما العدو فإنه إذا عرف نصيحتك إياه هابك وحسدك . وإن صح عقله استحى منك وراجعك .

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ، وعلى غريزة الورع الصدق عند الشره ، وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب .

وقال : من سره مودة الناس له ، ومعونتهم إياه ، وحسن القول منهم فيه حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم .

وقال : لا يستطيع أحد أن يحوز الخير والحكمة ، ولا أن يخلص نفسه من المعايب إلا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير ، وولى ، وصديق . فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله الصالح .

وقال : كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض ، فإنه إذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها . وإذا أضاعه أضاع الجميع ، وقدر ذلك نفسه .

وقال : لا يمدح بكمال العقل من لا تكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله .

وقال : من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء : أن يبدلوا العدو صديقاً ، والجاهل عالماً ، والفاجر براً .

وقال : الصالح مَنْ خيره خير لكل أحد ، ومَنْ يعد خير كل أحد لنفسه خيراً .

وقال : ليس بحكيم مالم يُعادِ الجهل . ولا بنور ما لم يمحق الظلمة . ولا بطيب ما لم يدفع النتن ، ولا بصدق ما لم يدحض الكذب ، ولا بصالح ما لم يخالف الطالح .

---

(١) ضغا : صاح .

الفصل الثالث

أصحاب الهياكل والأشخاص

وهؤلاء من فرق الصابئة . وقد أدركنا مقالتهم فى المناظرات جملة . ونذكرها ههنا تفصيلا .

١ — أصحاب الهياكل

اعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أن لابد للإنسان من متوسط ، ولابد للمتوسط من أن يرى فَيُتَوَجَّهُ إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه ؛ فزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات السبع ، فتعرفوا أولا : بيوتها ومنازلها . وثانياً : مطالعها ومغاربها . وثالثاً : اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها . ورابعاً : تقسيم الأيام والليالى والساعات عليها . وخامساً : تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها .

فعملوا الخواتيم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا ليوم زحل مثلا يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته وصنعته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وتبخروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة به ، وسألوا حاجتهم منه : الحاجة التى تستدعى من زحل ، من أفعاله وآثاره الخاصة به . فكان يقضى حاجتهم ويحصل فى الأكثر مرامهم ، وكذلك رفع الحاجة التى تختص بالمشترى فى يومه وساعته ، وجميع الإضافات التى ذكرنا إليه ، وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب ، وكانوا يسمونها أرباباً آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب ، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ، ورب الأرباب .

وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيات ، ويتقربون إلى الروحانيات تقرباً إلى البارى تعالى ، لاعتقادهم بأن الهياكل أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى

الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا . فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات . وهى تتصرف فى أبدانها تدبيراً ، وتصريفاً ، وتحريكاً كما نتصرف فى أبداننا . ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه .

ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضى منهم العجب . وهذه الطلسمات[1] المذكورة فى الكتب والسحر ، والكهانة ، والتنجيم ، والتعزيم ، والخواتيم ، والصور كلها من علومهم .

٢ — أصحاب الأشخاص

وأما أصحاب الأشخاص فقالوا : إذا كان لا بد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ؛ والروحانيات وإن كانت هى الوسائل ، لكنا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نخاطبها بالألسن ، لم يتحقق التقرب إليها إلا بهيا كلها . ولكن الهياكل قد ترى فى وقت ، ولا ترى فى وقت ، لأن لها طلوعاً وأفولا ، وظهوراً بالليل ، وخفاء بالنهار ، فلم يصف لنا التقرب بها والتوجه إليها . فلابد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ، نعكف عليها ، ونتوسل بها إلى الهياكل ، فنتقرب بها إلى الروحانيات ، ونتقرب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى ، فنعبدهم : (لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى[2]) .

فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص فى مقابلة هيكل . وراعوا فى ذلك جوهر الهيكل ، أعنى الجوهر الخاص به من الحديد وغيره . وصوّروه بصورته على الهيئة التى تصدر أفعاله عنه ، وراعوا فى ذلك الزمان والوقت والساعة والدرجة والدقيقة ، وجميع الإضافات النجومية من اتصال محمود يؤثر فى نجاح المطالب

---

(١) الطلسم : خطوط أو كتابة ، يستعملها الساحر ويزعم أنه يدفع بها كل مؤذ : وأصل الكلمة يونانية .

(٢) الزمر آية ٣ .

التى تستدعى منه . فتقربوا إليه فى يومه وساعته ، وتبخروا بالبخور الخاص به ، وتختموا بخاتمه ، ولبسوا لباسه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزموا بعزائمه ، وسألوا حاجتهم منه . فيقولون : إنه كان يقضى حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها . وذلك هو الذى أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الكواكب والأوثان .

فأصحاب الهياكل هم عبدة الكواكب ، إذ قالوا بإلهيتها كما شرحنا . وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان ، إذ سموها آلهة فى مقابلة الآلهة السماوية ، وقالوا : (هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ[1]) .

٣ — مناظرات إبراهيم الخليل لأصحاب الهياكل وأصحاب الأشخاص ، وكسره مذاهبهما

وقد ناظر الخليل عليه السلام هؤلاء الفريقين .

فابتدأ بكسر مذاهب أصحاب الأشخاص ، وذلك قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[2]) وتلك الحجة أن كسرهم قولا بقوله : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[3]) .

ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ، ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية ، ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام لا من غيره ، كان أكثر الحجج معه ، وأقوى الإلزامات عليه ؛ إذ قال عليه السلام لأبيه آزر : (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ[4]) . وقال : (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ

---

(١) يونس آية ١٨ .
(٢) الأنعام آية ٨٣ .
(٣) الصفات آية ٩٥ ، ٩٦ .
(٤) الأنعام آية ٧٤ .

وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً[١]) لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم حتى عملت أصناماً فى مقابلة الأجرام السماوية ، فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعاً وبصراً . وأن تغنى عنك ، وتضر وتنفع . وأنت بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ، لأنك خُلقت سميعاً بصيراً ، نافعاً ، ضاراً . والآثار السماوية فيك أظهر منها فى هذا المتخذ تكلفاً والمعمول تصنعاً . فيالها من حيرة ! إذ صار المصنوع بيديك معبوداً لك ، والصانع أشرف من المصنوع ! (يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ[٢]).

ثم دعاه إلى الحنيفية الحقة . قال : (يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا[٣]) . (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ[٤] ؟) فلم تقبل حجته القولية . فعدل عليه السلام عن القول إلى الكسر للأصنام بالفعل (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ[٥]) فقالوا : (مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا[٦]) . (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ[٧] . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ[٨] . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ[٩]) فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم كما أفحمهم حيث أحال الفعل منهم . وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم ، وإلا فما كان الخليل كاذباً قط .

ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل ، وكما أراه الله تعالى الحجة على قومه قال (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ[١٠]) . فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين : تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها ، وترجيحا لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة ، وتقريراً أن الكمال فى الرجال . فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى[١١])

(١،٢) مريم آية ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ . (٣،٤) مريم آية ٤٣ ، ٤٦ .
(٥-٩) الأنبياء من آية ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ - ٦٥ . (١٠،١١) الأنعام آية ٧٥ ، ٧٦ .

على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذا[١]) وإلا فما كان الخليل عليه السلام كاذبا فى هذا القول ، ولا مشركا فى تلك الإشارة .

ثم استدل بالأفول ؛ الزوال ، والتغير والانتقال ؛ على أنه لا يصلح أن يكون ربًّا إلهًا . فإن الإله القديم لا يتغير ، وإذا تغير احتاج إلى مغير ، هذا لو اعتقدتموه ربا قديما ، وإلهًا أزليا . ولو اعتقدتموه واسطة ، وقبلة ، وشفيعا ، ووسيلة . فإن الأفول ، الزوال ، يخرجه أيضا عن حد الكمال . وعن هذا ما استدل عليهم بالطلوع ، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول . فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول . فأتاهم الخليل عليه السلام من حيث تحيرهم ، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته ، وذلك أبلغ فى الاحتجاج .

ثم لما (رَأَى القَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ[٢]) فياعجبا ممن لا يعرف ربا كيف يقول (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة . والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون فى مدارج البداية ؟ !

دع هذا كله خلف قاف[٣] ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف . فإن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج ، وعن هذا قال (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى ، هَذَا أَكْبَرُ[٤]) لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب ، الذى يقتبسون منه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار : (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[٥]) .

قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذاهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هى الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها ، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها ،

---

(١) الأنبياء آية ٦٣ . (٢) الأنعام آية ٧٧ .

(٣) قاف : جبل لم يعرف موضعه ، وهذا مثل يضرب للشىء يراد إهماله .

(٤، ٥) الأنعام من آية ٧٨ـ٧٩ .

وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها . وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها . وأن الفاتحة والخاتمة ، والمبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها : (ذَٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ[١]) والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح ، والمسلك اللائح . قال تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[٢]) .

الفصل الرابع

الحَرْنانيَّة

وهم جماعة من الصابئة :

١ — مقالات الحَرْنانيّة

قالوا : إن الصانع المعبود واحد وكثير . أما واحد فى الذات ، والأول ، والأصل ، والأزل . وأما كثير فلأنه يتكثر بالأشخاص فى رأى العين ، وهى المدبرات السبعة والأشخاص الأرضية الخيرة ، العالمة ، الفاضلة . فإنه يظهر بها ، ويتشخص بأشخاصها . ولا تبطل وحدته فى ذاته .

وقالوا : هو أبدع الفلك وجميع ما فيه من الأجرام والكواكب ، وجعلها مدبرات هذا العالم ، وهم الآباء ، والعناصر أمهات ، والمركبات مواليد ، والآباء أحياء ناطقون ،

(١، ٢) الروم آية ٣٠ ـ ٣٢ .

يؤدون الآثار إلى العناصر . فتقبلها العناصر فى أرحامها ، فيحصل من ذلك المواليد . ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها دون كدرها . ويحصل له مزاج كامل الاستعداد ، فيتشخص الإله به فى العالم .

ثم إن طبيعة الكل تحدث فى كل إقليم من الأقاليم المسكونة على رأس كل ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة : زوجين من كل نوع من أجناس الحيوانات ذكراً وأنثى ؛ من الإنسان وغيره . فيبقى ذلك النوع تلك المدة . ثم إذا انقضى الدور بتمامه انقطعت الأنواع : نسلها وتوالدها . فيبتدئ دور آخر ، ويحدث قرن آخر من الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، وكذلك أبد الدهر . قالوا : وهذا هى القيامة الموعودة على لسان الأنبياء عليهم السلام ، وإلا فلا دار سوى هذه الدار : (وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ[1]) ولا يتصور إحياء الموتى وبعث من فى القبور : (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ[2]) .

وهم الذين أخبر التنزيل عنهم بهذه المقالة .

٢ — نشأة التناسخ والحلول منهم

وإنما نشأ أصل التناسخ والحلول من هؤلاء القوم .

فإن التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية له ، ويحدث فى كل دور مثل ما حدث فى الأول . والثواب والعقاب فى هذه الدار ؛ لا فى دار أخرى لا عمل فيها .

والأعمال التى نحن فيها إنما هى أجزية على أعمال سلفت منا فى الأدوار الماضية . فالراحة والسرور ، والفرح والدعة التى نجدها هى مرتبة على أعمال البر التى سلفت منا فى

(١) الجاثية آية ٢٤ . (٢) المؤمنون آية ٣٥ ، ٣٦ .

الأدوار الماضية . والغم والحزن ، والضنك والكلفة التى نجدها هى مرتبة على أعمال الفجور التى سبقت منا .

وكذا كان فى الأول ، وكذا يكون فى الآخر . والانصرام من كل وجه غير متصور من الحكيم .

وأما الحلول فهو التشخص الذى ذكرناه ، وربما يكون ذلك بحلول ذاته ، وربما يكون بحلول جزء من ذاته ؛ على قدر استعداد مزاج الشخص .

وربما قالوا إنما تشخص بالهياكل السماوية كلها ، وهو واحد ، وإنما يظهر فعله فى واحد واحد بقدر آثاره فيه ، وتشخصه به .

فكأن الهياكل السبعة أعضاؤها السبعة . وكأن أعضاءنا السبعة هياكله السبعة فيها يظهر فينطق بلساننا ، ويبصر بأعيننا ، ويسمع بآذاننا ، ويقبض ويبسط بأيدينا ، ويجىء ويذهب بأرجلنا ، ويفعل بجوارحنا .

٣ — مزاعم الحِرنَانِيَّة

وزعموا أن الله تعالى أجل من أن يخلق الشرور والقبائح والأقذار والخنافس والحيات والعقارب . بل هى كلها واقعة ضرورة عن اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة ، واجتماعات العناصر صفوة وكدورة . فما كان من سعد وخير وصفو ، فهو المقصود من الفطرة ، فينسب إلى البارى تعالى . وما كان من نحوسة ، وشر ، وكدر ، فهو الواقع ضرورة فلا ينسب إليه ، بل هى إما اتفاقيات وضروريات ، وإما مستندة إلى أصل الشرور والاتصال المذموم .

والحرنانية ينسبون مقالتهم إلى عاذيمون ، وهرمس ، وأعيانا ، وأواذى ؛ أربعة أنبياء .

ومنهم من ينتسب إلى سولون جد أفلاطون لأمه ، ويزعم أنه كان نبيا . وزعموا أن أواذى حرم عليهم البصل والـكراث والباقلا[١] .

* * *

والصابئون كلهم يصلون ثلاث صلوات ، ويغتسلون من الجنابة ، ومن مس الميت . وحرموا أكل الجزور ، والخنزير ، والـكلب . ومن الطير كل ماله مخلب ، والحمام .

ونهوا عن السكر فى الشراب ، وعن الاختتان ، وأمروا بالتزويج بولى وشهود ، ولا يجوزون الطلاق إلا بحكم حاكم ، ولا يجمعون بين امرأتين .

* * *

وأما الهياكل التى بناها الصابئة على أسماء الجواهر العقلية الروحانية وأشكال الـكواكب السماوية .

فمنها : هيكل العلة الأولى ، ودونها هيكل العقل ، وهيكل السياسة ، وهيكل الصورة ، وهيكل النفس ؛ مدورات الشكل .

وهيكل زحل مسدس ، وهيكل المشترى مثلث ، وهيكل المريخ مربع مستطيل ، وهيكل الشمس مربع ، وهيكل الزهرة مثلث فى جوف مربع ، وهيكل عطارد مثلث فى جوفه مربع مستطيل ، وهيكل القمر مثمن .

---

(١) البقلاء : الفول .

الباب الثانى

الفلاسفة

الفلسفة باليونانية : محبة الحكمة ، والفيلسوف هو : فيلا و سوفا ، وفيلا هو المحب وسوفا : الحكمة ؛ أى هو محب الحكمة .

والحكمة قولية وفعلية .

أما الحكمة القولية ، وهى العقلية أيضا ؛ فهى كل ما يعقله العاقل بالحد ، ومايجرى مجراه مثل الرسم ، والبرهان وما يجرى مجراه مثل الاستقراء ، فيعبر عنه بهما .

وأما الحكمة الفعلية فكل ما يفعله الحكيم لغاية كمالية .

فالأول الأزلى لما كان هو الغاية والكمال ؛ فلا يفعل فعلا لغاية دون ذاته ، وإلا فيكون الغاية والكمال هو الحامل ، والأول محمول ، وذلك محال .

فالحكمة فى فعله وقعت تبعا لكمال ذاته ، وذلك هو الكمال المطلق فى الحكمة . وفى فعل غيره من المتوسطات وقعت مقصوداً للكمال المطلوب ، وكذلك فى أفعالنا .

ثم إن الفلاسفة اختلفوا فى الحكمة القولية العقلية اختلافا لا يحصى كثرة ، والمتأخرون منهم خالفوا الأوائل فى أكثر المسائل ، وكانت مسائل الأولين محصورة فى الطبيعيات ، والإلهيات . وذلك هو الكلام فى البارى تعالى والعالم . ثم زادوا فيها الرياضيات .

وقالوا : العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : علم ماهية ، وعلم كيف ، وعلم كم . فالعلم الذى يطلب فيه ماهيات الأشياء هو العلم الإلهى . والعلم الذى يطلب فيه كيفيات الأشياء هو العلم الطبيعى ، والعلم الذى يطلب فيه كميات الأشياء هو العلم الرياضى ، سواء كانت

الكميات مجردة عن المادة ، أوكانت مخالطة بعد . فأحدث بعدهم أرسطوطاليس الحكيم علم المنطق ، وسماه تعليمات ، وإنما هو جرده من كلام القدماء . وإلا فلم تخل الحكمة عن قوانين المنطق قط . وربما عدها آلة العلوم ، لا من جملة العلوم ، فقال :

الموضوع فى العلم الإلهى : هو الوجود المطلق . ومسائله : البحث عن أحوال الوجود من حيث هو وجود .

والموضوع فى العلم الطبيعى : هو الجسم . ومسائله : البحث عن أحوال الجسم من حيث هو جسم .

والموضوع فى العلم الرياضى ، هو الأبعاد والمقادير . وبالجملة : الكمية من حيث إنها مجردة عن المادة . ومسائله : البحث عن أحوال الكمية من حيث هى كمية .

والموضوع فى العلم المنطقى : هو المعانى التى فى ذهن الإنسان من حيث يتأدى بها إلى غيرها من العلوم . ومسائله : البحث عن أحوال تلك المعانى من حيث هى كذلك .

قالت الفلاسفة : ولما كانت السعادة هى المطلوبة لذاتها ، وإنما يكدح الإنسان لنيلها والوصول إليها ، وهى لا تنال إلا بالحكمة . فالحكمة تطلب إما ليعمل بها . وإما لتعلم فقط . فانقسمت الحكمة إلى قسمين : عملى ، وعلمى .

ثم منهم من قدم العملى على العلمى . ومنهم من أخر كما سيأتى . فالقسم العملى هو عمل الخير ، والقسم العلمى هو علم الحق . قالوا : وهذان القسمان مما يوصل إليه بالعقل الكامل ، والرأى الراجح ؛ غير أن الاستعانة فى القسم العملى منه بغيره أكثر . والأنبياء عليهم السلام أيدوا بأمداد روحانية تقريراً للقسم العملى ، ولطرف ما من القسم العلمى . والحكماء تعرضوا لأمداد عقلية تقريراً للقسم العلمى ، ولطرف ما من القسم العملى . فغاية الحكيم هو أن يتجلى لعقله كل الكون ويتشبه بالإله الحق تعالى وتقدس بغاية الإمكان ، وغاية النبى أن يتجلى له نظام الكون ، فيقدر على ذلك مصالح العامة حتى يبقى نظام العالم وتنتظم مصالح العباد ؛ وذلك لا يتأتى إلا بترغيب وترهيب ، وتشكيل وتخييل .

فكل ما ورد به أصحاب الشرائع والملل مقدر على ما ذكرناه عند الفلاسفة إلا من أخذ علمه من مشكاة النبوة ؛ فإنه ربما بلغ إلى حد التمظيم لهم ، وحسن الاعتقاد فى كمال درجتهم .

* * *

فمن الفلاسفة :

حكماء الهند من البراهمة لا يقولون بالنبوات أصلا .

ومنهم : حكماء العرب وهم شرذمة قليلون ، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر ، وربما قالوا بالنبوات .

ومنهم : حكماء الروم ، وهم منقسمون إلى القدماء الذين هم أساطين الحكمة ، وإلى المتأخرين وهم المشاءون ، وأصحاب الرواق ، وأصحاب أرسطوطاليس . وإلى فلاسفة الإسلام الذين هم حكماء العجم ، وإلا فلم ينقل عن العجم قبل الإسلام مقالة فى الفلسفة ، إذ حكمهم كلها كانت متلقاة من النبوات ، إما من الملة القديمة ، وإما من سائر الملل .

غير أن الصابئة كانوا يخلطون الحكمة بالصبوة .

* * *

فنحن نذكر مذاهب الحكماء القدماء من الروم ، واليونانيين على الترتيب الذى نقل فى كتبهم ، ونعقب ذلك بذكر سائر الحكماء إن شاء الله تعالى .

فإن الأصل فى الفلسفة والمبدأ فى الحكمة للروم ، وغيرُهم كالعيال لهم .

الفصل الأول
الحكماء السبعة

الذين هم أساطين الحكمة من الملطية ، وساميا ، وأثينة ، وهى بلادهم .

وأما أسماؤهم فهى : تاليس الملطى ، وأنكساغورس ، وأنكسيمانس ، وأنبادقليس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون .

وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلوطرخيس ، وبقراط ، وديمقريطيس ، والشعراء ، والنساك .

وإنما يدور كلامهم فى الفلسفة على ذكر وحدانية البارى تعالى ، وإحاطته علماً بالكائنات ، كيف هى ؟ وفى الإبداع ، وتكوين العالم . وأن المبادئ الأُول : ماهى ؟ وكم هى ؟ وأن المعاد : ما هو ؟ ومتى هو ؟ وربما تكلموا فى البارى تعالى بنوع حركة وسكون .

وقد أغفل المتأخرون من فلاسفة الإسلام ذكرهم ، وذكر مقالاتهم رأساً ، إلا نكتة شاذة نادرة ، ربما اعترت على أبصارهم وأفكارهم ، أشاروا إليها تزييفاً .

ونحن تتبعناها وتعقبناها نقداً ، وألقينا زمام الاختيار إليك فى المطالعة والمناظرة بين كلام الأوائل والأواخر .

١ — رأى تاليس

وهو أول من تفلسف[١] فى ملطية . قال : إن للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة هويته ، وإنما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذى لا يعرف اسمه فضلا عن هويته ، إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء . فلسنا ندرك له اسماً من نحو ذاته ، بل من نحو ذاتنا .

---

(١) ٦٢٤ ق . م — ٥٥٠ ق . م تقريباً .

ثم قال : إن القول الذى لامرد له هو أن المبدع كان ولا شىء مبدع . فأبدع الذى أبدع ولا صورة له عنده فى الذات ، لأن قبل الإبداع إنما هو فقط ، وإذا كان هو فقط فليس يقال حينئذ جهة ، وجهة حتى يكون هو وصورة ، أو حيث وحيث حتى يكون هو ، وذو صورة ، والوحدة الخالصة تنافى هذين الوجهين .

والإبداع هو تأييس[1] ماليس بأيس ، وإذا كان هو مؤيس الأيسيات ، والتأييس لامن شىء متقادم ؛ فمؤيس الأشياء لايحتاج إلى أن يكون عنده صورة الأيس بالأيسية ، وإلا فقد لزمه إن كانت الصورة عنده ، أن يكون منفرداً عن الصورة التى عنده ، فيكون هو وصورة ، وقد بينا أنه قبل الإبداع إنما هو فقط .

وأيضاً : فلو كانت الصورة عنده : أكانت مطابقة للموجود الخارج ؟ أم غير مطابقة ؟ فإن كانت مطابقة فلتتعدد الصور بعدد الموجودات ، ولتكن كلياتها مطابقة للكليات ، وجزئياتها مطابقة للجزئيات ، ولتتغير بتغيرها كما تكثرت بتكثرها ، وكل ذلك محال ، لأنه ينافى الوحدة الخالصة ، وإن لم تطابق الموجود الخارج فليست إذن صورة عنه ، بل إنما هى شىء آخر .

قال : لكنه أبدع العنصر الذى فيه صور الموجودات والمعلومات كلها . فانبعث من كل صورة موجود فى العالم على المثال الذى فى العنصر الأول . فمحل الصور ومنبع الموجودات كلها هو ذات العنصر .

وما من موجود فى العالم العقلى والعالم الحسى إلا وفى ذات العنصر صورة له ، ومثال عنه .

قال : ومن كمال ذات الأول الحق أنه أبدع مثل هذا العنصر ، فما يتصوره العامة فى ذاته تعالى أن فيها الصور ، يعنى صور المعلومات ، فهو فى مبدعه ، ويتعالى الأول الحق بوحدانيته وهويته عن أن يوصف بما يوصف به مبدعه . ومن العجب أنه نقل عنه أن

---

(١) أصل التأييس : الاستقلال والتأثير فى الشىء .

المبدع الأول هو المـاء . قال[١] : المـاء قابل لـكل صورة ، ومنه أبدع الجواهر كلها من السماء والأرض ، وما بينهما . وهو علة كل مبدع ، وعلة كل مركب من العنصر الجسمانى . فذكر أن من جمود المـاء تـكونت الأرض ، ومن انحلاله تـكون الهواء ، ومن صفوة الهواء تـكونت النار ، ومن الدخان والأبخرة تـكونت السماء . ومن الاشتعال الحاصل من الأثير تـكونت الـكواكب . فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه بالشوق الحاصل فيها إليه . قال : والمـاء ذكر ، والأرض أنثى ، وهما يكونان سفلا . والنار ذكر ، والهواء أنثى وهما يكونان علواً .

وكان يقول : إن هذا العنصر الذى هو أول وهو آخر — أى هو المبدأ وهو الـكمال ، هو عنصر الجسمانيات والجرميات ، لا أنه عنصر الروحانيات البسيطة . ثم إن هذا العنصر له صفو وكدر . فما كان من صفوه فإنه يكون جسما ، وما كان من كدره فإنه يكون جرماً . فالجرم يدثر ، والجسم لا يدثر ، والجرم كثيف ظاهر ، والجسم لطيف باطن ، وفى النشأة الثانية يظهر الجسم ويدثر الجسم ، ويكون الجسم اللطيف ظاهراً والجرم الـكثيف دائراً .

وكان يقول : إن فوق السماء عوالم مبدعة لا يقدر المنطق أن يصف تلك الأنوار ، ولا يقدر العقل أن يقف على إدراك ذلك الحس والبهاء ، وهى مبدعة من عنصر لا يدرك غوره ، ولا يبصر نوره ، والمنطق والنفس والطبيعة تحته ودونه . وهو الدهر المحض من نحو آخره لا من نحو أوله ، وإليه تشتاق العقول والأنفس ، وهو الذى سميناه الديمومة ، والسرمد ، والبقاء فى حد النشأة الثانية .

فظهر بهذه الإشارات أنه إنما أراد بقوله : المـاء هو المبدَع الأول ، أى هو مبدأ التركيبات الجسمانية لا المبدأ الأول فى الموجودات العلوية ، لـكنه لمـا اعتقد أن العنصر

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمين ص ٢٠ « كان المـاء عند طاليس هو المـادة الأولى التى صدرت منها الـكائنات وإليها تعود ، وقد ملأ عليه المـاء شعاب فـكره حتى خيل إليه أن الأرض قرص متجمد يسبح فوق لجج مائية ليس لأبعادها نهاية .. ويرجح أرسطو أن يكون طاليس قد خلص إلى هذه النتيجة لمـا رأى أن الحياة تدور مع المـاء ، وجوداً وعدماً . فتكون الحياة حيث المـاء ، وتنعدم حيث ينعدم »

الأول هو قابل كل صورة ، أى منبع الصور كلها ، فأثبت فى العالم الجسمانى له مثالا يوازيه فى قبول الصور كلها ، ولم يجد عنصراً على هذا النهج مثل المـاء ، فجعله المبدَع الأول فى المركبات . وأنشأ منه الأجسام والأجرام السماوية والأرضية .

وفى التوراة فى السفر الأول منها أن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ، ثم نظر إليه نظرة الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ثار من المـاء بخار مثل الدخان ؛ فخلق منه السموات . وظهر على وجه المـاء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال . وكأن تاليس الملطى إنما تلق مذهبه من هذه المشكاة النبوية .

والذى أثبته من العنصر الأول الذى هو منبع الصور شديد الشبه باللوح المحفوظ المذكور فى الـكتب الإلهية ، إذ فيه جميع أحكام المعلومات ، وصور جميع الموجودات ، والخبر عن الـكائنات .

والمـاء على القول الثانى شديد الشبه بالمـاء الذى عليه العرش : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَـاءِ[1]) .

٢ — رأى أنـكساغورَس[2]

وهو أيضاً من أهل ملطية . رأى فى الوحدانية مثل ما رأى تاليس ، وخالفه فى

---

(١) هود آية ٧ .

(٢) ٦١١ ق . م — ٥٤٧ ق . م تقريباً . قصة الفلسفة اليونانية ص٢٣ « وكان تلميذاً لطاليس لأنه عاصره وعاش معه . وقد خالف أستاذه فى كون المـاء أصل الوجود . فمهما بلغ المـاء من المرونة وقابلية التشكل فهو ذو صفات معروفة معينة تستطيع أن تميزه بها عن المواد الأخرى . ومعنى ذلك أن ثمة صفات تناقض صفات المـاء ، لأنك لاتدرك الصفة إلا إذا أدركت نقيضها . فلا تفهم الحرارة إلا إذا اقترنت فى ذهنك بالبرودة . فإذا انعدم هذا التقابل انعدمت كذلك الخصائص والصفات . وما دام الأمر كذلك فلا يعقل أن تـكون المخلوقات جيعاً على تناقض صفاتها مشتقة من أصل واحد ذى صفة معينة معروفة . وإنما أصل الـكون مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود » .

« وقوله هذا الذى أشرنا إليه مردود عليه ، لأنه لا يمكن كذلك أن تنشأ الأشياء كلها ولها هذه الصفات المختلفة من مادة لا شكل لها . وإلا فمن أين جاءت صفات الحديد والنحاس والخشب وما إلى ذلك وهى مختلفة كل الاختلاف مع أنها اشتقت جيعاً من مادة واحدة لا تميزها صفات كما يقول ؟ » .

المبدإ الأول . قال إن مبدأ الموجودات هو جسم أول متشابه الأجزاء ، وهى أجزاء لطيفة لا يدركها الحس ، ولاينالها العقل . منها كون الكون كله العلوى منه والسفلى ، لأن المركبات مسبوقة بالبسائط ، والمختلفات أيضاً مسبوقة بالمتشابهات . أليست المركبات كلها إنما امتزجت وتركبت من العناصر ، وهى بسائط متشابهة الأجزاء ؟ وأليس الحيوان والنبات وكل ما يغتذى فإنما يتغذى من أجزاء متشابهة أو غير متشابهة ، فتجتمع فى المعدة فتصير متشابهة ، ثم تجرى فى العروق والشرايين فتستحيل أجزاء مختلفة مثل الدم ، واللحم والعظم .

وحكى عنه أيضاً أنه وافق سائر الحكماء فى المبدأ الأول أنه العقل الفعال ، غير أنه خالفهم فى قوله أن الأول الحق تعالى ساكن غير متحرك . وسنشرح القول فى السكون والحركة له تعالى ، ونبين إصطلاحهم فى ذلك .

وحكى فرفوريوس عنه أنه قال : إن أصل الأشياء جسم واحد موضوع الكل ، لانهاية له . ولم يبين ماذلك الجسم ، أهو من العناصر ؟ أم خارج عن ذلك ؟ قال : ومنه تخرج جميع الأجسام والقوة الجسمانية والأنواع والأصناف .

وهو أول من قال بالكمون والظهور ، حيث قدر الأشياء كلها كامنة فى الجسم الأول ، وإنما الوجود ظهورها من ذلك الجسم ؛ نوعاً وصنفاً ومقداراً وشكلا وتكاثفاً وتخلخلا ، كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة ، والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة ، والإنسان الكامل الصورة من النطفة المهينة ، والطير من البيض ، فكل ذلك ظهور عن كمون ، وفعل عن قوة ، وصورة عن استعداد مادة . وإنما الإبداع واحد ، ولم يكن بشىء آخر سوى ذلك الجسم الأول .

وحكى عنه أنه قال : كانت الأشياء ساكنة ، ثم إن العقل رتبها ترتيباً على أحسن نظام ، فوضعها مواضعها من عال ، ومن سافل ، ومن متوسط . ثم من متحرك ، ومن ساكن ، ومن مستقيم فى الحركة ، ومن دائر ، ومن أفلاك متحركة على الدوران ،

ومن عناصر متحركة على الاستقامة ، وهذه كلها بهذا الترتيب مظهرات لما فى الجسم الأول من الموجودات .

ويحكى عنه أن المرتِّبَ هو الطبيعة ، وربما يقول : المرتِّب هو البارى تعالى . وإذا كان المبدأ الأول عنه ذلك الجسم ، فمقتضى مذهبه أن يكون المعاد إلى ذلك الجسم . وإذا كانت النشأة الأولى هى الظهور ، فيقتضى أن تكون النشأة الثانية هى الكمون ، وذلك قريب من مذهب من يقول بالهيولى الأولى التى حدثت فيها الصور ، إلا أنه أثبت جسم غير متناه بالفعل هو متشابه الأجزاء ، وأصحاب الهيولى لا يثبتون جسما بالفعل . وقد رد عليه الحكماء المتأخرون فى إثباته جسما مطلقاً لم يعين له صورة سماوية أو عنصرية ، وفى نفيه النهاية عنه ، وفى قوله بالكمون والظهور ، وفى بيانه سبب الترتيب وتعيينه المرتب . وإنما عقب مذهبه برأى تاليس ، لأنهما من أهل ملطية ، ومتقاربان فى إثبات العنصر الأول ، والصور فيه متمثلة ، والجسم الأول والموجودات فيه كامنة .

وحكى أرسطوطاليس عنه : أن الجسم الذى تكون منه الأشياء غير قابل للكثرة . قال : وأومأ إلى أن الكثرة جاءت من قبل البارى تعالى وتقدس .

٣ — رأى أنَكْسِيمانِس (١)

وهو من الملطيين المعروف بالحكمة ، المذكور بالخير عندهم . قال : إن البارى تعالى أزلى لا أول له ولا آخر .

هو مبدأ الأشياء ولا بدء له . هو المدرَكُ من خلقه أنه هو فقط ، وأنه لا هوية تشبهه ، وكل هوية فمبدعة منه ، هو الواحد ليس كواحد الأعداد ، لأن واحد الأعداد يتكثر وهو لا يتكثر ، وكل مبدَع ظهرت صورته فى حد الإبداع فقد كانت صورته فى علمه الأول ، والصور عنده بلا نهاية .

(١) ٥٨٨ ق . م — ٥٢٤ ق . م تقريباً .

قال : ولايجوز فى البارى تعالى إلا أحد قولين : إما أن نقول إنه أبدع مافى علمه ، وإما أن نقول إنما أبدع أشياء لايعلمها ، وهذا من القول المستشنع . وإن قلنا أبدع ما فى علمه ؛ فالصور أزلية بأزليته ، وليس تتكثر ذاته بتكثر المعلومات ، ولا تتغير بتغيرها .
قال : أبدع بوحدانيته صورة العنصر ، ثم صورة العقل انبعث عنها بيدعة البارى تعالى . فرتب العنصر فى العقل ألوان الصور على قدر مافيها من طبقات الأنوار وأصناف الآثار ، وصارت تلك الطبقات صوراً كثيرة دفعة واحدة ، كما تحدث الصور فى المرآة الصقيلة بلا زمان ، ولا ترتيب بعض على بعض . غير أن الهيولى لا تحتمل القبول دفعة واحدة إلا بترتيب وزمان ، فحدثت تلك الصور فيها على الترتيب . ولم يزل الأمر كذلك فى العالم بعد العالم على قدر طبقات تلك العوالم ؛ حتى قلت أنوار الصور فى الهيولى ، وقلت الهيولى ، وصارت منها هذه الصورة الرذلة الكثيفة التى لم تقبل نفساً روحانية ، ولا نفساً حيوانية ، ولا نباتية .

وكل ما هو على قبول حياة وحس فهو يعد فى آثار تلك الأنوار .

وكان يقول : إن هذا العالم يدثر ويدخله الفساد والعدم من أجل أنه سفل تلك العوالم وثُفْلها . ونسبتها إليه نسبة اللب إلى القشر ، والقشر يرمى . قال : وإنما ثبات هذا العالم بقدر ما فيه من قليل نور ذلك العالم ، وإلا لما ثبت طَرْفَةَ عين . ويبقى ثباته إلى أن يصفى العقل جزأه الممتزج به ، وإلى أن تصفى النفس جزأها المختلط فيه . فإذا صفى الجزآن عنه دثرت أجزاء هذا العالم وفسدت وبقيت مظلمة قد عدمت ذلك القليل من النور فيها ، وبقيت الأنفس الدنسة الخبيثة فى هذه الظلمة بلانور ولاسرور ، ولاروح ولا راحة ، ولا سكون ولا سلوة .

ونقل عنه أيضاً أن أول الأوائل من المبدَعات هو الهواء ، ومنه تكون جميع ما تكون فى العالم من الأجرام العلوية والسفلية .

قال : ما كون من صفو الهواء المحض لطيف روحانى لايدثر ولايدخل عليه الفساد ، ولايقبل الدنس والخبث ، وما كون من كدر الهواء كثيف جسمانى يدثر ويدخله الفساد

ويقبل الدنس والخبث . فما فوق الهواء من العوالم فهو من صفوه ؛ وذلك عالم الروحانيات . وما دون الهواء من العوالم فهو من كدره ، وذلك عالم الجسمانيات ، وهو كثير الأوساخ والأوضار ، يتشبث به من سكن إليه فيمنعه من أن يرتفع علواً ، ويتخلص منه من لم يسكن إليه ، فيصعد إلى عالم كثير اللطافة ، دائم السرور . ولعله جعل الهواء أول الأوائل لموجودات العالم الجسمانى ، كما جعل العنصر أول الأوائل لموجودات العالم الروحانى .

وهو على مثال مذهب تاليس إذ أثبت العنصر والماء فى مقابلته ، وهو قد أثبت العنصر والهواء فى مقابلته . ونزل العنصر منزلة القلم الأول ، والعقل منزلة اللوح القابل لنقش الصور . ورتب الموجودات على ذلك الترتيب . وهو أيضاً من مشكاة النبوة اقتبس ، وبعبارات القوم التبس .

٤ — رأى أنْبَاذُقليسَ(١)

وهو من الكبار عند الجماعة ، دقيق النظر فى العلوم ، رقيق الحال فى الأعمال ، وكان فى زمن داود النبي عليه السلام ، مضى إليه وتلقى منه العلم . واختلف إلى لقمان الحكيم ، واقتبس منه الحكمة ، ثم عاد إلى يونان وأفاد .

قال : إن البارى تعالى لم تزل هويته فقط ، وهو العلم المحض ، وهو الإرادة المحضة ، وهو الجود والعزة ، والقدرة والعدل والخير والحق ، لاأن هناك قوى مسماة بهذه الأسماء ، بل هى : هو ، وهو : هذه كلها . مبدع فقط لا أنه أبدع من شىء ، ولا أن شيئاً كان معه . فأبدع الشىء البسيط الذى هو أول البسائط المعقول ، وهو العنصر الأول ، ثم كثر الأشياء المبسوطة من ذلك المبدع البسيط الواحد الأول ، ثم كون المركبات من المبسوطات .

---

(١) يطلق عليه الآن : إمبذ قليس ٤٩٥ ق . م ـ ٤٣٥ ق . م .

وهو مبدع الشيء واللاشيء : العقلى ، والفكرى ، والوهمى ؛ أى مبدع المتضادات والمتقابلات ؛ المعقولة والخيالية والحسية . وقال : إن البارى تعالى أبدع الصور لا بنوع إرادة مستأنفة ، بل بنوع أنه علة فقط ، وهو العلم والإرادة . فإذا كان المبدع إنما أبدع الصور بنوع أنه علة لها ، فالعلة ولا معلول . وإلا فالمعلول مع العلة معية بالذات . فإن جاز أن يقال إن معلولا مع العلة ؛ فالمعلول حينئذ ليس هو غير العلة . وأن يكون المعلول ليس أولى بكونه معلولا من العلة ، ولا العلة بكونها علة أولى من المعلول . فالمعلول إذن تحت العلة وبعدها ، والعلة علة العلل كلها ، أى علة كل معلول تحتها . فلامحالة أن المعلول لم يكن مع العلة بجهة من الجهات ألبتة ، وإلا فقد بطل اسم العلة والمعلوم . فالمعلول الأول هو العنصر ، والمعلول الثانى هو بتوسطه العقل . والثالث بتوسطهما النفس ، وهذه بسائط ومتوسطات ، وما بعدها مركبات .

وذكر أن المنطق لا يعبر عما عند العقل ، لأن العقل أكبر من المنطق من أجل أنه بسيط ، والمنطق مركب . والمنطق يتجزأ والعقل يتحد ويحد فيجمع المتجزئات . فليس للمنطق إذن أن يصف البارى تعالى إلا صفة واحدة ، وذلك أنه هو ولا شيء من هذه العوالم بسيط ولا مركب . فإذا كان هو ولا شيء ، فقد كان الشيء واللاشيء مبدعين .

ثم قال أنبادقليس : العنصر الأول بسيط من نحو ذات العقل الذى هو دونه . وليس هو بسيطاً مطلقاً ، أى واحداً بحتاً من نحو ذات العلة . فلامعلول إلا وهو مركب تركيباً عقلياً أو حسياً . فالعنصر فى ذاته مركب من المحبة والغلبة ، وعنهما أبدعت الجواهر البسيطة الروحانية ، والجواهر المركبة الجسمانية . فصارت المحبة والغلبة صفتين أو صورتين للعنصر ؛ مبدأين لجميع الموجودات ، فانطبعت الروحانيات كلها على المحبة الخالصة ، والجسمانيات كلها على الغلبة والمركبات منها على طبيعتى المحبة والغلبة والازدواج والتضاد ، وبمقدارهما فى المركبات تعرف مقادير الروحانيات فى الجسمانيات .

قال : ولهذا المعنى ائتلفت المزدوجات بعضها ببعض نوعاً بنوع ، وصنفاً بصنف . واختلفت المتضادات فتنافر بعضها عن بعض نوعاً عن نوع ، وصنفاً عن صنف .

فما كان فيها من الائتلاف والمحبة فمن الروحانيات ، وما كان فيها من الاختلاف والغلبة فمن الجسمانيات . وقد يجتمعان فى نفس واحدة بإضافتين مختلفتين .

وربما أضاف المحبة إلى المشترى والزهرة ، والغلبة إلى زحل والمريخ ، فكأنهما تشخصتا بالسعدين والنحسين .

ولكلام أنباد قليس مساق آخر ، قال : إن النفس النامية قشر للنفس البهيمية الحيوانية ، والنفس الحيوانية قشر للنفس المنطقية ، والمنطقية قشر للعقلية . وكل ما هو أسفل فهو قشر لما هو أعلى ، والأعلى لبه . وربما يعبر عن القشر واللب بالجسد والروح ، فيجعل النفس النامية جسداً للنفس الحيوانية ، وهذه روحاً لها ، وعلى ذلك حتى ينتهى إلى العقل .

وقال : لما صور العنصر الأول فى العقل ما عنده من الصور المعقولة الروحانية ، وصور العقل فى النفس ما استفاد من العنصر ، صورت النفس الكلية فى الطبيعة الكلية ما استفادت من العقل . فحصلت قشور فى الطبيعة لا تشبهها ، ولا هى شبيهة بالعقل الروحانى اللطيف . فلما نظر العقل إليها وأبصر الأرواح واللبوب فى الأجسام والقشور : ساح عليها من الصور الحسنة الشريفة البهية ؛ وهى صور النفوس المشاكلة للصور العقلية اللطيفة الروحانية ، حتى يديرها ويتصرف فيها بالتمييز بين القشور واللبوب ، فيصعد باللبوب إلى عالمها ، فكانت النفوس الجزئية أجزاء للنفس الكلية كأجزاء الشمس المشرقة على منافذ البيت ، والطبيعة الكلية معلولة للنفس . وفرق بين الجزء وبين الطبيعة . فالجزء غير المعلول .

ثم قال : وخاصية النفس الكلية : المحبة ، لأنها لما نظرت إلى العقل وحسنه وبهائه أحبته حب وامق[1] عاشق لمعشوقه ، فطلبت الاتحاد به وتحركت نحوه .

(١) الوامق : المحب .

وخاصية الطبيعة الكلية : الغلبة ؛ لأنها لما توحدت لم يكن لها نظر وبصر تدرك بهما النفس والعقل وتعشقهما ، بل انبجست[1] منهما قوى متضادة : أما فى بسائطها فمتضادات الأركان ، وأما فى مركباتها فمتضادات القوى المزاجية والطبيعية ، والنباتية ، والحيوانية . والطبيعية تمردت عليها لبعدها من العلة بكونها معلولة عن كلياتها ، وطاوعتها الأجزاء النفسانية مغترة بعالمها الغرّار الغدّار ، فركنت إلى لذات حسية : من مطعم مرى ، ومشرب هنى ، وملبس طرى ، ومنكح شهى . ونسيت ما قد طبعت عليه من ذلك البهاء والحسن والكمال الروحانى النفسانى العقلى . فلما رأت النفس الكلية تمردها واغترارها أهبطت إليها جزءا من أجزائها ، هو أزكى وألطف وأشرف من هاتين النفسين: البهيمية والنباتية ، ومن تلك النفوس المغترة بهما . فيكسر النفسين عن تمردهما ، ويحبب إلى النفوس المغترة عالمها ، ويذكرها بما نسيت ، ويعلمها ما جهلت ، ويطهرها مما تدنست فيه ، ويزكيها عما تنجست به . وذلك الجزء الشريف هو النبي المبعوث فى كل دور من الأدوار . فيجرى على سنن العقل والعنصر الأول من رعاية المحبة والغلبة ؛ فيتألف بعض النفوس بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويشدد على بعضها بالقهر والغلبة .

فتارة يدعو باللسان من جهة المحبة لطفا ، وتارة يدعو بالسيف من جهة الغلبة عنفا . فيخلص النفوس الجزئية الشريفة ، التى اغترت بتمويهات النفسين المزاجيتين ، عن التمويه الباطل ، والتسويل الزائل القائل . وربما يكسو النفسين السافلتين كسوة النفس الشريفة ، فتنقلب الصفة الشهوية إلى المحبة ؛ فتغلب محبة الخير والحق والصدق ، وتنقلب الصفة الغضبية إلى الغلبة ؛ فتغلب الشر والباطل والكذب ، فتصعد النفس الجزئية الشريفة إلى عالم الروحانيين بهما جميعاً ، فتكونان جسداً لها فى ذلك العالم ، كما كانتا جسداً لها فى هذا العالم . وقد قيل : إذا كانت الدولة والجد لأحد أحبه أشكاله ، فيغلب بمحبتهم له أضداده .

---

(١) انبجست : انشقت وانفجرت .

ومما نقل عن أنباد قليس أنه قال : العالم مركب من الأسطقسات[١] الأربعة ، فإنه ليس وراءها شيء أبسط منها . وأن الأشياء كامنة بعضها فى بعض . وأبطل السكون والاستحالة والنمو . وقال : الهواء لا يستحيل نارا[٢] ، ولا الماء هواء ولكن ذلك بتكاثف وتخلخل وبكمون وظهور ، وتركب وتحلل . وإنما التركب فى المركبات بالمحبة يكون ، والتحلل فى المتحللات بالغلبة يكون .

ومما نقل عنه أيضاً : أنه تكلم فى البارى تعالى بنوع حركة وسكون ، فقال : إنه متحرك بنوع سكون ؛ لأن العقل والعنصر متحركان بنوع سكون ، وهو مبدعهما ، ولا محالة أن المبدع أكبر ، لأنه علة كل متحرك وساكن . وشايعه على هذا الرأى فيثاغورس ومن بعده من الحكماء إلى أفلاطون . وأما زينون الأكبر ، وديمقريط ، والشاعريون فصاروا إلى أنه تعالى متحرك . وقد سبق النقل عن أنكساغورس أنه قال هو ساكن لا يتحرك ؛ لأن الحركة لا تكون إلا محدثة . ثم قال : إلا أن تقولوا إن تلك الحركة فوق هذه الحركة ، كما أن ذلك السكون فوق هذا السكون .

وهؤلاء ما عنوا بالحركة والسكون النقلة عن مكان واللبث فى مكان ، ولا بالحركة التغير والاستحالة ، ولا بالسكون ثبات الجوهر والدوام على حالة واحدة ، فإن الأزلية والقدم تنافى هذه المعانى كلها .

ومن يحترز ذلك الاحتراز عن التكثر ، فكيف يجازف هذه المجازفة فى التغير ؟

---

(١) الأسطقس فى اليونانية : كالعناصر فى العربية ، وهو الأصل ، والعناصر الأربعة هى : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) جاء فى قصة الفلسفة اليونانية ص ٦٢ :

(تناول إمبذ قليس أطراف النقيضين مرة ثانية ليوفق بينهما . فإن كانت المادة الموجودة لا يجوز لها أن تنقلب مادة أخرى تباينها فذلك صحيح مسلم به ، على أن يتناول هذا الحكم العناصر الأولى وحدها . تكون النار ماء ، ولن يصير التراب هواء ؛ أعنى أن إمبذ قليس عدل قليلا فى مبدإ بارمينيدس . فليس الوجود عنصراً واحداً ، أو إن شئت تحديد رأيه فقل إنه أربعة عناصر : التراب ، والهواء ، والنار ، والماء . ويستحيل على واحد من تلك العناصر أن ينقلب إلى صورة أخيه . وإذا كنا نرى ملايين وملايين من ألوان المادة ؛ فهى مزيج من تلك العناصر الأربعة الأولى ، وتختلف الأشياء باختلاف نسبة المزج بين تلك الأصول الأربعة) .

فأما الحركة والسكون فى العقل والنفس، فإنما عنوا بهما الفعل والانفعال. وذلك أن العقل لما كان موجوداً كاملا بالفعل قالوا : هو ساكن واحد مستغن عن حركة يصير بها فاعلا . والنفس لما كانت ناقصة متوجهة إلى الكمال ، قالوا : هى متحركة طالبة درجة العقل . ثم قالوا : العقل ساكن بنوع حركة ، أى هو فى ذاته كامل بالفعل ، فاعل يخرج النفس من القوة إلى الفعل . والفعل نوع حركة فى سكون . والكمال نوع سكون فى حركة ، أى هو كامل ومكمل غيره . فعلى هذا المعنى يجوز على قضية مذهبهم إضافة الحركة والسكون إلى البارى تعالى .

ومن العجب أن مثل هذا الاختلاف قد وجد فى أرباب الملل حتى صار بعض إلى أنه تعالى مستقر فى مكان ، ومستو على مكان ، وذلك إشارة إلى السكون . وصار بعض إلى أنه يجىء ويذهب ، وينزل ويصعد ، وذلك عبارة عن الحركة . إلا أن يحمل على معنى صحيح لائق بجناب مقدس ، حقيق بجلال الحق .

ومما نقل عن أنباد قليس فى أمر المعاد أنه قال : يبقى هذا العالم على الوجه الذى عهدناه من النفوس التى تشبثت بالطبائع ، والأرواح التى تعلقت بالشباك حتى تستغيث فى آخر الأمر إلى النفس الكلية التى هى كلها ، فتتضرع النفس إلى العقل ، ويتضرع العقل إلى البارى تعالى ، فيسيح البارى تعالى على العقل ، ويسيح العقل على النفس ، وتسيح النفس على هذا العالم بكل نورها ؛ فتستضىء الأنفس الجزئية ، وتشرق الأرض بنور ربها حتى تعاين الجزئيات كلياتها ، فتتخلص من الشبكة فتتصل بكلياتها ، وتستقر فى عالمها مسرورة ، محبورة (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ[١]) .

---

(١) سورة النور ، آية ٤٠ .

٥ — رأى فيثاغورَس(١)

ابن مِنْسَارخس من أهل ساميا(٢) . وكان فى زمان سليمان النبى ابن داود عليهما السلام ، قد أخذ الحكمة من معدن النبوة ، وهو الحكيم الفاضل ذو الرأى المتين ، والعقل الرصين ، يدعى أنه شاهد العوالم العلوية بحسه وحدسه ، وبلغ فى الرياضة إلى أن سمع حفيف الفلك ، ووصل إلى مقام الملك . وقال : ما سمعت شيئاً قط ألذ من حركاتها ، ولا رأيت شيئاً أبهى من صورها وهيئاتها .

قوله فى الإلهيات :

قال : إن البارى تعالى واحد لا كالآحاد ، ولا يدخل فى العدد ، ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس ؛ فلا الفكر العقلى يدركه ، ولا المنطق النفسى يصفه ، فهو فوق الصفات الروحانية ، غير مدرك من نحو ذاته ، وإنما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله . وكل عالم من العوالم يدركه بقدر الآثار التى تظهر فيه صنعته ، فينعته ويصفه بذلك القدر الذى يخصه من صنعته . فالموجودات فى العالم الروحانى قد خصت بآثار خاصة روحانية فتنعته من حيث تلك الآثار ، والموجودات فى العالم الجسمانى قد خصت بآثار خاصة جسمانية فتنعته من حيث تلك الآثار . ولا نشك أن هداية الحيوان مقدرة على الآثار التى جبل الحيوان عليها . وهداية الإنسان مقدرة على الآثار التى فطر الإنسان عليها ؛ فكل يصفه من نحو ذاته ، ويقدسه عن خصائص صفاته .

ثم قال : الوحدة تنقسم إلى وحدة غير مستفادة من الغير ، وهى وحدة البارى تعالى: وحدة الإحاطة بكل شىء ، وحدة الحكم على كل شىء ، وحدة تصدر عنها الآحاد فى الموجودات والكثرة فيها . وإلى وحدة مستفادة من الغير ، وذلك وحدة المخلوقات

---

(١) ولد بين سنتى ٥٨٠ ، ٥٧٠ ق . م .

(٢) هى جزيرة ساموس .

وربما يقول : الوحدة على الإطلاق تنقسم إلى وحدة قبل الدهر ، ووحدة مع الدهر ، ووحدة بعد الدهر وقبل الزمان ، ووحدة مع الزمان . فالوحدة التى هى قبل الدهر هى وحدة البارى تعالى . والوحدة التى هى مع الدهر هى وحدة العقل الأول . والوحدة التى هى بعد الدهر وقبل الزمان هى وحدة النفس . والوحدة التى هى مع الزمان هى وحدة العناصر والمركبات .

وربما يقسم الوحدة قسمة أخرى فيقول : الوحدة تنقسم إلى وحدة بالذات ، وإلى وحدة بالعرض . فالوحدة بالذات ليست إلا للمبدع للكل الذى منه تصدر الوحدانيات فى العدد والمعدود . والوحدة بالعرض تنقسم إلى ماهو مبدأ العدد وليس داخلا فى العدد. وإلى ما هو مبدأ للعدد وهو داخل فيه ؛ فالأول كالواحدية للعقل الفعال ، لأنه لا يدخل فى العدد والمعدود . والثانى ينقسم إلى ما يدخل فيه كالجزء له ، فإن الاثنين إنما هو مركب من واحدين ، وكذلك كل عدد فهو مركب من آحاد لا محالة ، وحيثما ارتقى العدد إلى أكثر نزلت نسبة الوحدة إليه إلى أقل ، وإلى ما يدخل فيه كاللازم له لا كالجزء فيه ؛ وذلك لأن كل عدد أو معدود لن يخلو قط عن وحدة تلازمه ، فإن الاثنين والثلاثة فى كونهما اثنين وثلاثة واحدة ، وكذلك المعدودات من المركبات والبسائط واحدة ؛ إما فى الجنس ، أو فى النوع ، أو فى الشخص ؛ كالجوهر فى أنه جوهر على الإطلاق والإنسان فى أنه إنسان ، والشخص المعين مثل زيد فى أنه ذلك الشخص بعينه واحد . فلم تنفك الوحدة من الموجودات قط . وهذه وحدة مستفادة من وحدة البارى تعالى تلزم الموجودات كلها ، وإن كانت فى ذواتها متكثرة . وإنما شرف كل موجود بغلبة الوحدة فيه . فكل ما هو أبعد من الكثرة فهو أشرف وأكمل .

ثم إن لفيثاغورس رأيا فى العدد والمعدود قد خالف فيه جميع الحكماء قبله ، وخالفه فيه من بعده ، وهو أنه جرد العدد عن المعدود تجريد الصورة عن المادة ، وتصوره موجوداً محققا . وجرد الصورة وتحققها . وقال : مبدأ الموجودات هو العدد ، وهو أول مبدع أبدعه البارى تعالى . فأول العدد هو الواحد ، وله اختلاف رأى فى أنه هل

يدخل فى العدد أم لا كما سبق . وميله الأكثر إلى أنه لا يدخل فى العدد ، فيبتدئ العدد من اثنين .

ويقول : هو منقسم إلى زوج وفرد ؛ فالعدد البسيط الأول اثنان ، والزوج البسيط الأول أربعة ، وهو المنقسم بمتساويين . ولم يجعل الاثنين زوجا ؛ فإنه لو انقسم لكان إلى واحدين ، وكان الواحد داخلا فى العدد . ونحن ابتدأنا فى العدد من اثنين ، والزوج قسم من أقسامه . فكيف يكون نفسه ؟ والفرد البسيط الأول ثلاثة .

قال : وتتم القسمة بذلك ، وما وراءه فهو قسمة القسمة . فالأربعة هى نهاية العدد ، وهى الكمال . وعن هذا كان يُقْسِم (بالرباعية) « لا ، وحق الرباعية التى هى تدبر أنفسنا ، التى هى أصل الكمال » وما وراء ذلك فهو زوج الفرد ، وزوج الزوج ، وزوج الزوج والفرد .

ويسمى الخمسة عدداً دائراً ؛ فإنها إذا ضربتها فى نفسها أبداً عادت الخمسة من الرأس .

ويسمى الستة عدداً تاماً ؛ فإن أجزاءها مساوية لجملتها .

والسبعة عدداً كاملا ، فإنها مجموع الزوج والفرد ، وهى نهاية أخرى .

والثمانية مبتدأة ، مركبة من زوجين .

والتسعة من ثلاثة أفراد ، وهى نهاية أخرى .

والعشرة من مجموع العدد من الواحد إلى الأربعة ، وهى نهاية أخرى .

فالعدد أربع نهايات : أربعة ، وسبعة ، وتسعة ، وعشرة . ثم يعود إلى الواحد فيقول : أحد عشر ... وبعد . والتركيبات فيما وراء الأربعة على أنحاء ستة :

فالخمسة على مذهب من لا يرى الواحد داخلا فى العدد فهى مركبة من عدد وفرد . وعلى مذهب من يرى ذلك فهى مركبة من فرد وزوجين .

وكذلك الستة على الأول فمركبة من فردين ، أو عدد وزوج . وعلى الثانى فمركبة من ثلاثة أزواج .

والسبعة على الأول فمركبة من فرد وزوج . وعلى الثانى فمركبة من فرد وثلاثة أزواج .

والثمانية على الأول فمركبة من زوجين . وعلى الثانى فمركبة من أربعة أزواج .

والتسعة على الأول فمركبة من ثلاثة أفراد ، وعلى الثانى فمركبة من فرد وأربعة أزواج .

والعشرة على الأول فمركبة من عدد وزوجين ، أو زوج وفردين . وعلى الثانى فما يحسب من الواحد إلى الأربعة ، وهو النهاية والكمال . ثم الأعداد الأخرى فقياسها هذا القياس . قال : وهذه هى أصول الموجودات .

ثم إنه ركب العدد على المعدود ، والمقدار على المقدور . فقال : المعدود الذى فيه اثنينية ، وهو أصل المعدودات ومبدؤها ، هو العقل باعتبار أن فيه اعتبارين: اعتباراً من حيث ذاته ، وأنه ممكن الوجود بذاته ، واعتباراً من حيث مبدعه ، وأنه واجب الوجود به ، فقابله الاثنان . والمعدود الذى فيه ثلاثية هو النفس ؛ إذ زاد على الاعتبارين اعتباراً ثالثاً . والمعدود الذى فيه أربعية هو الطبيعة إذ زاد على الثلاثة رابعا . وثم النهاية أعنى نهاية المبادئ ، وما بعدها المركبات ؛ فما من موجود مركب إلا وفيه من العناصر والنفس والعقل شىء ؛ إما عين أو أثر حتى ينتهى إلى السبعة فيقدر المعدودات على ذلك وينتهى إلى العشرة . ويعد العقل والنفوس التسعة بأفلاكها التى هى أبدانها وعقولها المفارقة كالجوهر وتسعة أعراض . وبالجملة إنما يتعرف حال الموجودات من العدد والمقادير الأول ، ويقول : البارى تعالى عالم بجميع المعلومات على طريق الإحاطة بالأسباب التى هى الأعداد والمقادير ، وهى لا تختلف ؛ فعلمه لا يختلف .

وربما يقول : المقابل للواحد هو العنصر الأول كما قال أنكسيمانس ، ويسميه الهيولى الأولى ، وذلك هو الواحد المستفاد ، لا الواحد الذى هو كالآحاد . وهو واحد ، كل : تصدر عنه كل كثرة ، وتستفيد الكثرة منه الوحدة التى تلازم الموجودات ولا تفارقها

ألبتة كما قررنا . وذكر أن العنصر انفرد بوحدته ثم أفاضها على الموجودات ، فلا يوجد موجود إلا وفيه من وحدته حظ على قدر استمداده ، ثم من هداية العقل حظ على قدر قبوله. ثم من قوة النفس حظ على قدر تهيئه . وعلى ذلك آثار المبادئ فى المركبات ؛ فإن كل مركب لا يخلو عن مزاج ما ، وكل مزاج لا يعرى عن اعتدال ما ، وكل اعتدال عن كمال أو قوة كمال : إما طبيعى آلى وهو مبدأ الحركة ، وإما عن كمال نفسانى هو مبدأ الحس . فإذا بلغ المزاج الإنسانى إلى حد قبول هذا الكمال أفاض عليه العنصر وحدته ، والعقل هدايته ، والنفس نطقه وحكمته .

قال : ولما كانت التأليفات الهندسية مرتبة على المعادلات العددية عددناها أيضاً من المبادئ . فصارت طائفة من الفيثاغوريين إلى أن المبادئ هى التأليفات الهندسية على مناسبات عددية ، ولهذا صارت المتحركات السماوية ذات حركات متناسبة لحنية هى أشرف الحركات ، وألطف التأليفات . ثم تعدوا من ذلك إلى الأقوال حتى صارت طائفة منهم إلى أن المبادئ هى الحروف والحدود المجردة عن المادة ، وأوقعوا الألف فى مقابلة الواحد ، والباء فى مقابلة الاثنين ، إلى غير ذلك من المقابلات .

ولست أدرى ! على أى لسان ولغة قدروها ؟ فإن الألسن تختلف باختلاف الأمصار والمدن ، أو على أى وجه من التركيب ؟ فإن التركيبات أيضاً مختلفة ؛ فالبسائط من الحروف مختلف فيها ، والمركبات كذلك . ولا كذلك العدد فإنه لا يختلف أصلا.

وصارت جماعة منهم إلى أن مبدأ الجسم هو الأبعاد الثلاثة ، والجسم مركب عنها . وأوقعوا النقطة فى مقابلة الواحد ، والخط فى مقابلة الاثنين ، والسطح فى مقابلة الثلاثة ، والجسم فى مقابلة الأربعة ، وراعوا هذه المقابلات فى تراكيب الأجسام ، وتضاعيف الأعداد .

ومما ينقل عن فيثاغورس : أن الطبائع أربعة ، والنفوس التى فينا أيضاً أربعة : العقل ، والعلم ، والرأى ، والحواس . ثم ركب فيه العدد على المعدود ، والروحانى على الجسمانى .

قال الرئيس أبو على الحسين بن سينا : وأمثل ما يحمل عليه هذا القول أن يقال : كون الشيء واحداً غير كونه موجوداً أو إنساناً ، وهو فى ذاته أقدم منهما ؛ فالحيوان الواحد لا يحصل واحداً إلا وقد تقدمه معنى الوحدة الذى صار به واحداً ، ولولاه لم يصح وجوده ؛ فإذن هو الأشرف الأبسط الأول ، وهذه صورة العقل ؛ فالعقل يجب أن يكون الواحد من هذه الجهة . والعلم دون ذلك فى الرتبة ، لأنه بالعقل ومن العقل ؛ فهو كالاثنين الذى يفتقر إلى الواحد ويصدر منه . وكذلك العلم يئول إلى العقل . ومعنى الظن والرأى عدد السطح ، والحس عدد المصمت : أن السطح لكونه ذا ثلاث جهات هو طبيعة الظن الذى هو أعم من العلم مرتبة . وذلك لأن العلم يتعلق بمعلوم معين ، والظن والرأى ينجذب إلى الشيء ونقيضه ، والحس أعم من الظن ، فهو المصمت أى الجسم له أربع جهات .

ومما نقل عن فيثاغورس أن العالم إنما ألف من اللحون البسيطة الروحانية . ويذكر أن الأعداد الروحانية غير منقطعة ، بل أعداد متحدة تتجزأ من نحو العقل ، ولا تتجزأ من نحو الحواس ، وعدّ عوالم كثيرة . فمنه عالم هو سرور محض فى أصل الإبداع ، وابتهاج وروح فى وضع الفطرة ، ومنه عالم هو دونه . ومنطقها ليس مثل منطق العوالم العالية ، فإن المنطق قد يكون باللحون الروحانية البسيطة ، وقد يكون باللحون الروحانية المركبة .

والأول يكون سرورها دائما غير منقطع . ومن اللحون ما هو ناقص فى التركيب ، لأن المنطق بعد لم يخرج إلى الفعل ، فلا يكون السرور بغاية الكمال ، لأن اللحن ليس بغاية الاتفاق .

وكل عالم فهو دون الأول بالرتبة . وتتفاضل العوالم بالحسن والبهاء والرتبة . والأخير ثقل العوالم ، وثقلها[1] وسفلها . وذلك لم يجتمع كل الاجتماع ، ولم تتحد الصورة بالمادة كل الاتحاد . وجاز على كل جزء منه الانفكاك عن الجزء الآخر ، إلا أن فيه

(١) الثفل ؛ بضم الثاء وسكون الفاء ، والثافل : ما استقر تحت الشيء من كدرة .

نوراً قليلا من النور الأول ، فلذلك النور وجد فيه نوع ثبات . ولولا ذلك لم يثبت طرفة عين . وذلك النور القليل : جسم النفس والعقل ، الحامل لها فى هذا العالم .

وذكر أن الإنسان بحكم الفطرة واقع فى مقابلة العالم كله ، وهو عالم صغير ، والعالم إنسان كبير ؛ ولذلك صار حظه من النفس والعقل أوفر . فمن أحسن تقويم نفسه وتهذيب أخلاقه وتزكية أحواله أمكنه أن يصل إلى معرفة العالم وكيفية تأليفه . ومن ضيع نفسه ولم يقم بمصالحها من التهذيب والتقويم خرج من عداد العدد والمعدود ، وانحل عن رباط القدر والمقدور ، وصار ضياعا هملا .

وربما يقول : النفس الإنسانية تأليفات عددية أو لحنية ؛ ولهذا ناسبت النفس مناسبات الألحان ، والتذت بسماعها وطاشت ، وتواجدت باستماعها وجاشت . ولقد كانت قبل اتصالها بالأبدان قد أبدعت من تلك التأليفات العددية الأولى ، ثم اتصلت بالأبدان ؛ فإن كانت التهذيبات الخلقية على تناسب الفطرة ، وتجردت النفوس عن المناسبات الخارجة اتصلت بعالمها ، وانخرطت فى سلكها على هيئة أجمل وأكمل من الأول ، فإن التأليفات الأولى قد كانت ناقصة من وجه حيث كانت بالقوة ، وبالرياضة والمجاهدة فى هذا العالم بلغت إلى حد الكمال خارجة من حد القوة إلى حد الفعل .

قال : والشرائع التى وردت بمقادير الصلوات والزكوات وسائر العبادات ، هى لإيقاع هذه المناسبات فى مقابلة تلك التأليفات الروحانية . وربما يبالغ فى تقرير التأليف حتى يكاد يقول : ليس فى العالم سوى التأليف ، والأجسام ، والأعراض تأليفات ، والنفوس والعقول تأليفات .

ويعسر كل العسر تقرير ذلك ! نعم ! تقدير التأليف على المؤلف ، والتقدير على المقدر أمر يهتدى إليه ، ويعول عليه .

وكان خرينوس وزينون الشاعر متابعين لفيثاغورس على رأيه فى المبدع والمبدع . إلا أنهما قالا : البارى تعالى أبدع النفس والعقل دفعة واحدة ، ثم أبدع جميع ما تحتهما بتوسطهما . وفى بدء ما أبدعهما أبدعهما لا يموتان ، ولا يجوز عليهما الدثور والفناء .

وذكرا أن النفس إذا كانت طاهرة زكية من كل دنس صارت فى العالم الأعلى إلى مسكنها الذى يشاكلها ويجانسها . وكان الجسم — الذى هو من النار والهواء جسمها فى ذلك العالم — مهذبا من كل ثقل وكدر .

فأما الجرم — الذى من الماء والأرض — فإن ذلك يدثر ويفنى ، لأنه غير مشاكل للجسم السماوى ؛ لأن الجسم السماوى لطيف لا وزن له ولا يلمس . فالجسم فى هذا العالم مستبطن فى الجرم لأنه أشد روحانية . وهذا العالم لا يشاكل الجسم بل الجرم يشاكله . فكل ما هو مركب والأجزاء النارية والهوائية عليه أغلب ، كانت الجسمية أغلب . وكل ما هو مركب والأجزاء المائية والأرضية عليه أغلب كانت الجرمية أغلب . وهذا العالم عالم الجرم ، وذلك العالم عالم الجسم . فالنفس فى ذلك العالم تحشر فى بدن جسمانى لا جرمانى دائما ، لا يجوز عليه الفناء والدثور ، ولذته تكون دائمة لا تملها الطباع والنفوس .

وقيل لفيثاغورس : لم قلت بإبطال العالم ؟ قال : لأنه يبلغ العلة التى من أجلها كان . فإذا بلغها سكنت حركته . وأكثر اللذات العلوية هى التأليفات اللحنية، وذلك كما يقال : التسبيح والتقديس غذاء الروحانيين . وغذاء كل موجود هو مما خلق منه ذلك الموجود .

وأما هيراقليطس وأباسيس فقد كانا من الفيثاغوريين وقالا : إن مبدأ الموجودات هو النار ، فما تكاثف منها وتحجر فهو الأرض . وما تحلل من الأرض بالنار صار ماء . وما تخلخل من الماء بالنار صار هواء . وما تخلخل من الهواء بحرارة النار صار ناراً . فالنار مبدأ ، وبعدها الأرض ، وبعدها الماء ، وبعدها الهواء ، وبعدها النار . والنار هى المبدأ وإليها المنتهى ، فنها التكون ، وإليها الفساد .

وأما أبيقورس الذى تفلسف فى أيام ديمقريطيس، فكان يرى أن مبادئ الموجودات أجسام تدرك عقلا ، وهى كانت تتحرك من الخلاء فى الخلاء . وزعم أن الخلاء

لا نهاية له . وكذلك الأجسام لا نهاية لها ، إلا أن لها ثلاثة أشياء : الشكل ، والعظم ، والثقل .

وديمقريطيس كان يرى أن لها شيئين : الشكل والعظم فقط . وذكر أن تلك الأجسام لا تتجزأ ؛ أى لا تنفعل ولا تتكثر ، وهى معقولة أو متوهمة غير محسوسة ؛ فاصطكت تلك الأجزاء فى حركاتها اضطراراً واتفاقا ، فحصل من اصطكاكها صور هذا العالم وأشكالها ، وتحركت على أنحاء من جهات التحرك . وذلك هو الذى يحكى عنهم أنهم قالوا بالاتفاق ، فلم يثبتوا لها صانعاً أوجب الاصطكاك ، وأوجد هذه الصور وهؤلاء قد أثبتوا الصانع ، وأثبتوا سبب حركات تلك الجواهر . وأما اصطكاكها فقد قالوا فيها بالاتفاق . فلزمهم حصول العالم بالاتفاق والخبط .

وكان لفيثاغورس تلميذان رشيدان :

يدعى أحدهما : فلنكس ، ويعرف بموزنوش ؛ قد دخل فارس ودعا الناس إلى حكمة فيثاغورس ، وأضاف حكمته إلى مجوسية القوم . ويدعى الآخر قلانوس ، دخل الهند ، ودعا الناس إلى حكمة فيثاغورس أيضاً . وأضاف حكمته إلى برهمية القوم . إلا أن المجوس كما يقال أخذوا جسمانية قوله ، والهند أخذوا روحانية قوله .

ومما أخبر عنه فيثاغورس وأوصى به :

قال : إنى عاينت هذه العوالم العلوية بالحسّ بعد الرياضة البالغة ، وارتفعت عن عالم الطبائع إلى عالم النفس وعالم العقل ، فنظرت إلى ما فيها من الصور المجردة ، وما لها من الحسن والبهاء والنور ، وسمعت ما لها من اللحون الشريفة ، والأصوات الشجية الروحانية .

وقال : إن ما فى هذا العالم يشتمل على مقدار يسير من الحسن ، لكونه معلول الطبيعة وما فوقه من العوالم أبهى وأشرف وأحسن ، إلى أن يصل الوصف إلى عالم النفس والعقل فيقف ؛ فلا يمكن المنطق وصف ما فيها من الشرف والكرم ، والحسن

والبهاء . فليكن حرصكم واجتهادكم على الاتصال بذلك العالم ، حتى يكون بقاؤكم ودوامكم طويلا بعد ما نالكم من الفساد والدثور ، وتصيرون إلى عالم هو حسن كله ، وبهاء كله ، وسرور كله ، وعز وحق كله ، ويكون سروركم ولذتكم دائمة غير منقطعة .

وقال : من كانت الوسائط بينه وبين مولاه أكثر فهو فى رتبة العبودية أنقص . وإذا كان البدن مفتقراً فى مصالحه إلى تدبير الطبيعة ، وكانت الطبيعة مفتقرة فى تأدية أفعالها إلى تدبير النفس ، وكانت النفس مفتقرة فى اختيارها الأفضل إلى إرشاد العقل ، ولم يكن فوق العقل فاتح إلا الهداية الإلهية ، فبالحرى أن يكون المستعين بصريح العقل فى كافة المصارف مشهوداً له بفطنة الاكتفاء بمولاه ، وأن يكون التابع لشهوة البدن ، المنقاد لدواعى الطبيعة ، المواتى لهوى النفس بعيداً من مولاه ، ناقصاً فى رتبته .

٦ — رأى سقراط

سقراط[١] بن سُفْرُنِيسْقُوس، الحكيم، الفاضل، الزاهد، من أهل أثينية، وكان قد اقتبس الحكمة من فيثاغورس وأرسالاوس ، واقتصر من أصنافها على الإلٰهيات والأخلاقيات ، واشتغل بالزهد ورياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وأعرض عن ملذات الدنيا ، واعتزل إلى الجبل وأقام فى غار به[٢] .

ونهى الرؤساء الذين كانوا فى زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان ، فثوروا عليه الغاغة ، وألجأوا ملكهم إلى قتله ، فحبسه الملك ثم سقاه السم ؛ وقضيته معروفة .

قال سقراط : إن البارى تعالى لم يزل هوية فقط ، وهو جوهر فقط ، وإذا رجعنا

---

(١) جاء فى قصة الفلسفة اليونانية ص ١٠٥ (ولد سقراط فى أثينا حوالى سنة ٤٧٠ ق . م من أب يحترف صناعة التماثيل ، وأم قابلة . احترف حرفة أبيه ولبث يزاولها حينا قصيراً . ثم ترك هذه المهنة وتخصص للفلسفة التى اعتبرها رسالته فى الحياة ، وكان يعيش فى أثينا مشتغلا بالفلسفة حتى أتهم فى نحو سن السبعين بإنكار آلهة اليونان ، والدعوة إلى آلهة جديدة ، وأنه يفسد عقول الشبان ، فحكم عليه بالإعدام وأعدم) .

(٢) غارب الجبل : أعلاه .

إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه، وحقيقته وتسميته، وإدراكه، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره. فهو المدرك حقاً، والواصف لكل شيء وصفاً، والمسمى لكل موجود اسما. فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما ؟ وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا ؟ فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله. وهى أسماء وصفات، إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر، المخبرة عن حقيقته. وذلك مثل قولنا : إله، أى واضع كل شيء. وخالق أى مقدر كل شيء. وعزيز أى ممتنع أن يضام. وحكيم أى محكم أفعاله على النظام، وكذلك سائر الصفات.

وقال : إن علمه، وقدرته، وجوده، وحكمته بلا نهاية. ولا يبلغ العقل أن يصفها. ولو وصفها لكانت متناهية.

فألزم عليه. إنك تقول إنها بلا نهاية ولا غاية، وقد نرى الموجودات متناهيه ! فقال : إنما تناهيها بحسب احتمال القوابل، لا بحسب القدرة، والحكمة، والجود. ولما كانت المادة لم تحتمل صوراً بلا نهاية، فتناهت الصور لا من جهة بخل فى الواهب بل لقصور فى المادة. وعن هذا اقتضت الحكمة الإلهية أنها وإن تناهت: ذاتا وصورة، وحيزاً ومكاناً، إلا أنها لا تتناهى زمانا فى آخرها إلا من نحو أولها، وإن لم يتصور بقاء شخص ؛ فاقتضت الحكمة استبقاء الأشخاص ببقاء الأنواع. وذلك بتجدد أمثالها، ليستحفظ الشخص ببقاء النوع، ويستبقى النوع بتجدد الأشخاص، فلا تبلغ القدرة إلى حد النهاية، ولا الحكمة تقف على غاية.

ثم إن من مذهب سقراط أن أخص ما يوصف به البارى تعالى هو كونه حيا قيوما لأن العلم، والقدرة، والجود، والحكمة : تندرج تحت كونه حيا. والحياة صفة جامعة للكل. والبقاء، والسرمد، والدوام، وحفظ النظام فى العالم : تندرج تحت كونه قيوما. والقيومية صفة جامعة للكل. وربما يقول : هو حى ناطق من جوهره ؛ أى من ذاته. وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا، ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد، ولا يتطرق إلى حياته ونطقه تعالى وتقدس.

وحكى فلوطرخيس فى المبادئ أنه قال : أصول الأشياء ثلاثة وهى : العلة الفاعلة ، والعنصر ، والصورة . فالله تعالى هو الفاعل ، والعنصر هو الموضوع الأول للكون والفساد . والصورة جوهر لا جسم . وقال : الطبيعة أمة للنفس ، والنفس أمة للعقل ، والعقل أمة للمبدع الأول ؛ من أجل أن أول مبدع أبدعه المبدع الأول صورة العقل . وقال : المبدع لا غاية له ولا نهاية ، وما ليس له نهاية ليس له شخص وصورة . وقال : اللانهاية فى سائر الموجودات لو تحققت لكان لها صورة واقعة ، ووضع وترتيب . وما تحقق له صورة ووضع وترتيب صار متناهيا ؛ فالموجودات ليست بلا نهاية ، والمبدع الأول ليس بذى نهاية ، ليس على أنه ذاهب فى الجهات بلا نهاية كما يتخيله الخيال والوهم ، بل لا يرتقى إليه الخيال حتى يصفه بنهاية ولا نهاية ؛ فلا نهاية له من جهة العقل ، إذ ليس يحده ، ولا من جهة الحس ، فليس يحده . فهو ليس له نهاية ، فليس له شخص وصورة خيالية أو وجودية حسية أو عقلية ، تعالى وتقدس .

ومن مذهب سقراط أن النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود ؛ إما متصلة بكلها ، وإما متمايزة بذواتها وخواصها ؛ فاتصلت بالأبدان استكمالا واستدامة ، والأبدان قوالبها وآلاتها . فتبطل الأبدان ، وترجع النفوس إلى كليتها . وعن هذا ، وكان يخوف بالملك الذى حبسه أنه يريد قتله ، قال : إن سقراط فى حب[1] ، والملك لا يقدر إلا على كسر الحب . فالحب يكسر ويرجع الماء إلى البحر .

ولسقراط أقاويل فى مسائل الحكمة العلمية والعملية .

ومما اختلف فيه فيثاغورس وسقراط : أن الحكمة قبل الحق ، أم الحق قبل الحكمة ؟ وأوضح القول فيه بأن الحق أعم من الحكمة ، إلا أنه قد يكون جليا ، وقد يكون خفيا . وأما الحكمة فهى أخص من الحق ، إلا أنها لا تكون إلا جلية . فإذن : الحق

---

(١) الحب ، بضم الحاء : الجرة الكبيرة أو الخابية ، وجمعه حباب وحببة وأحباب .

مبسوط فى العالم ، مشتمل على الحكمة المستفيضة فى العالم . والحكمة موضحة للحق المبسوط فى العالم ، والحق ما به الشىء ، والحكمة ما لأجله الشىء .

ولسقراط أيضاً ألغاز[١] ورموز ألقاها إلى تلميذه أرسجانس . وجلها فى كتاب « فاذن » ونحن نوردها مرسلة معقودة :

منها قوله : عند ما فتشت عن علة الحياة ألفيت الموت ، وعند ما وجدت الموت ألفيت الحياة الدائمة .

ومنها : اسكت عن الضوضاء التى فى الهواء ، وتكلم بالليالى حيث لا تكون أعشاش الخفافيش ، واسدد الخمس الكوى[٢] ليضىء مسكن العلة . واملأ الوعا طيبا ، وأفرغ الحوض المثلث من القلال الفارغة ، واحبس على باب الكلام ، وأمسك مع الحضرة اللجام الرخو لئلا تغضب ، فترى نظام الكواكب . ولاتؤكل الأسود الذنب ، ولا تجاوز الميزان ، ولا تَسُوطَنّ[٣] النار بالسِّكِّيْنَ ولا تجلس على المكيال ، ولا تشم التفاحة ، وأمت الحى تحى بموته . وكن قاتله بالسكين[٤] المزينة لوالديه . واحذر الأسود ذا الأربع . ومن جهة العلة كن أرنبا ، وعند الموت لاتكن نملة ، وعند ما تذكر دوران الحياة أمت الميت لتكون ذاكراً ، وكن صديق مفضض ، ولا تكن صديق شرطى ، ولا تكن مع أصدقائك قوساً ، ولا تنعس على أبواب أعدائك ، واثبت على ينبوع واحد متكئاً على يمينك ، وينبغى أن تعلم أنه ليس زمان من الأزمنة يفقد فيه زمان الربيع ، والفحص عن ثلاث سبل ؛ فإذا لم تجدها فارض بأن تنام لها نوم المستغرق ، واضرب الأترجة[٥] بالرمانة ، واقتل العقرب بالصوم ، وإن أحببت أن تكون ملكا فكن حمار وحش . وليست السبعة بأكمل من الواحد ، وبالاثنى عشر اقتن اثنى عشر ، وازرع بالأسود ، واحصد بالأبيض ، ولا تسلبن الإكليل

(١) الألغاز ، جمع لغز وهى : الطرق الملتوية الملتبسة .

(٢) يريد بالخمس الكوى : الحواس الخمس . ومسكن العلة : القلب .

(٣) يسوط : يخلط .

(٤) السكين : الحمار السريع و المراد : لكل إنسان عمله الذى يناسبه .

(٥) الأترجة : شجر من جنس الليمون ، يقال له أيضاً : الترنج .

ولا تهتكه ، ولا تقفن راضياً بعدمك للخير وأنت موجود ؛ ذلك لك فى أربعة وعشرين مكانا . وإن سألك سائل أن تعطيه من هذا الغذاء فميزه ، وإن كان مستحقاً للغذاء المرىء فأعطه . وإن احتاج إلى غذاء يمينك فاصنعه ، لأن اللون الذى يطلب كذلك من كمال الغذاء ، فهو للبالغين .

وقال : يكفى من تأجج النار نورها .

وقال له رجل : من أين لك أن هذا المشار إليه واحد ؟ فقال : إنى لأعلم أن الواحد بالإطلاق غير محتاج إلى الثانى ، فمتى فرضته قرينا للواحد كنت كواضع مالا يحتاج إليه ألبتة إلى جانب ما لا بد منه ألبتة .

وقال : الإنسان له مرتبة واحدة من جهة حده ، وثلاث مراتب من جهة هيئته .

وقال : للقلب آفتان : الغم والهم . فالغم يعرض منه النوم ، والهم يعرض منه السهر .

وقال : الحكمة إذا أقبلت خدمت الشهوات العقول . وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات .

وقال : لا تكرهوا أولادكم على آثاركم ، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

وقال : ينبغى أن تغتم بالحياة ، وتفرح بالموت ، لأنا نحيا لنموت ، ونموت لنحيا .

وقال : قلوب المغرقين فى المعرفة بالحقائق منابر الملائكة ، وبطون المتلذذين بالشهوات قبور الحيوانات الهالكة .

وقال : للحياة حدان ، أحدهما الأمل ، والثانى الأجل . فبالأول بقاؤها . وبالآخر فناؤها .

وقال : النفس الناطقة جوهر بسيط ذو سبع قوى يتحرك بها حركة مفردة ، وحركات مختلفة .

فأما حركتها المفردة: فإذا تحركت نحو ذاتها ونحو العقل. وأما حركاتها المختلفة: فإذا تحركت نحو الحواس الخمس .

واليونانيون بنوا ثلاثة أبيات على طوالع مقبولة .

أحدها : بيت بأنطاكية على جبلها ، وكانوا يعظمونه ويقربون القرابين فيه ، وقد خرب .

والثانى : من جملة الأهرام التى بمصر ، بيت كانت فيه أصنام تعبد ، وهى التى نهاهم سقراط عن عبادتها .

والثالث : بيت المقدس الذى بناه داود وأتمه سليمان عليهما السلام . ويقال إن سليمان هو الذى بناه ، والمجوس يقولون إن الضحاك بناه . وقد عظمه اليونانيون تعظيم أهل الكتاب إياه .

٧ — رأى أفلاطون الإلهى

أفلاطون [١] بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية ، وهو آخر المتقدمين الأوائل الأساطين ، معروف بالتوحيد والحكمة . ولد فى زمان أردشير بن دارا فى سنة ست عشرة من ملكه . وفى سنة ست وعشرين من ملكه كان حدثا متعلماً يتلمذ لسقراط . ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه ، وجلس على كرسيه .

وقد أخذ العلم من سقراط ، وطيماوس ، والغريبين : غريب أثينية ، وغريب الناطس وضم إليه العلوم الطبيعية والرياضية .

وحكى عنه قوم ممن شاهده وتلمذ له مثل أرسطوطاليس ، وطيماوس ، وثاوفرسطيس أنه قال : إن للعالم محدثاً مبدعا ، أزليا ، واجباً بذاته . عالماً بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية . كان فى الأزل ولم يكن فى الوجود رسم ولا طلل إلا مثالا عند البارى تعالى ، ربما يعبر عنه بالهيولى ، وربما يعبر عنه بالعنصر . ولعله يشير إلى صور المعلومات فى علمه تعالى .

---

(١) يرجح أنه ولد بين سنتى ٤٢٩ — ٤٢٧ ق.م .

قال: فأبدع العقل الأول ، وبتوسطه النفس الكلية . وقد انبعثت عن العقل انبعاث الصورة فى المرآة ، وبتوسطهما العنصر .

ويحكى عنه : أن الهيولى التى هى موضوع الصور الحسية غير ذلك العنصر .

ويحكى عنه : أنه أدرج الزمان فى المبادئ ، وهو الدهر ، وأثبت لكل موجود مشخص فى العالم الحسى ، مثالا غير مشخص فى العالم العقلى . ويسمى ذلك : المثل الأفلاطونية . فالمبادئ الأول بسائط . والمثل مبسوطات . والأشخاص مركبات . فالإنسان المركب المحسوس جزئى ذلك الإنسان المبسوط المعقول . وكذلك كل نوع من الحيوان والنبات والمعادن .

قال : والموجودات فى هذا العالم آثار الموجودات فى ذلك العالم ، ولابد لكل أثر من مؤثر يشابهه نوعا من المشابهة .

قال : ولما كان العقل الإنسانى من ذلك العالم أدرك من المحسوس مثالا منتزعا من المادة معقولا، يطابق المثال الذى فى عالم العقل بكليته، ويطابق الموجود الذى فى عالم الحس بجزئيته . ولولا ذلك لما كان لما يدركه العقل مطابقاً مقابلا من خارج . فما يكون مدركا لشىء يوافق إدراكه حقيقة المدرك .

قال : والعالم عالمان : عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية . وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية ، كالمرآة المجلوة التى تنطبع فيها صور المحسوسات فإن الصور فيها مثل الأشخاص . وكذلك العنصر فى ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها ، غير أن الفرق أن المنطبع فى المرآة الحسية صور خيالية يرى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس فى الحقيقة كذلك . وأن المتمثل فى المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هى موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولاتتحرك ، فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور فى المرآة إلى الأشخاص . فلها الوجود الدائم ، ولها الثبات القائم ، وهى تمايز فى حقائقها تمايز الأشخاص فى ذواتها .

قال : وإنما كانت هذه الصور موجودة كلية دائمة باقية ، لأن كل مبدع ظهرت

صورته فى حد الإبداع؛ فقد كانت صورته فى علم الأول الحق ، والصور عنده بلا نهاية ، ولو لم تكن الصور معه فى أزليته ، فى علمه لم تكن لتبقى . ولو لم تكن دائمة بدوامها لكانت تدثر بدثور الهيولى . ولو كانت تدثر مع دثور الهيولى لما كانت على رجاء ولا خوف . ولكن لما صارت الصور الحسية على رجاء وخوف استدل به على بقائها . وإنما تبقى إذا كانت لها صور عقلية فى ذلك العالم ترجو اللحوق بها ، وتخاف التخلف عنها .

قال : وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا ، وعقلا ومعقولا ، وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات ، وهى محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ، فيجب أن نشاهد بالعقل جميع المعقولات ، وهى غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ، فتكون مثلا عقلية .

ومما يثبته أفلاطون : موجودات محققة بهذا التقسيم !

قال : إنا نجد النفس تدرك أمور البسائط والمركبات ، ومن المركبات أنواعها وأشخاصها ، ومن البسائط ما هى هيولانية ، وهى التى تعرى عن الموضوع ، وهى رسوم الجزئيات ، مثل : النقطة ، والخط ، والسطح ، والجسم التعليمى .

قال : وهذه الأشياء أشياء موجودة بذواتها ، وكذلك توابع الجسم مفردة مثل : الحركة ، والزمان ، والمكان ، والأشكال ؛ فإنا نلحظها بأذهاننا بسائط مرة ، ومركبة مرة أخرى ، ولها حقائق فى ذواتها من غير حوامل ولا موضوعات . ومن البسائط ما ليست هى هيولانية مثل : الوجود ، والوحدة ، والجوهر . والعقل يدرك القسمين جميعاً متطابقين عالمين متقابلين : عالم العقل وفيه المثل العقلية التى تطابقها الأشخاص الحسية . وعالم الحس وفيه المتمثلات الحسية التى تطابقها المثل العقلية . فأعيان ذلك العالم آثار فى هذا العالم ، وأعيان هذا العالم آثار فى ذلك العالم ، وعليه وضع الفطرة والتقدير ، ولهذا الفصل شرح وتقرير .

وجماعة المشائين وأرسطوطاليس لا يخالفونه فى إثبات هذا المعنى الكلى ، إلا أنهم

يقولون : هو معنى فى العقل موجود فى الذهن . والـكلى من حيث هو كلى لا وجود له فى الخارج عن الذهن ، إذ لا يتصور أن يكون شىء واحد ينطبق على زيد ، وعلى عمرو ، وهو فى نفسه واحد .

وأفلاطون يقول ذلك المعنى الذى أثبته فى العقل يجب أن يكون له شىء يطابقه فى الخارج فينطبق عليه . وذلك هو المثال الذى فى العقل ، وهو جوهر لا عرض ، إذ تصور وجوده لا فى موضوع ، وهو متقدم على الأشخاص الجزئية تقدم العقل على الحس ، وهو تقدم ذاتى وشرفى معاً .

وتلك المثل هى مبادئ الموجودات الحسية ، منها بدأت ، وإليها تعود .

ويتفرع على ذلك أن النفوس الإنسانية التى هى متصلة بالأبدان اتصال تدبير وتصرف ، كانت موجودة قبل وجود الأبدان . وكان لها نحو من أنحاء الوجود العقلى ، وتمايز بعضها عن بعض تمايز الصور المجردة عن المـادة بعضها عن بعض . وخالفه فى ذلك تلميذه أرسطوطاليس ومن بعده من الحـكماء ، وقالوا : إن النفوس حدثت مع حدوث الأبدان .

وقد رأيت فى كلام أرسطوطاليس، كما ستأتى[1] حكايته،أنه ربما يميل إلى مذهب أفلاطون فى كون النفس موجودة قبل وجود الأبدان ، إلا أنَّ نقل المتأخرين ما قدمنا ذكره .

وخالفه أيضاً فى حدوث العالم : إن أفلاطون يحيل وجود حوادث لا أول لها ، لأنك إذا قلت حادث فقد أثبت سبق الأزلية لـكل واحد ، وما ثبت لـكل واحد يجب أن يثبت للـكل .

قال : وإن صورها لا بد وأن تـكون حادثة ، لـكن الـكلام فى هيولاها وعنصرها . فأثبت عنصراً قبل وجودها . فظن بعض العقلاء أنه حكم عليه بالأزلية والقدم . وهو إذ أثبت واجب الوجود لذاته ، وأطلق لفظ الإبداع على العنصر ، فقد

---

(١) راجع المسألة الخامسة عند أرسطوطاليس .

أخرجه عن الأزلية بذاته ، بل يكون وجوده بوجود واجب الوجود كسائر المبادئ التى ليست زمانية ولا وجودها ولا حدوثها حدوث زمانى . فالبسائط حدوثها إبداعى غير زمانى . والمركبات حدوثها بوسائط البسائط حدوث زمانى .

وقال : إن العالم لا يفسد فساداً كليا . ويحكى عنه فى سؤاله عن طيماوس :

ما الشىء الذى لا حدوث له ؟ وما الشىء الحادث وليس بباق ؟ وما الشىء الموجود بالفعل وهو أبداً بحال واحدة ؟ وإنما يعنى بالأول : وجود البارى تعالى . وبالثانى : وجود الكائنات الفاسدات التى لا تثبت على حالة واحدة . وبالثالث : وجود المبادئ والبسائط التى لا تتغير .

ومن أسئلته : ما الشىء الكائن ولا وجود له ؟ وما الشىء الموجود ولا كون له؟

وإنما يعنى بالأول الحركة المكانية والزمان ، لأنه لم يؤهله لاسم الوجود . ويعنى بالثانى الجواهر العقلية التى هى فوق الزمان والحركة والطبيعة وحق لها اسم الوجود ، إذ لها السرمد والبقاء والدهر .

ويحكى عنه أنه قال : إن الأسطقسات لم تزل تتحرك حركة مشوهة مضطربة غير ذات نظم ، وإن البارى تعالى نظمها ورتبها فكان هذا العالم . وربما عبر عن الأسطقسات بالأجزاء اللطيفة ، وقيل إنه عنى بها الهيولى الأزلية العارية عن الصور حتى اتصلت الصور والأشكال بها فترتبت وانتظمت .

ورأيت فى (راموز) له أنه قال : إن النفوس كانت فى عالم الذكر مغتبطة مبتهجة بعالمها وما فيه من الروح والبهجة والسرور ، فأهبطت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات وتستفيد ما ليس لها بذاتها بواسطة القوى الحسية . فسقطت رياشها قبل الهبوط ، فهبطت حتى يستوى ريشها وتطير إلى عالمها بأجنحة مستفادة من هذا العالم .

وحكى أرسطوطاليس عنه أنه أثبت المبادئ خمسة أجناس : الجوهر ، والاتفاق ، والاختلاف ، والحركة ، والسكون . ثم فسر كلامه فقال : أما الجوهر فنعنى به الوجود .

وأما الاتفاق ؛ فلأن الأشياء متفقة بأنها من الله تعالى . وأما الاختلاف ؛ فلأنها مختلفة في صورها . وأما الحركة ؛ فلأن لكل شيء من الأشياء فعلا خاصاً .

وذلك نوع من الحركة ، لا حركة النقلة . وإذا تحرك نحو الفعل وفعل ؛ فله سكون بعد ذلك لا محالة . قال : وأثبت البخت أيضاً مبدأ سادساً وهو نطق عقلي ، وناموس لطبيعة الكل . وقال جرجيس : إنه قوة روحانية مدبرة للكل . وبعض الناس يسميه جداً ، وزعم الرواقيون أنه نظام لعلل الأشياء ، وللأشياء المعلولة .

وزعم بعضهم أن علل الأشياء ثلاثة : المشترى ، والبيعة ، والبخت .

وقال أفلاطون : إن في العالم طبيعة عامة تجمع الكل ، وفي كل واحد من المركبات طبيعة خاصة ، وحد الطبيعة بأنها مبدأ الحركة والسكون في الأشياء ، أي مبدأ التغير ، وهي قوة سارية في الموجودات كلها تكون السكنات والحركات بها ، فطبيعة الكل محركة للكل ، والمحرك الأول يجب أن يكون ساكناً ، وإلا تسلسل القول فيه إلى ما لا نهاية له .

وحكى أرسطوطاليس في مقالة الألف الكبرى من كتاب « ما بعد الطبيعة » أن أفلاطون كان يختلف في حداثته إلى أقراطيلوس ، فكتب عنه ما روى عن هرقليطس : أن جميع الأشياء المحسوسة فاسدة ، وأن العلم لا يحيط بها ، ثم اختلف بعده إلى سقراط ، وكان من مذهبه طلب الحدود دون النظر في طبائع المحسوسات وغيرها ، فظن أفلاطون أن نظر سقراط في غير الأشياء المحسوسة ، لأن الحدود ليست للمحسوسات ، لأنها إنما تقع على أشياء دائمة كلية ، أعني : الأجناس ، والأنواع ، فعند ذلك سمى أفلاطون الأشياء الكلية صوراً ، لأنها واحدة ، ورأى أن المحسوسات لا تكون إلا بمشاركة الصور . إذن كانت الصور رسوما ومثالات لها ، متقدمة عليها ، وإنما وضع سقراط الحدود مطلقاً ، لا باعتبار المحسوس وغير المحسوس . وأفلاطون ظن أنه وضعها لغير المحسوسات ، فأثبتها مثلا عامة .

وقال أفلاطون فى كتاب « النواميس » : إن الأشياء التى لا ينبغى للإنسان أن يجهلها ؛ منها : أن له صانعاً ، وأن صانعه يعلم أفعاله . وذكر أن الله تعالى إنما يعرف بالسلب ؛ أى لا شبيه له ولا مثال ، وأنه أبدع العالم من لا نظام إلى نظام ، وأن كل مركب فهو إلى الانحلال ، وأنه لم يسبق العالم زمان ، ولم يبدع عن شىء .

اختلاف الأوائل فى الإبداع ، والمبدع ، والإرادة

ثم إن الأوائل اختلفوا فى الإبداع ، والمبدع : هل هما عبارتان عن معبر واحد ؟ أم للإبداع نسبة إلى المبدِع ونسبة إلى المبدَع ؟ وكذلك الإرادة : إنها المراد ، أم المريد ؟ على حسب اختلاف متكلمى الإسلام فى الخلق ، والمخلوق ، والإرادة : إنها خلق أم مخلوقة ؟ أم صفة فى الخالق ؟

قال أنكساغورس بمذهب فلوطرخيس : إن الإرادة ليست هى غير المراد ، ولا غير المريد ، وكذلك الفعل ؛ لأنهما لا صورة لهما ذاتية ، وإنما يقومان بغيرهما . فالإرادة مرة تكون مستبطنة فى المريد ، ومرة ظاهرة فى المراد ، وكذلك الفعل .

وأما أفلاطون وأرسطوطاليس فلا يقبلان هذا القول ، وقالا : إن صورة الإرادة وصورة الفعل قائمتان ، وهما أبسط من صورة المراد ؛ كالقاطع للشىء هو المؤثر ، وأثره فى الشىء ، والمقطوع هو المؤثر فيه القابل للأثر .

فالأثر ليس هو المؤثر فيه ، وإلا انعكس حتى يكون المؤثر هو الأثر ، والمؤثر فيه هو الأثر ، وهو محال ، فصورة المبدع فاعلة ، وصورة المبدَع مفعولة ، وصورة الإبداع متوسطة بين الفاعل والمفعول .

فللفعل صورة ، وأثر ، فصورته من جهة المبدع ، وأثره من جهة المبدع . والصورة من جهة المبدع فى حق البارى تعالى ليست زائدة على ذاته حتى يقال صورة إرادة ، وصورة بارى مفترقتان ، بل هى حقيقة واحدة .

وأما برمنيدس الأصغر فإنه أجاز قولهم فى الإرادة ولم يجزه فى الفعل ، وقال : إن الإرادة تكون بلا توسط من البارى تعالى ، فجائز ما وصفوه . وأما الفعل فيكون بتوسط منه ، وليس ماهو بلا توسط كالذى يكون بتوسط ، بل الفعل قط لن يتحقق إلا بتوسط الإرادة ، ولا ينعكس .

وأما الأولون مثل تاليس ، وأنبدقليس فقد قالوا : الإرادة من جهة المبدِع هى المبدَع ومن جهة المبدَع هى المبدع . وفسروا هذا بأن الإرادة من جهة الصورة هى المبدع ، ومن جهة الأثر هى المبدَع . ولا يجوز أن يقال إنها من جهة الصورة هى المبدَع ، لأن صورة الإرادة عند المبدَع قبل أن يبدع ، فغير جائز أن تكون ذات صورة الشىء الفاعل هى المفعول ، بل من جهة أثر ذات الصورة هى المفعول . ومذهب أفلاطون وأرسطوطاليس هذا بعينه ، وفى الفصل انغلاق .

الفصل الثانى

الحكماء الأصول

الحكماء الأصول؛ الذين هم من القدماء ،إلا أنا لم نجد لهم رأيا فى المسائل المذكورة غير حكم مرسلة عملية أوردناها لئلا تشذ مذاهبهم عن القسمة ، ولا يخلو الكتاب عن تلك الفوائد .

فمنهم الشعراء : الذين يستدلون بشعرهم . وليس شعرهم على وزن وقافية . ولا الوزن والقافية ركن فى الشعر عندهم ؛ بل الركن فى الشعر عندهم إيراد المقدمات المخيلة فحسب . ثم قد يكون الوزن والقافية معينين فى التخييل . فإن كانت المقدمة التى نوردها فى القياس الشعرى مخيلة فقط تمحض القياس شعريا ، وإن انضم إليها قول إقناعى تركبت المقدمة من معنيين : شعرى وإقناعى ، وإن كان الضميم إليه قولا يقينيا تركبت المقدمة من شعرى وبرهانى .

ومنهم النساك : ونسكهم وعبادتهم عقلية لا شرعية . ويقتصر ذلك على تهذيب النفس عن الأخلاق الذميمة ، وسياسة المدينة الفاضلة التى هى الجنة الإنسانية .

وربما وجدنا لبعضهم رأياً فى بعض المسائل المذكورة ، أعنى : المبدع والإبداع ، وأنه عالم ، وأن أول ما أبدعه ماذا ؟ وأن المبادئ كم هى ؟ وأن المعاد كيف يكون ؟ وصاحب الرأى الموافق للأوائل المذكورين أوردنا اسمه ، وذكرنا مقالته ، وإن كانت كالمكررة. نبتدئ بهم ، ونجعل فلوطرخيس مبدأ آخر .

١ — رأى فُلُوطَرْخِيس

قيل إنه أول من شهر بالفلسفة ، ونسبت إليه الحكمة . تفلسف بمصر ، ثم سار إلى ملطية وأقام بها ، وقد يعد من الأساطين .

قال : إن البارى تعالى لم يزل بالأزلية التى هى أزلية الأزليات ، وهو مبدِع فقط . وكل مبدَع ظهرت صورته فى حد الإبداع فقد كانت صورته عنده ؛ أى كانت معلومة له. فالصور عنده بلا نهاية ؛ أى المعلومات بلا نهاية .

قال: ولو لم تكن الصور عنده ومعه لما كان إبداع، ولا بقاء للمبدع . ولو لم تكن باقية دائمة لكانت تدثر بدثور الهيولى ، ولو كان ذلك كذلك لارتفع الرجاء والخوف . ولكن لما كانت الصور باقية دائمة ، ولها الرجاء والخوف : كان ذلك دليلا على أنها لاتدثر. ولما عدل عنها الدثور ولم يكن له قوة عليها: كان ذلك دليلا على أن الصورة أزلية فى علمه تعالى.

قال : ولا وجه إلا القول بأحد الأقوال : إما أن يقال: البارى تعالى لا يعلم شيئاً ألبتة ، وهذا من المحال الشنيع . وإما أن يقال: يعلم بعض الصور دون بعض . وهذا من النقص الذى لا يليق بكمال الجلال . وإما أن يقال : يعلم جميع الصور والمعلومات ، وهذا هو الرأى الصحيح .

ثم قال : إن أصل المركبات هو الماء؛ فإنه إذا تخلخل صافياً وجد ناراً ، وإذا تخلخل وفيه بعض الثقل صار هواء . وإذا تكاثف تكاثفاً مبسوطاً بالغاً صار أرضا .

وحكى فلوطرخيس أن هرقليطس زعم أن الأشياء إنما انتظمت بالبخت ، وجوهر البخت هو نطق عقلي ينفذ فى الجوهر الكلى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

٢ — رأى أكسنوفانس

كان يقول : إن المبدع الأول هو آنية أزلية دائمة ديمومة القدم ، لا تدرك بنوع صفة منطقية ولا عقلية ؛ مبدع صور كل صفة ، وكل نعت نطق وعقلى . فإذا كان هذا هكذا ، فقولنا : إن صور ما فى هذا العالم المبدعة لم تكن عنده أو كانت ، أو كيف أبدع ؟ ولم أبدع ؟ محال ؛ لأن العقل مبدَع ، والمبدَع مسبوق ، والمسبوق لا يدرك السابق أبدا . فلا يجوز أن يصف المسبوق السابق . بل نقول : إن المبدع أبدع كيفما أحب ، وكيفما شاء ، فهوهو ، ولا شىء معه . قال : وهذه الكلمة ، أعنى : هو ولا شىء بسيطا ولا مركبا معه . وهو يجمع كل ما نطلبه من العلم ، لأنك إذا قلت : ولا شىء معه ، فقد نفيت عنه أزلية الصورة والهيولى ، وكل مبدع من صورة وهيولى ، وكل مبدع من صورة فقط .

ومن قال : إن الصور أزلية مع آنيته فليس هو فقط ، بل هو وأشياء كثيرة . فليس هو مبدع للصور ؛ بل كل صورة إنما أظهرت ذاتها . فعند إظهارها ذاتها ظهرت هذه العوالم . وهذا أشنع ما يكون من القول .

وكان تيرس والقادميون يقولان : ليست أوائل ألبتة ، ولا معقول قبل المحسوس بحال ، بل مثل بدعة الأشياء مثل يفرخ[1] من ذاته بلا حدث ولا فعل ظهر . فلا يزال يخرجه من القوة إلى الفعل حتى يوجد ، فيكمل ، فنحسه وندركه . وليس شىء معقول ألبتة . والعالم دائم لا يزول ، ولا يفنى ، فإن المبدع لا يجوز أن يفعل فعلاً يدثر إلا وهو داثر مع دثور فعله ، وذلك محال .

---

(١) أفرخ الطائر : صار ذا فراخ .

٣ — رأى زِينُون الأكبر

زينون الأكبر ابن ماوس من أهل قنطس . كان يقول : إن المبدع الأول كان فى علمه صورة إبداع كل جوهر ، وصورة دثور كل جوهر . فإن علمه غير متناه . والصور التى فيه من حيث الإبداع غير متناهية . وكذلك صور الدثور غير متناهية . فالعوالم تتجدد فى كل حين وفى كل دهر ؛ فما كان منها مشاكلا لنا أدركنا حدود وجوده ودثوره بالحواس والعقل ، وما كان غير مشاكل لنا لم ندركه . إلا أنه ذكر وجه التجدد فقال : إن الموجودات باقية دائرة : أما بقاؤها فبتجدد صورها ، وأما دثورها فبدثور الصورة الأولى عند تجدد الأخرى . وذكر أن الدثور قد يلزم الصورة والهيولى معاً .

وقال أيضاً : إن الشمس والقمر والكواكب تستمد القوة من جوهر السماء ؛ فإذا تغيرت السماء تغيرت النجوم أيضاً ، ثم هذه الصور كلها : بقاؤها ، ودثورها : فى علم البارى تعالى ، والعلم يقتضى بقاءها دائما . وكذلك الحكمة تقتضى ذلك ؛ لأن بقاءها على هذه الحال أفضل . والبارى تعالى قادر على أن يفنى العوالم يوماً ما إن أراد .

وهذا الرأى قد مال إليه الحكماء المنطقيون الجدليون دون الإلهيين .

وحكى فلوطرخيس أن زينون كان يزعم أن الأصول هى الله عز وجل ، والعنصر فقط ؛ فالله هو العلة الفاعلة ، والعنصر هو المنفعل .

حِكَمه — قال : أكثروا من الإخوان ؛ فإن بقاء النفوس ببقاء الإخوان ، كما أن شفاء الأبدان بالأدوية .

وقيل : رأى زينون فتى على شاطئ البحر محزونا يتلهف على الدنيا فقال له : يافتى ! مايلهفك على الدنيا ؟ لو كنت فى غاية الغنى وأنت راكب لجة البحر قد انكسرت السفينة وأشرفت على الغرق : كانت غاية مطلوبك النجاة وتفوت كل ما فى يدك ؟ قال : نعم ،

قال: لو كنت ملكا على الدنيا وأحاط بك من يريد قتلك : كان مرادك النجاة من يده وتفوت كل ملكك ؟ قال : نعم ، قال : فأنت الغنى ، وأنت الملك الآن ؛ فتسلى الفتى .

وقال لتلميذه : كن بما تأتى من الخير مسروراً ، وبما تجتنب من الشر محبورا .

وقيل له : أى الملوك أفضل : ملك اليونانيين أم ملك الفرس ؟ قال : من ملك غضبه وشهوته .

وسئل بعد أن هرم : ماحالك ؟ قال : هو ذا أموت قليلا قليلا على مهل .

وقيل له : إذا مت ، من يدفنك ؟ قال : من يؤذيه نتن جيفتى .

وسئل : ما الذى يهرم ؟ قال : الغضب والحسد ، وأبلغ منهما الغم .

وقال : الفلك تحت تدبيرى .

ونعى إليه ابنه فقال : ما ذهب ذلك علىّ ؛ إنما ولدت ولداً يموت ، وما ولدت ولداً لا يموت .

وقال : لاتخف موت البدن ، ولكن يجب عليك أن تخاف موت النفس . فقيل له : لم قلت خف موت النفس ، والنفس الناطقة لا تموت ؟ فقال : إذا انتقلت النفس الناطقة من حد النطق إلى حد البهيمية — وإن كان جوهرها لا يبطل — فقد ماتت من العيش العقلى .

وقال : أعط الحق من نفسك ؛ فإن الحق يخصمك إن لم تعطه حقه .

وقال : محبة المال وتد الشر ، لأن سائر الآفات تتعلق بها ، ومحبة الشهوات وتد العيوب ؛ لأن سائر العيوب متعلقة بها .

وقال : أحسن مجاورة النعم فتنعم بها ، ولا تسئ بها فتسىء بك .

وقال : إذا أدركتْ الدنيا الهارب منها جرحته ، وإذا أدركها الطالب لها قتلته .

وقيل له ، وكان لا يقتنى إلا قوت يومه : إن الملك يبغضك . فقال : وهل يحب الملك من هو أغنى منه ؟

وسئل : بأى شىء يخالف الناس فى هذا الزمان البهائم ؟ قال : بالشرور .

قال : وما رأينا العقل قط إلا خادماً للجهل . وفى رواية للسجزى : إلا خادماً للجَدّ ، والفرق بينهما ظاهر ؛ فإن الطبيعة ولوازمها إذا كانت مستولية على العقل : استخدمه الجهل ، وإذا كان ما قسم للإنسان من الخير والشر فوق تدبيره العقلى : كان الجد مستخدما للعقل ، ويعظم جد الإنسان مايعقل ، وليس يعظم العقل ما يجد ؛ ولهذا خيف على صاحب الجد ما لم يخف على صاحب العقل . والجد : أصم أخرس ، لا يفقه ، ولا ينقه ، وإنما هو : ريح تهب وبرق يلمع ، ونار تلوح ، وصحو يعرض ، وحلم يمتع . وهذا اللفظ أولى فإنه عمم الحكم فقال : ما رأينا العقل قط ، وقد يعرض للعقل أن يرى ولا يستخدمه الجهل ، وذلك هو الأكثر .

وقال زينون : فى الجرادة خلقة سبعة جبابرة : رأسها رأس فرس ، وعنقها عنق ثور ، وصدرها صدر أسد ، وجناحاها جناحا نسر ، ورجلاها رجلا جمل ، وبطنها بطن عقرب ، وذنبها ذنب حية . هكذا ذكره زينون .

٤ — رأى دِيمُقْرِيطِيس وشيعته

كان يقول فى المبدع الأول: إنه ليس هو العنصر فقط ، ولا العقل فقط ؛ بل الأخلاط الأربعة وهى الأسطقسات : أوائل الموجودات كلها ، ومنها أبدعت الأشياء البسيطة كلها دفعة واحدة . وأما المركبة فإنها كونت دائمة داثرة ، إلا أن ديمومتها بنوع ، ودثورها بنوع . ثم إن العالم بجملته باق غير داثر ؛ لأنه ذكر أن هذا العالم متصل بذلك العالم الأعلى، كما أن عناصر هذه الأشياء متصلة بلطيف أرواحها الساكنة فيها . والعناصر وإن كانت تدثر فى الظاهر، فإن صفوها من الروح البسيط الذى فيها . فإذا كان كذلك فليس يدثر إلا من جهة الحواس . فأما من نحو العقل فإنه ليس يدثر ؛ فلا يدثر هذا العالم إذا كان صفوها فيه ، وصفوه متصل بالعوالم البسيطة .

وإنما شنع عليه الحكماء من جهة قوله : إن أول مبدع هو العناصر ، وبعدها أبدعت البسائط الروحانية ؛ فهو يرتقى من الأسفل إلى الأعلى ، ومن الأكدر إلى الأصفى .

* * *

ومن شيعتة : فيلوخوس ، إلا أنه خالفه فى المبدع الأول ، وقال بقول سائر الحكماء غير أنه قال : إن المبدع الأول هو مبدع الصورة فقط دون الهيولى ؛ فإنها لم تزل مع المبدع .

فأنكروا عليه وقالوا : إن الهيولى لو كانت أزلية قديمة : لما قبلت الصور ، ولما تغيرت من حال إلى حال ، ولما قبلت فعل غيرها ، إذ الأزلى لا يتغير . وهذا الرأى مما كان يعزى إلى أفلاطون الإلهى ، والرأى فى نفسه مزيف ، والعزوة إليه غير صحيحة .

ومما نقل عن ديمقريطيس وزينون الأكبر ، وفيثاغورس أنهم كانوا يقولون : إن البارى تعالى متحرك بحركة فوق هذه الحركة الزمانية . وقد أشرنا إلى المذهبين ، وبينا المراد بإضافة الحركة والسكون إلى الله تعالى ، ونزيده شرحا من احتجاج كل فريق على صاحبه .

قال أصحاب السكون : إن الحركة لا تكون أبداً إلا ضد السكون . والحركة لا تكون إلا بنوع زمان ؛ إما ماض ، وإما مستقبل ، والحركة لا تكون إلا مكانية ؛ إما منتقلة وإما مستوية ، ومن المستوية تكون الحركة المستقيمة ، والحركة المعوجة . والمكانية تكون مع الزمان ؛ فلو كان البارى تعالى متحركا لكان داخلا فى الدهر والزمان .

قال أصحاب الحركة : إن حركته أعلى من جميع ما ذكرتموه ، وهو مبدع الدهر والمكان ، وإبداعه ذلك هو الذى يعنى بالحركة ، والله أعلم .

٥ — رأى فلاسفة أقاديما[1]

كانوا يقولون : إن كل مركب ينحل ، ولا يجوز أن يكون مركبا من جوهرين متفقين فى جميع الجهات ، وإلا فليس بمركب ؛ فإذا كان هذا هكذا ، فلا محالة أنه إذا انحل المركب رحل كل جوهر فاتصل بالأصل الذى كان منه ؛ فما كان منها بسيطا روحانيا لحِق بعالمه الروحانى البسيط ، والعالم الروحانى باق غير داثر ، وما كان منها جاسيا[2] غليظاً لحق بعالمه أيضاً ، وكل جاس إذا انحل فإنما يرجع حتى يصل إلى ألطف من كل لطيف ؛ فإذا لم يبق من اللطافة شىء اتحد باللطيف الأول المتحد به ، فيكونان متحدين إلى الأبد ، وإذا اتحدت الأواخر بالأوائل ، وكان الأول هو أول مبدع ليس بينه وبين مبدعه جوهر آخر متوسط ، فلا محالة أن ذلك المبدع الأول متعلق بنور مبدعه ، فيبقى خالداً دهر الدهور .

وهذا الفصل أيضاً قد نقل عنهم وهو يتعلق بالمعاد لا بالمبدإ ، وهؤلاء يسمون مشائى أقاديما ، وأما المشاءون المطلق؛ فهم أهل لوقيون[3]،وكان أفلاطون يلقن الحكمة ماشيا تعظيما لها ، وتابعه على ذلك أرسطوطاليس ، ويسمى هو وأصحابه المشائين . وأصحاب الرواق هم أهل المظال ، وكان لأفلاطون تعليمان : تعليم كليس ؛ وهو الروحانى الذى لا يدرك بالبصر ولكن بالفكر اللطيف ، وتعليم كأيس ؛ وهو الهيولانيات ، والله الموفق للصواب .

٦ — رأى هِرَقْلَ الحكيم

كان يقول : إن البارى تعالى هو النور الحق الذى لا يدرك من جهة عقولنا ؛ لأنها أبدعت من ذلك النور الأول الحق ، وهو اسم الله حقا وهو اسم الله باليونانية حقاً .

---

(١) هى الأكاديمية .　　(٢) جاسيا : صلبا .

(٣) لوقيون : ملعب رياضى فى أثينا .

إنها تدل عليه ، إنه مبدع الكل : وهذا الاسم عندهم شريف جداً .

وكان يقول : إن بدء الخلق ، وأول شيء أبدع ، والذى هو أول لهذه العوالم ، هو المحبة والمنازعة . ووافق فى هذا الرأى أنبادقليس حيث قال : الأول الذى أبدع هو المحبة والغلبة .

وقال هرقل : السماء كرة متحركة من ذاتها ، والأرض مستديرة ساكنة جامدة بذاتها . والشمس حلت كل ما فيها من الرطوبة فاجتمعت فيها . فصار البحر ، والذى حجرت الشمس ونفذت فيه حتى لم تذر فيه شيئاً من الرطوبة صار منه : الحصى ، والحجارة ، والجبل . وما لم تنفذ فيه الشمس أكثر ، ولم تنزع عنه الرطوبة كلها ، فهو التراب .

وكان يقول : إن السماء فى النشأة الأخرى تصير بلا كواكب ، لأن الكواكب تهبط سفلا حتى تحيط بالأرض وتلتهب ، فيصير متصلا بعضها ببعض ، حتى تكون كالدائرة حول الأرض ؛ وإنما يهبط منها ما كان من أجزائها ناراً محضة ، ويصعد منها ما كان نوراً محضاً ، فتبقى النفوس الشريرة الدنسة الخبيثة فى هذا العالم الذى أحاط به النار إلى الأبد فى عقاب السرمد . وتصعد النفوس الشريفة الخالصة الطيبة إلى العالم الذى تمحض نوراً وبهاء وحسنا فى ثواب السرمد . وهناك : الصور الحسان لذّات للبصر . والألحان الشجية لذات للسمع ؛ ولأنها أبدعت بلا توسط مادة وتركب أسطقسات ، فهى جواهر شريفة روحانية نورانية . وقال : إن البارى تعالى يمسح تلك الأنفس فى كل دهر مسحة فيتجلى لها حتى تنظر إلى نوره المحض الخارج من جوهره الحق ، فحينئذ يشتد عشقها وشوقها ونورها ومجدها . فلا تزال كذلك دائما أبد الأبد .

٧ — رأى أبِيقُورُس

خالف الأوائل فى الأوائل . قال : المبادئ اثنان : الخلاء ، والصورة . أما الخلاء فمكان فارغ . وأما الصورة فهى فوق المكان والخلاء . ومنها أبدعت الموجودات وكل ما كون منها فإنه ينحل إليها . فمنها المبدأ ، وإليها المعاد .

وربما يقول : الكل يفسد ، وليس بعد الفراق حساب ولا قضاء ولا مكافأة ولا جزاء ، بل كلها تضمحل وتدثر . والإنسان كالحيوان مرسل مهمل فى هذا العالم .

والحالات التى ترد على الأنفس فى هذا العالم كلها من تلقائها على قدر حركاتها وأفاعيلها ؛ فإن فعلت خيراً وحسناً فيرد عليها سرور وفرح ، وإن فعلت شراً وقبيحاً فيرد عليها حزن وترح . وإنما سرور كل نفس بالأنفس الأخرى ، وكذا حزنها مع الأنفس الأخرى بقدر ما يظهر لها من أفاعيلها .

وتبعه جماعة من التناسخية على هذا الرأى .

٨ — حكم سُولُون الشاعر

وكان عند الفلاسفة من الأنبياء العظام بعد هرمس وقبل سقراط ، وأجمعوا على تقديمه والقول بفضائله .

قال سولون لتلميذه : تزود من الخير وأنت مقبل ، خير لك من أن تتزود منه وأنت مدبر .

وقال : من فعل خيراً فليجتنب ما خالفه ، وإلا دعى شريراً .

وقال : إن أمور الدنيا : حق ، وقضاء ؛ فمن أسلف فليقض ، ومن قضى فقد وفى .

وقال : إذا عرضت لك فكرة سوء فادفعها عن نفسك ، ولا ترجع باللائمة لكن لُم رأيك بما أحدث عليك .

وقال : إن فعل الجاهل فى خطابه أن يذم غيره ، وفعل طالب الأدب أن يذم نفسه ، وفعل الأديب أن لا يذم نفسه ولا غيره .

وقال : إذا انكب الدّن ، وأريق الشراب ، وانكسر الإناء ، فلا تغتم ، بل قل : كما أن الأرباح لا تكون إلا فيما يباع ويشترى ، كذلك الخسرانات لا تكون إلا فى الموجودات . فانفِ الغم والخسارة عنك ، فإن لكل ثمنا ، وليس يجىء بالمجان .

وسئل : أيما أحمد فى الصِّبا : الحياء أم الخوف ؟ قال : الحياء ، لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على المِقَةِ[1] والشهوة .

وقال لابنه : دع المزاح ، فإن المزاح لقاح الضغائن .

وسأله رجل فقال : هل ترى أن أتزوج أم أدع ؟ قال : أى الأمرين فعلت ندمت عليه .

وسئل : أى شىء أصعب على الإنسان ؟ قال : أن يعرف عيب نفسه ، وأن يمسك عما لا ينبغى أن يتكلم به .

ورأى رجلا عثر فقال له : لأن تعثر برجلك خير من أن تعثر بلسانك .

وسئل : ما الكرم ؟ فقال : النزاهة عن المساوئ .

وسئل : ما الحياة ؟ فقال : التمسك بأمر الله تعالى .

وسئل : ما النوم ؟ فقال : النوم موتة خفيفة ، والموت نومة طويلة .

وقال : ليكن اختيارك من الأشياء حديثها ، ومن الإخوان أقدمهم .

وقال : أنفع العلم ما أصابته الفكرة ، وأقله نفعا ما قلته بلسانك .

وقال : ينبغى أن يكون المرء حَسنَ الشكل فى صغره ، وعفيفا عند إدراكه ، وعدلا فى شبابه ، وذا رأى فى كهولته ، وحافظا للستر عند الفناء ، حتى لا تلحقه الندامة .

---

(١) المقة : المحبة .

وقال : ينبغى للشاب أن يستعد لشيخوخته مثل ما يستعد الإنسان للشتاء من البرد الذى يهجم عليه .

وقال : يا بنى : احفظ الأمانة تحفظك ، وصنها حتى تصان .

وقال : جوعوا إلى الحكمة ، واعطشوا إلى عبادة الله تعالى قبل أن يأتيكم المانع منهما .

وقال لتلامذته : لا تكرموا الجاهل فيستخف بكم ، ولا تتصلوا بالأشرار فتعدوا فيهم ، ولا تعتمدوا الغنى إن كنتم تلامذة الصدق ، ولا تهملوا أمر أنفسكم فى أيامكم ولياليكم ، ولا تستخفوا بالمساكين فى جميع أوقاتكم .

وكتب إليه بعض الحكماء يستوصفه أمر عالمى العقل والحس فقال : أما عالم العقل فدار ثبات وثواب . وأما عالم الحس فدار بوار وغرور .

وسئل : ما فضل علمك على علم غيرك ؟ فقال : معرفتى بأن علمى قليل .

وقال : أخلاق محمودة وجدتها فى الناس ؛ إلا أنها إنما توجد فى قليل : صديق يحب صديقه غائباً كمحبته حاضراً ، وكريم يكرم الفقراء كما يكرم الأغنياء ، ومقر بعيوبه إذا ذكرت ، وذاكر يوم نعيمه فى يوم بؤسه ، ويوم بؤسه فى يوم نعيمه ، وحافظ لسانه عند غضبه ، وآمر بالمعروف دائما .

٩ — حكم أوميروس الشاعر

وهو من كبار القدماء ، الذى يجريه أفلاطون وأرسطوطاليس فى أعلى المراتب ، ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ، ومتانة الحكمة ، وجودة الرأى ، وجزالة اللفظ ، فمن ذلك قوله : لا خير فى كثرة الرؤساء ، وهذه كلمة وجيزة تحتها معان شريفة ؛ لما فى كثرة الرؤساء من الاختلاف الذى يأتى على حكمة الرئاسة بالإبطال ، ويستدل بها أيضاً فى التوحيد لما فى كثرة الآلهة من المخالفات التى تكر

على حقيقة الإلهية بالإفساد . وفى الحكمة : لو كان أهل بلد كلهم رؤساء لما كان رئيس ألبتة . ولو كان أهل بلد كلهم رعية لما كانت رعية ألبتة .

ومن حكمه : قال : إنى لأعجب من الناس ! إذ كان يمكنهم الاقتداء بالله تعالى فيدَعون ذلك إلى الاقتداء بالبهائم ! قال له تلميذه : لعل هذا إنما يكون لأنهم قد رأوا أنهم يموتون كما تموت البهائم ؟ فقال له : بهذا السبب يكثر تعجبى منهم ! من قبل أنهم يحسون بأنهم لابسون بدناً ميتاً ولا يحسبون أن فى ذلك البدن نفساً غير ميتة .

وقال: من يعلم أن الحياة لنا مستعبدة، والموت معتق مطلق ؛ آثر الموت على الحياة .

وقال : العقل نحوان : طبيعى وتجريبى ؛ وهما مثل الماء والأرض . وكما أن النار تذيب كل صامت وتخلصه وتمكن من العمل فيه ، كذلك العقل يذيب الأمور ويخلصها ويفصلها ويعدها للعمل . ومن لم يكن لهذين النحوين فيه موضع فإن خير أموره له قصر العمر .

وقال : إن الإنسان الخير أفضل من جميع ما على الأرض . والإنسان الشرير أخس وأوضع من جميع ما على الأرض .

وقال : لِنْ تَنبُـلْ ، واحلم تعز ، ولا تـكن معجباً فتُمتَهَن ، واقهر شهوتك فإن الفقير من انحط إلى شهواته .

وقال : الدنيا دار تجارة ، والويل لمن تزوّد عنها بالخسارة .

وقال : الأمراض ثلاثة أشياء : الزيادة ، والنقصان فى الطبائع الأربع ، وما تهيجه الأحزان . فشفاء الزائد والناقص فى الطبائع : الأدوية . وشفاء ما تهيجه الأحزان : كلام الحكماء والإخوان .

وقال : العمى خير من الجهل ، لأن أصعب ما يخاف من العمى التهور فى بئر ينهد منه الجسد ، والجهل يتوقع منه هلاك الأبد .

وقال : مقدمة المحمودات الحياء ، ومقطمة المذمومات القحة .

وقال إيراقليطس : إن أوميروس الشاعر لما رأى تضاد الموجودات دون فلك القمر قال : ياليته هلك التضاد من هذا العالم ومن الناس والسادة ، يعنى النجوم واختلاف طبائعها . وأراد بذلك أن يبطل التضاد والاختلاف حتى يكون هذا العالم المتحرك المنتقل داخلا فى العالم الساكن الدائم الباقى .

ومن مذهبه : أن بهرام ، يعنى الريح ، واقع الزهرة فتولدت من بينهما طبيعة هذا العالم .

وقال : إن الزهرة علة التوحيد والاجتماع . وبهرام علة التفرق والاختلاف . والتوحد ضد التفرق . فلذلك صارت الطبيعة ضداً : تركب وتنقص ، وتوحد وتفرق .

وقال : الحظ شىء أظهره العقل بوساطة العلم ، فلما قابل النفس عشقته بالعنصر . هذه حكمه .

وأما مقطعات أشعاره فمنها . قال : ينبغى للإنسان أن يفهم الأمور الإنسانية . إن الأدب للإنسان ذخر لا يسلب . ارفع من عمرك ما يحزنك . إن أمور العالم تعلمك العلم . إن كنت ميتاً فلا تحقر عداوة من لا يموت . كل ما يمتار فى وقته يفرح به . إن الزمان يبين الحق وينيره . اذكر نفسك أبداً أنك إنسان . إن كنت إنساناً فافهم كيف تضبط غضبك . إذا نالتك مضرة فاعلم أنك كنت أهلها . اطلب رضاء كل أحد ؛ لا رضاء نفسك فقط . إن الضحك فى غير وقته هم ؛ ابن عم البكاء . إن الأرض تلد كل شىء ثم تسترده . إن الرأى من الجبان جبان . انتقم من الأعداء نقمة لا تضرك . كن حسن الجرأة ولا تكن متهوراً . إن كنت ميتاً فلا تذهب مذهب من لا يموت . إن أردت أن تحيا فلا تعمل عملا يوجب الموت . إن الطبيعة كونت الأشياء بإرادة الرب تعالى . من لا يفعل شيئاً من الشر فهو إلهى . آمن بالله فإنه يوفقك فى أمورك . إن مساعدة الأشرار على أفعالهم كفر بالله . إن المغلوب من قاتل الله والبخت . اعرف الله ، واعقل الأمور الإنسانية . إذا أراد الله خلاصك عبرت البحر على البادية . إن العقل الذى

يناطق الله لشريف . إن قوام السنة بالرئيس . إن لفيف الناس وإن كانت لهم قوة فليس لهم عقل . إن السنة توجب كرامة الوالدين مثل كرامة الإله . رأيي أن والديك آلهة لك . إن الأب هو من رَبَّى لا من ولد . إن الكلام في غير وقته يفسد العمر كله . إذا حضر البخت تمت الأمور . إن سنن الطبيعة لا تتعلم . إن اليد تغسل اليد ، والأصبع الأصبع . ليكن فرحك بما تدخره لنفسك دون ما تدخره لغيرك ، يعنى بالمدخر لنفسه : العلم والحكمة ، وبالمدخر لغيره : المال .

وقال : الكرم يحمل ثلاثة عناقيد : عنقود الالتذاذ ، وعنقود الشكر ، وعنقود الشيم . خير أمور العالم الحسى أوساطها ، وخير أمور العالم العقلى أفضلها .

وقيل : إن وجود الشعر فى أمة يونان كان قبل الفلسفة ، وإنما أبدعه أوميروس . وتاليس كان بعده بثلاثمائة واثنتين وثمانين سنة . وأول فيلسوف كان منهم فى سنة تسعمائة وإحدى وخمسين من وفاة موسى عليه السلام ، وهذا ما أخبر به كورفس فى كتابه ، وذكر فورفوريوس أن تاليس ظهر فى سنة ثلاث وعشرين ومائة من ملك بختنصر .

١٠ — حِكَم بُقراط

بقراط واضع الطب الذى قال بفضله الأوائل والأواخر ، وكان أكثر حكمته فى الطب وشهرته به . فبلغ خبره إلى بهن بن اسفنديار بن كشتاسب . فكتب إلى فيلاطس ملك قوه ، وهو بلد من بلاد اليونانيين ؛ يأمر بتوجيه بقراط إليه ، وأمر له بقناطير من الذهب فأبى ذلك ، وتأبى عن الخروج إليه ضناً بوطنه وقومه ، وكان لا يأخذ على المعالجة أجرة من الفقراء وأوساط الناس ، وقد شرط أن يأخذ من الأغنياء أحد ثلاثة أشياء : طوقاً ، أو إكليلا ، أو سواراً من ذهب .

فمن حكمه أن قال : استهينوا بالموت فإن مرارته فى خوفه .

وقيل له : أى العيش خير ؟ قال : الأمن مع الفقر خير من الغنى مع الخوف .

وقال له : الحيطان والبروج لا تحفظ المدن ، ولكن تحفظها آراء الرجال وتدبير الحكماء .

وقال : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، فإن الطبيعة متطلعة إلى هوائها ، ونازعة إلى غذائها .

ولما حضرته الوفاة قال : خذوا جامع العلم منى : من كثر نومه ، ولانت طبيعته ، ونديت جلدته طال عمره .

وقال : الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع .

وقال : لو خلق الإنسان مع طبيعة واحدة لما مرض ، لأنه لم يكن هناك شىء يضادها فيمرض .

ودخل على عليل فقال له : أنا ، والعلة ، وأنت ؛ فإن أعنتنى عليها بالقبول لما تسمع منى صرنا اثنين ، وانفردت العلة فقوينا عليها ، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه .

وسئل : ما بال الإنسان أثور ما يكون بدنه إذا شرب الدواء ؟ قال : مثل ذلك مثل البيت أكثر ما يكون غباراً إذا كنس .

وحديث ابن الملك : أنه عشق جارية من حظايا أبيه فنهك بدنه ؛ واشتدت علته ، فأحضر بقراط فجس نبضه ، ونظر إلى تفسرته[1] فلم ير أثر علة . فذاكره حديث العشق فرآه يهش لذلك ويطرب . فاستخبر الحال من حاضنته فلم يكن عندها خبر ، وقالت : ما خرج قط من الدار . فقال بقراط للملك : مر رئيس الخصيان بطاعتى ، فأمره بذلك . فقال : أخرج علىّ النساء ، فخرجن ، وبقراط واضع أصبعه على نبض الفتى فلما خرجت الحظية اضطرب عرقه ، وطار قلبه ، وحارّ طبعه . فعلم بقراط أنها المعينة لهواه ، فصار

(١) التفسرة : فحص البول .

بقراط إلى الملك وقال له : ابن الملك قد عشق مَن الوصول إليها صعب . قال الملك : ومن ذاك ؟ قال هو يحب حليلتى . قال : انزل عنها ولك عنها بدل . فتحازن بقراط ووجم ، وقال:هل رأيت أحداً كلف أحداً طلاق امرأته ؛ ولاسيما الملك فى عدله ونصفته يأمرنى بمفارقة حليلتى ، ومفارقتها مفارقة روحى ؟ قال الملك : إنى أوثر ولدى عليك ، وأعوضك من هو أحسن منها ، فامتنع حتى بلغ الأمر إلى التهديد بالسيف . قال بقراط : إن الملك لا يسمى عدلا حتى ينتصف من نفسه ما ينتصف من غيره ، أرأيت لو كانت العشيقة حظية الملك ؟ قال : يا بقراط ! عقلك أتم من معرفتك ! ونزل عنها لابنه ، وبرئ الفتى من مرضه ذلك .

وقال بقراط : إياك أن تأكل إلا ما تستمرئ . وأما مالا تستمرئ فإنه يأكلك .

وقيل لبقراط : لم يثقل الميت ؟ قال : لأنه كان اثنين : أحدهما خفيف رافع ، والآخر ثقيل واضع ، فلما انصرف أحدهما وهو الخفيف الرافع ثقل الثقيل الواضع .

وقال : الجسد يعالج جملة على خمسة أضرب : ما فى الرأس بالغرغرة ، وما فى المعدة بالقىء ، وما فى البدن بإسهال البطن ، وما بين الجلدين بالعرق ، وما فى العمق وداخل العروق بإرسال الدم .

وقال : الصفراء بيتها المرارة ، وسلطانها فى الكبد ، والبلغم بيته المعدة ، وسلطانه فى الصدر ، والسوداء بيتها فى الطحال ، وسلطانها فى القلب ، والدم بيته القلب ، وسلطانه فى الرأس .

وقال لتلميذ له : ليكن أفضل وسيلتك إلى الناس محبتك لهم ، والتفقد لأمورهم ، ومعرفة حالهم ، واصطناع المعروف إليهم .

ويحكى عن بقراط قوله المعروف : العمر قصير والصناعة طويلة ، والوقت ضيق ، والزمان جديد ، والتجربة خطر ، والقضاء عسر .

وقال لتلاميذه : اقسموا الليل والنهار ثلاثة أقسام : فاطلبوا فى القسم الأول العقل الفاضل ، واعملوا فى القسم الثانى بما أحرزتم من ذلك العقل ، ثم عاملوا فى القسم الثالث من لا عقل له ، وانهزموا من الشر ما استطعتم .

وكان له ابن لا يقبل الأدب ، فقالت له امرأته : إن ابنك هو منك فأديه ، فقال لها : هو منى طبعاً ، ومن غيرى نفساً ، فما أصنع به ؟

وقال : ما كان كثيراً فهو مضاد للطبيعة . فلتكن الأطعمة والأشربة والنوم والجماع والتعب قصداً .

وقال : إن صحة البدن إذا كانت فى الغاية كان أشد خطراً .

وقال : إن الطب هو حفظ الصحة بما يوافق الأصحاء ، ودفع المرض بما يضاده .

وقال : من سقى السم من الأطباء ، وألقى الجنين ، ومنع الحبل ، واجترأ على المريض فليس من شيعتى . وله أيمان معروفة على هذه الشرائط ، وكتب معروفة كثيرة فى الطب .

وقال فى الطبيعة : إنها القوة التى تدبر الجسم من الإنسان ، فتصوره من النطفة إلى تمام الخلقة ، خدمة النفس فى إتمام هيكلها ، ولا تزال هى المدبرة له غذاء من الثدى وبعده مما به قوامه من الأغذية ، ولها ثلاث قوى : المولدة ، والمربية ، والحافظة . ويخدم الثلاث أربع قوى : الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافعة .

١١ — حكم دِيمقرِيطيس

وهو من الحكماء المعتبرين فى زمان بهمن بن اسفنديار . وهو وبقراط كانا فى زمان واحد قبل أفلاطون ، وله آراء فى الفلسفة وخصوصاً فى مبادئ الكون والفساد ، وكان أرسطوطاليس يؤثر قوله على قول أستاذه أفلاطون الإلهى ، وما أنصف .

قال ديمقريطيس : إن الجمال الظاهر يشبه به المصورون بالأصباغ ، ولكن الجمال الباطن لا يشبه به إلا من هو له بالحقيقة ، وهو مخترعه ومنشئه .

وقال : ليس ينبغى أن تعد نفسك من الناس ما دام الغيظ يفسد رأيك ويتبع شهوتك .

وقال : ليس ينبغى أن يمتحن الناس فى وقت ذلتهم ، بل فى وقت عزتهم وملكهم ، وكما أن الكير يمتحن به الذهب ، كذلك الملك يمتحن به الإنسان فيتبين خيره وشره .

وقال : ينبغى أن تأخذ فى العلوم بعد أن تنفى عن نفسك العيوب وتعوّدها الفضائل ، فإنك إن لم تفعل هذا لم تنتفع بشىء من العلوم .

وقال : من أعطى أخاه المال فقد أعطاه خزائنه ، ومن أعطاه علمه ونصيحته فقد وهب له نفسه .

وقال : لا ينبغى أن تعد النفع الذى فيه الضرر العظيم نفعاً ، ولا الضرر الذى فيه النفع العظيم ضرراً ، ولا الحياة التى لا تحمد أن تعدّ حياة .

وقال : مثل من قنع بالاسم كمثل من قنع عن الطعام بالرائحة .

وقال : عالم معاند خير من جاهل منصف .

وقال : ثمرة الغرة التوانى ، وثمرة التوانى الشقاء ، وثمرة الشقاء ظهور البطالة ، وثمرة البطالة السفه والعبث والندامة والحزن .

وقال : يجب على الإنسان أن يطهر قلبه من المكر والخديعة ، كما يطهر بدنه من أنواع الخبث .

وقال : لا تطمع أحداً أن يطأ عقبك اليوم فيطأك غداً .

وقال : لا تكن حلواً جداً لئلا تبلع ، ولا مراً جداً لئلا تلفظ .

وقال : ذنَب الكلب يكسب له الطعام ، وفمه يكسب له الضرب .

وكان بأثينية نقاش غير حاذق فأتى ديمقريطيس وقال : جصص بيتك فأصَوِّره ، قال : صوّره أولا حتى أجصصه .

وقال : مثل العلم مع من لا يقبل وإن قبل لا يعمل ؛ كمثل دواء مع سقيم وهو لا يداوى به .

وقيل له : لاتنظر ، فغمض عينيه . قيل له:لاتسمع ، فسد أذنيه . قيل له : لا تتكلم ، فوضع يده على شفتيه . قيل له : لا تعلم ، قال : لا أقدر ، وإنما أراد به أن البواطن لا تندرج تحت الاختيار ، فأشار إلى ضرورة السر ، واختيار الظاهر .

ولما كان الإنسان مضطر الحدوث كان معزول الولاية عن قلبه ، وهو بقلبه أكبر منه بسائر جوارحه ، فلهذا لم يستطع أن يتصرف فى أصله ، لاستحالة أن يكون فاعل أصله . ولهذا الكلام شرح آخر ، وهو أنه أراد التمييز بين العقل والحس ، فإن الإدراك العقلى لا يتصور الانفكاك عنه ، وإذا حصل لن يتصور نسيانه بالاختيار والإعراض عنه ، بخلاف الإدراك الحسى ، وهذا يدل على أن العقل ليس من جنس الحس ، ولا النفس من حيز البدن .

وقد قيل : إن الاختيار فى الإنسان مركب من انفعالين : أحدهما : انفعال نقيصة ، والثانى : انفعال تكامل ، وهو إلى الانفعال الأول أميل بحكم الطبيعة والمزاج ، والآخر ضعيف فيه إلا إذا وصل إليه مدد من جهة العقل والتمييز والنطق ، فينشئ الرأى الثاقب ، ويحدث الحزم الصائب ، فيحب الحق ، ويكره الباطل ؛ فمتى وقف هذا المدد من القوة الاختيارية كانت الغلبة للانفعال الآخر ، ولولا تركب الاختيار عن هذين الانفعالين ، أو انقسامه إلى هذين الوجهين لتأتى للإنسان جميع مايقصده بالاختيار ، بلامهلة ولاترجح ، ولا هنية ولا تريح ، ولا استشارة ولا استخارة .

وهذا الرأى الذى رآه هذا الحكيم لم أجد أحداً أبه[1] له ، ولا عثر عليه ، أو حكم به، أو أومأ إليه . والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) أبه له : فطن له ؛ والتفت إليه .

١٢ — حكم أوقليدس

وهو أول من تكلم فى الرياضيات وأفرده علماً نافعاً فى العلوم ، منقحاً للخاطر ، ملقحاً للفكر ، وكتابه معروف باسمه ، وكذلك حكمته .

وقد وجدنا له حكما متفرقة فأوردناها على سوق مرامنا ، وطرد كلامنا . فمن ذلك قوله الخط هندسة روحانية ظهرت بآلة جسمانية .

وقال له رجل يتهدده : إنى لا آلو جهداً فى أن أفقدك حياتك ، قال أوقليدس : وأنا لا آلو جهداً فى أن أفقدك غضبك .

وقال : كل أمر تصرفنا فيه وكانت النفس الناطقة هى المقدرة له فهو داخل فى الأفعال الإنسانية ، وما لم تقدره النفس الناطقة فهو داخل فى الأفعال البهيمية .

وقال : من أراد أن يكون محبوبه محبوبك وافقك على ما تحب ، فإذا اتفقتما على محبوب واحد صرتما إلى الاتفاق .

وقال : افزع إلى ما يشبه الرأى العام التدبيرى العقلى ، واتهم ما سواه .

وقال : كل ما استُطيعَ خلعه ولم يضطر إلى لزومه المرء ؛ فلم الإقامة على مكروهه ؟

وقال : الأمور جنسان : أحدهما يستطاع خلعه والمصير إلى غيره ، والآخر توجبه الضرورة فلا يستطاع الانتقال عنه ، والاغتمام والأسف على كل واحدمنهما غير سائغ فى الرأى .

وقال : إن كانت الكائنات من المضطرة ؛ فما الاهتمام بالمضطر إذا لا بد منه ؟ وإن كانت غير مضطرة ؛ فلم الهم فيما يجوز الانتقال عنه ؟

وقيل : الصواب إذا كان عاماً كان أفضل ، لأن الخاص يقع بالتحرى وتلقاء أمرما .

وقال : العمل على الإنصاف ترك الإقامة على المكروه . وقال : إذا لم يضطرك إلى الإقامة عليه شىء فإن أقمت رجعت باللائمة عليك .

وقال : الحزم هو العمل على ألا تثق بالأمور التى فى الإمكان عسرها ويسرها .

وقال : كل فائت وجدت فى الأمور منه عوضاً أو أمكنك اكتساب مثله ؛ فما الأسف على فوته ؟ وإن لم يكن منه عوض ولا يصاب له مثل ؛ فما الأسف على مالاسبيل إلى مثله ولا إمكان فى دفعه .

وقال : لما علم العاقل أنه لاثقة بشىء من أمر الدنيا ألقى منها ما منه بد ، واقتصر على مالا بد منه ، وعمل فيما يوثق به بأبلغ ما قدر عليه .

وقال : إذا كان الأمر ممكناً فيه التصرف، فوقع بحال ما تحب فاعتده ربحاً ، وإن وقع بحال ما تكره فلا تحزن ؛ فإنك قد كنت عجلت فيه على غير ثقة بوقوعه على ما تحب .

قال : لم أر أحداً إلا ذاماً للدنيا وأمورها ، إذ هى على ما هى من التغير والتنقل ، فالمستكثر منها يلحقه أن يكون أشد اتصالا بما يذم ، وإنما يذم الإنسان ما يكره ، والمستقل منها مستقل مما يكره ، وإذا استقل مما يكره كان ذلك أقرب إلى ما يحب .

وقال : أسوأ الناس حالا من لا يثق بأحد لسوء ظنه ، ولا يثق به أحد لسوء فعله .

وقال : الجشع بين شرين ، فالإعدام يخرجه إلى السفه ، والجدة تخرجه إلى الأشر[١] .

وقال : لا تعن أخاك على أخيك فى خصومة ، فإنهما يصطلحان عن قليل ، وتكتسب المذمة .

---

(١) الأشر : البطر ، وكفر النعمة .

١٣ — حكم بَطْلَمْيُوسْ

وهو صاحب المجسطى الذى تكلم فى هيئات الفلك ، وأخرج علم الهندسة من القوة إلى الفعل .

فمن حكمه أنه قال : ما أحسن الإنسان أن يصبر عما يشتهى ، وأحسن منه ألا يشتهى إلا ما ينبغى .

وقال : الحليم الذى إذا صدق صبر ، لا الذى إذا قذف كظم .

وقال : لَمن يغنى الناس ويسأل أشبه بالملوك ممن يستغنى بغيره ويسأل .

وقال : لأن يستغنى الإنسان عن الملك أكرم له من أن يستغنى به .

وقال : موضع الحكمة من قلوب الجهال ، كموقع الذهب والجوهر من ظهر الحمار .

وسمع جماعة من أصحابه وهم حول سرادقه يقعون فيه ويثلبونه[1] ، فهز رمحاً كان بين يديه ليعلموا أنهم بمسمع منه ، وأن يتباعدوا عنه قِيدَ رمح ، ثم يقولوا ما أحبوا .

وقال : العلم فى موطنه كالذهب فى معدنه ؛ لا يستنبط إلا بالدءوب والتعب والكد والنصب ، ثم يجب تخليصه بالفكر كما يخلص الذهب بالنار .

وقال بطلميوس : دلالة القمر فى الأنام أقوى ، ودلالة الشمس والزهرة فى الشهور أقوى ، ودلالة المشترى وزحل فى السنين أقوى .

ومما نقل عنه أنه قال : نحن كائنون فى الزمن الذى يأتى بعد ، وهذا رمز إلى المعاد ، إذ الكون والوجود الحقيقى : ذلك الكون والوجود فى ذلك العالم .

---

(١) ثلبه : عابه وتنقصه .

١٤ — حكم أهل المَظَالّ

ومنهم : خروسيبس وزينون ، وقولهما الخالص : إن البارى تعالى ؛ المبدع الأول : واحد محض،هو هو ، إن فقط ، أبدع العقل والنفس دفعة واحدة ، ثم أبدع جميع ما تحتهما بتوسطهما . وفى بدء ما أبدعهما ، أبدعهما جوهرين لا يجوز عليهما الدثور والفناء .

وذكروا أن للنفس جرمين : جرم من النار والهواء ، وجرم من الماء والأرض . فالنفس متحدة بالجرم الذى من النار والهواء . والجرم الذى من النار والهواء متحد بالجرم الذى من الماء والأرض . والنفس تظهر أفاعيلها فى ذلك الجرم ، وذلك الجرم ليس له طول ولا عرض ، ولا قدر مكانى . وباصطلاحنا سميناه جسما ، وأفاعيل النفس فيه نيرة بهية . ومن الجسم إلى الجرم ينحدر النور ، والحسن ، والبهاء . ولما ظهرت أفاعيل النفس عندنا بمتوسطين كانت أظلم ، ولم يكن لها نور شديد .

وذكروا أن النفس إذا كانت طاهرة زكية استخصت الأجزاء النارية والهوائية ، وهى جسمها ، واستصحبت فى ذلك العالم جسما روحانيا ، نورانيا ، علويا ، طاهراً ، مهذبا من كل ثقل وكدر . وأما الجرم الذى من الماء والأرض فيدثر ويفنى ، لأنه غير مشاكل للجسم السماوى ، لأن ذلك الجسم خفيف لطيف لا وزن له ، ولا يلمس ، وإنما يدرك من البصر فقط ، كما تدرك الأشياء الروحانية من العقل ؛ فألطف ما يدرك الحس البصرى من الجواهر هى النفسانية ، وألطف ما يدرك من إبداع البارى تعالى الآثار التى عند العقل .

وذكروا أن النفس إنما هى مستطيعة ما خلاها البارى تعالى أن تفعل ، وإذا ربطها فليست بمستطيعة ، كالحيوان الذى إذا خلاّه مدبره ؛ أعنى الإنسان ، كان مستطيعاً فى كل مادعى إليه ، وتحرك إليه ، وإذا ربطه لم يقدر حينئذ أن يكون مستطيعاً .

وذكروا أن دنس النفس وأوساخ الجسد إنما تكون لازمة للانسان من جهة

الأجزاء . وأما التطهير والتهذيب فمن جهة الكل ، لأنه إذا انفصلت النفس الكلية إلى النفس الجزئية ، والعقل الجزئى من العقل الكلى غلظت وصارت من حيز الجرم ، لأنها كلما سفلت اتحدت بالجرم ، والجرم من حيز الماء والأرض ، وهما ثقيلان يذهبان سفلا . وكلما اتصلت النفس الجزئية بالنفس الكلية ، والعقل الجزئى بالعقل الكلى ذهبت علوا ، لأنها تتحد بالجسم ، والجسم من حيز النار والهواء ، وكلاهما لطيفان يذهبان علوا . وهذان الجرمان مركبان ، وكل واحد منهما من جوهرين . واجتماع هذين الجرمين يوجب الاتحاد شيئاً واحداً عند الحس البصرى . فأما عند الحواس الباطنة ، وعند العقل فليست شيئاً واحداً . فالجسم فى هذا العالم مستبطن فى الجرم ، لأنه أشد روحانية ، ولأن هذا العالم ليس مشاكلا له ، ولا مجانسا له . والجرم مشاكل ومجانس لهذا العالم ، فصار الجرم أظهر من الجسم لمجانسة هذا العالم وتركيبه . وصار الجسم مستبطنا فى الجرم ، لأن هذا العالم غير مشاكل له ، وغير مجانس له . فأما فى ذلك العالم فالجسم ظاهر على الجرم ، لأن ذلك العالم عالم الجسم لأنه مجانس ومشاكل له ، ويكون لطيف الجرم الذى هو من لطيف الماء والأرض المشاكل لجوهر النار والهواء ، مستبطنا فى الجسم ، كما كان الجسم مستبطنا فى هذا العالم فى الجرم . فإذا كان هذا فيما ذكروا هكذا كان ذلك الجسم باقياً دائماً لا يجوز عليه الدثور ولا الفناء ، ولذته دائمة لا تملها النفوس ولا العقول ، ولا ينفد ذلك السرور والحبور .

ونقلوا عن أفلاطون أستاذهم : لما كان الواحد لا بدء له ، صار نهاية كل متناه ، وإنما صار الواحد لا نهاية له ، لأنه لا بدء له . لا أنه لا بدء له ، لأنه لا نهاية له .

وقال : ينبغى للمرء أن ينظر كل يوم إلى وجهه فى المرآة ، فإن كان قبيحاً لم يفعل قبيحاً فيجمع بين قبيحين ، وإن كان حسناً لم يشنه بقبيح .

وقال : إنك لن تجد الناس إلا أحد رجلين : إما مؤخراً فى نفسه قدّمه حظه ، أو مقدما فى نفسه أخره دهره ، فارض بما أنت فيه اختيارا ، وإلا رضيت اضطرارا .

الفصل الثالث

متأخرو حكماء اليونان

وهم الحكماء الذين تلوهم فى الزمان ، وخالفوهم فى الرأى ؛ مثل أرسطوطاليس ومن تابعه على رأيه مثل : الإسكندر الرومى ، والشيخ اليونانى ، وديوجانس الكلبى وغيرهم وكلهم على رأى أرسطوطاليس فى المسائل التى تفرد بها عن القدماء .

ونحن نذكر من آرائه ما يتعلق بغرضنا من المسائل التى شرع فيها الأوائل وخالفهم المتأخرون . ونحصرها فى ست عشرة مسألة ، وبالله التوفيق .

١ — رأى أرِسطُوطَالِيس بن نِيقُومَاخُوس

من أهل أسطاخرا ، وهو المقدم المشهور ، والمعلم الأول ، والحكيم المطلق عندهم ، وكان مولده فى أول سنة من ملك أردشير بن دارا ، فلما أتت عليه سبع عشرة سنة أسلمه أبوه إلى المؤدب أفلاطون فمكث عنده نيفا وعشرين سنة ، وإنما سموه المعلم الأول ؛ لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلى الفعل ، وحكمه حكم واضع النحو ، وواضع العروض ؛ فإن نسبة المنطق إلى المعانى التى فى الذهن كنسبة النحو إلى الكلام ، والعروض إلى الشعر . وهو واضع لا بمعنى أنه لم تكن المعانى مقومة بالمنطق قبله فقومها ، بل بمعنى أنه جرد آلته عن المادة فقومها تقريباً إلى أذهان المتعلمين حتى يكون كالميزان عندهم يرجعون إليه عند اشتباه الصواب بالخطأ ، والحق بالباطل ، إلا أنه أجمل القول فيه إجمال الممهدين ، وفصله المتأخرون تفصيل الشارحين ، وله حق السبق وفضيلة التمهيد ، وكتبه فى الطبيعيات ، والإلهيات ، والأخلاق معروفة ، ولها شروح كثيرة .

ونحن اخترنا فى نقل مذهبه شرح « ثامسطيوس » الذى اعتمده مقدم المتأخرين ورئيسهم : أبو على بن سينا ، وأوردنا نكتا[1] من كلامه فى الإلهيات ، وأحلنا باقى مقالاته فى المسائل على نقل المتأخرين ؛ إذ لم يخالفوه فى رأى ، ولا نازعوه فى حكم ، بل هم كالمقلدين له ، المتهالكين عليه . وليس الأمر على ما مالت ظنونهم إليه .

المسألة الأولى

فى إثبات واجب الوجود الذى هو المحرك الأول . قال فى كتاب « أثولوجيا » من حرف اللام :

إن الجوهر يقال على ثلاثة أضرب : اثنان طبيعيان ، وواحد غير متحرك . قال : إنا وجدنا المتحركات على اختلاف جهاتها وأوضاعها ، ولا بد لكل متحرك من محرك . فإما أن يكون المحرك متحركا ؛ فيتسلسل القول فيه ولا يتحصل . وإلا فيستند إلى محرك غير متحرك . ولا يجوز أن يكون فيه معنى ما بالقوة ؛ فإنه يحتاج إلى شىء آخر يخرجه من القوة إلى الفعل ؛ إذ هو لا يتحرك من ذاته من القوة إلى الفعل . فالفعل إذن أقدم من القوة . وما بالفعل أقدم عَلَى ما بالقوة . وكل جائز وجوده ففى طبيعته معنى ما بالقوة ، وهو الإمكان والجواز فيحتاج إلى واجب به يجب . وكذلك كل متحرك فيحتاج إلى محرك . فواجب الوجود بذاته : ذات وجودها غير مستفاد من وجود غيره . وكل موجود فوجوده مستفاد عنه بالفعل . وجائز الوجود له فى نفسه وذاته الإمكان . وذلك إذا أخذته بلا شرط ، وإذا أخذته بشرط علته فله الوجوب . وإذا أخذته بشرط لا علية فله الامتناع .

---

(١) أصل النكتة : النقطة السوداء فى الابيض ، أو البيضاء فى الأسود ، ومنه استخدمت بمعنى : المسألة الدقيقة ، أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر .

المسألة الثانية

فى أن واجب الوجود واحد : أخذ أرسطو طاليس يوضح أن المبدأ الأول واحد من حيث إن العالم واحد ، ويقول : إن الكثرة بعد الاتفاق فى الحد ليست إلا فى كثرة العنصر . وأما ماهو بالآنية الأولى فليس له عنصر ، لأنه تمام ، قائم بالفعل ، لا يخالط القوة . فإذن المحرك الأول واحد بالكلمة والعدد ، أى بالاسم والذات . قال : فمحرك العالم واحد ، لأن العالم واحد . هذا نقل ثامسطيوس . وأخذ من نصر مذهبه يوضح أن المبدأ الأول واحد من حيث إنه واجب الوجود لذاته ، قال : ولو كان كثيراً لحمل واجب الوجود عليه وعلى غيره بالتواطؤ فيشملها جنسا ، وينفصل أحدهما عن الآخر نوعاً ، فتتركب ذاته من جنس وفصل . فتسبق أجزاء المركب على المركب سبقاً بالذات ، فلا يكون واجباً بذاته . ولأنه لو لم يكن هو بعينه واجب الوجود لذاته لا لشىء عنه ، بل لأمر خارج عنه واجب بذاته ، لكان واجب الوجود بذلك الأمر الخارج ، فلم يكن واجباً بذاته ، هذا خلف .

المسألة الثالثة

فى أن واجب الوجود لذاته : عقل لذاته ، وعاقل ومعقول لذاته ، عقل من غيره ، أو لم يعقل .

أما أنه عقل فلأنه مجرد عن المادة ، منزه عن اللوازم المادية ، فلا تحتجب ذاته عن ذاته .

وأما أنه عاقل لذاته ، فلأنه مجرد لذاته .

وأما أنه معقول لذاته ، فلأنه غير محجوب عن ذاته بذاته أو بغيره .

قال : الأول يعقل ذاته . ثم من ذاته يعقل كل شىء ، فهو يعقل العالم العقلى دفعة واحدة من غير احتياج إلى انتقال وتردد من معقول إلى معقول ، وأنه ليس يعقل الأشياء

على أنها أمور خارجة عنه فيعقلها منها كحالنا عند المحسوسات ، بل يعقلها من ذاته ، وليس كونه عاقلا وعقلا بسبب وجود الأشياء المعقولة حتى يكون وجودها قد جعله عقلا ، بل الأمر بالعكس ؛ أى عقله للأشياء جعلها موجودة . وليس للأول شىء يكمله ، فهو الكامل لذاته ، المكمل لغيره ، فلا يستفيد وجوده من وجود كمالا . وأيضاً فإنه لو كان يعقل الأشياء من الأشياء ، لكان وجودها متقدماً على وجوده ، ويكون جوهره فى نفسه ، وفى قوامه ، وفى طباعه أن يقبل معقولات الأشياء من الأشياء ، فيكون فى طباعه ما هو بالقوة من حيث يكمل بما هو خارج عنه ، حتى يقال : لولا ما هو خارج عنه لم يكن له ذلك المعنى ، وكان فيه عدمها ، فيكون الذى له فى طباع نفسه ، وباعتبار نفسه من غير إضافة إلى غيره أن يكون عادماً للمعقولات ، ومن شأنه أن يكون له ذلك ، فيكون باعتبار نفسه مخالطاً للإمكان والقوة . وإذا فرضنا أنه لم يزل ولا يزال موجوداً بالفعل ، فيجب أن يكون له من ذاته الأمر الأكمل الأفضل لا من غيره .

قال : وإذا عقل ذاته عقل ما يلزمها لذاتها بالفعل ، وعقل كونه مبدأ ، وعقل كل ما يصدر عنه على ترتيب الصدور عنه . وإلا فلم يعقل ذاته بكنهها . قال : وإن كان ليس يعقل بالفعل . فما الشىء الكريم الذى له وهو الكون الناقص كماله ؟ فيكون حاله كحال النائم . وإن كان يعقل الأشياء من الأشياء فتكون الأشياء متقدمة عليه بتقدم ما يقبله ذاته ، وإن كان يعقل الأشياء من ذاته فهو المرام والمطلب . وقد يعبر عن هذا الغرض بعبارة أخرى تؤدى قريباً من هذا المعنى : إن كان جوهره العقل وأن يعقل ، فإما أن يعقل ذاته ، أو غيره . فإن كان يعقل شيئاً آخر فما هو فى حد ذاته غير مضاف إلى ما يعقله ؟ وهل لهذا المعتبر بنفسه فضل وجلال مناسب لأن يعقل ، بأن يكون بعض الأحوال أن يعقل له أفضل من أن لا يعقل ؟ أو بأن لا يعقل يكون له أفضل من أن يعقل؟ فإنه لا يمكن القسم الآخر : وهو أن يكون يعقل الشىء الآخر أفضل من الذى له

فى ذاته ، من حيث هو فى ذاته ، شىء يلزمه أن يعقل ، فيكون فضله وكماله بغيره .
وهذا محال .

المسألة الرابعة

فى أن واجب الوجود لا يعتريه تغيير وتأثر من غيره ، بأن يبدع أو يعقل . قال :
البارى تعالى عظيم الرتبة جداً غير محتاج إلى غيره ، ولا متغير بسبب من غيره ، سواء
كان التغير زمانياً ، أو كان تغيراً بأن ذاته تقبل من غيره أثراً وإن كان دائماً فى الزمان .
وإنما لا يجوز له أن يتغير كيفما كان ، لأن انتقاله إنما يكون إلى الشر لا إلى الخير ، لأن
كل رتبة غير رتبته فهى دون رتبته ، وكل شىء يناله ويوصف به فهو دون نفسه .
ولا يكون أيضاً مناسباً للحركة ، خصوصاً إن كانت بعدية زمانية . وهذا معنى قوله :
إن التغير إلى الشىء الذى هو شر .

وقد ألزم على كلامه : أنه إذا كان الأول يعقل أبدا ذاته ، فإنه يتعب ويكل ويتغير
ويتأثر . وأجاب ثامسطيوس عن هذا بأنه إنما لا يتعب لأنه يعقل ذاته ، وكما لا يتعب
من أن يحب ذاته فإنه لا يتعب من أن يعقل ذاته .

قال أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا : ليست العلة أنه لذاته يعقل ، أو لذاته
يحب ، بل لأنه ليس مضادا لشىء فى الجوهر العاقل . فإن التعب هو أذى يعرض لسبب
خروج عن الطبيعة ، وإنما يكون ذلك إذا كانت الحركات التى تتوالى مضادة لمطلوب
الطبيعة . فأما الشىء الملائم واللذيذ المحض الذى ليس فيه منافاة بوجه ، فلم يجب أن
يكون تكرره متعباً .

المسألة الخامسة

فى أن واجب الوجود حى بذاته ، باق بذاته ، أى كامل فى أن يكون بالفعل مدركا لـكل شىء ، نافذ الأمر فى كل شىء .

وقال : إن الحياة التى عندنا يقترن بها من إدراك خسيس ، وتحريك خسيس ، وأما هناك فالمشار إليه بلفظ الحياة : هو كون العقل التام بالفعل الذى يتعقل من ذاته كل شىء ، وهو باق الدهر أزلى ، فهو حى بذاته ، باق بذاته ، عالم بذاته ، وإنما ترجع جميع صفاته إلى ما ذكرنا من غير تـكثر ولا تغير فى ذاته .

المسألة السادسة

فى أنه لا يصدر عن الواحد إلا واحد

قال : الصادر الأول هو العقل الفعال ، لأن الحركات إذا كانت كثيرة ، ولـكل متحرك محرك ، فيجب أن يكون عدد المحركات بحسب عدد المتحركات . فلو كانت المحركات والمتحركات تنسب إليه لا على ترتيب أول وثان ، بل جملة واحدة ، لتـكثرت جهات ذاته بالنسبة إلى محرك محرك ، ومتحرك متحرك ، فتتـكثر ذاته ، وقد أقمنا البرهان على أنه واحد من كل وجه ، فلن يصدر عن الواحد من كل وجه إلا واحد وهو العقل الفعال ، وله فى ذاته ، وباعتبار ذاته ، إمكان الوجود ، وباعتبار علته وجوب الوجود ، فتتـكثر ذاته لا من جهة علته ، فيصدر عنه شيئان . ثم يزيد التـكثر فى الأسباب فتتـكثر المسببات ، والـكل ينسب إليه .

المسألة السابعة

فى عدد المفارقات

قال : إذا كان عدد المتحركات مترتبا على عدد الحركات ، فتكون الجواهر المفارقة كثيرة على ترتيب أول وثان . فلكل كرة متحركة محرك مفارق غير متناهى القوة يحرك كما يحرك المشتهى والمعشوق . و محرك آخر مزاول للحركة ، فيكون صورة للجرم السماوى فالأول عقل مفارق ، والثانى نفس مزاول . فالمحركات المفارقة تحرك على أنها مشتهاة معشوقة . والمحركات المزاولة تحرك على أنها مشتهية عاشقة . ثم يطلب عدد المحركات من عدد حركات الأكر[1] . وذلك شىء لم يكن ظاهراً فى زمانه ، وإنما ظهر بعد .

والأكر تسع ، لما دل الرصد عليها . فالعقول المفارقة عشرة : تسعة منها مدبرات النفوس التسعة المزاولة ، وواحد هو العقل الفعال .

المسألة الثامنة

فى أن الأول مبتهج بذاته

قال أرسطوطاليس : اللذة فى المحسوسات هو الشعور بالملائم ، وفى المعقولات الشعور بالكمال الواصل إليه من حيث يشعر به . فالأول مغتبط بذاته ، ملتذ بها ، لأنه يعقل ذاته على كمال حقيقتها وشرفها ، وإن جل عن أن ينسب إليه لذة انفعالية ، بل يجب أن يسمى ذلك بهجة ، وعلاء ، وبهاء . كيف ونحن نلتذ بإدراك الحق ، ونحن مصروفون عنه ، مردودون فى قضاء حاجات خارجة عما يناسب حقيقتنا التى نحن بها ناس ، وذلك لضعف عقولنا ، وقصورنا فى المعقولات ، وانغماسنا فى الطبيعة البدنية ، لكننا نتوصل على سبيل الاختلاس فيظهر لنا اتصال بالحق الأول ، فيكون كسعادة عجيبة فى زمان قليل جداً ، وهذه الحال له أبداً ، وهو لنا غير ممكن ؛ لأنا مذنبون ، ولا يمكننا أن نشيم[2] تلك البارقة الإلهية إلا خطفة وخلسة .

---

(١) الأكر : جمع أكرة مثل حفرة وزناً ومعنى.   (٢) شام الشىء : تطلع إليه .

المسألة التاسعة

فى صدور نظام الكل ، وترتيبه عنه

قال : قد بينا أن الجوهر يقال على ثلاثة أضراب : اثنان طبيعيان ، وواحد غير متحرك ؛ وقد بينا القول فى الواحد غير المتحرك ؛ وأما الاثنان الطبيعيان فهما : الهيولى، والصورة ، أو العنصر والصورة ، وهما مبدأ الأجسام الطبيعية . وأما العدم فيعد من المبادئ بالعرض لا بالذات . فالهيولى جوهر قابل للصورة . والصورة معنى ما يقترن بالجوهر فيصير به نوعا كالجزء المقوم له لا كالعرض الحال فيه . والعدم ما يقابل الصورة فإنا متى توهمنا أن الصورة لم تكن فيجب أن يكون فى الهيولى عدم الصورة . والعدم المطلق مقابل للصورة المطلقة ، والعدم الخاص مقابل للصورة الخاصة .

قال : وأول الصورة التى تسبق إلى الهيولى هى الأبعاد الثلاثة فتصير جرما ذا طول، وعرض ، وعمق ، وهى الهيولى الثانية ، وليست بذات كيفية . ثم تلحقها الكيفيات الأربع التى هى : الحرارة ، والبرودة الفاعلتان ، والرطوبة واليبوسة المنفعلتان . فتصير الأركان والأسطقسات الأربعة التى هى : النار والهواء والماء والأرض ، وهى الهيولى الثالثة . ثم تتكون منها المركبات التى تلحقها الأعراض والكون والفساد ، ويكون بعضها هيولى بعض .

قال : وإنما رتبنا هذا الترتيب فى العقل والوهم خاصة دون الحس ، وذلك أن الهيولى عندنا لم تكن معراة عن الصورة قط . فلم نقدر فى الوجود جوهراً مطلقاً قابلا للأبعاد ثم لحقته الأبعاد ، ولا جسما عاريا عن هذه الكيفيات ، ثم عرض له ذلك ، وإنما هو عند نظرنا فيما هو أقدم بالطبع ، وأبسط فى الوهم والعقل .

ثم أثبت طبيعة خامسة وراء هذه الطبائع لا تقبل الكون والفساد ، ولا يطرأ عليها الاستحالة والتغير ، وهى طبيعة السماء . وليس يعنى بالخامسة طبيعة من جنس هذه الطبائع، بل معنى ذلك أن طبائعها خارجة عن هذه . ثم هى كلها على تركيبات يختص كل تركيب خاص بطبيعة خاصة ، ويتحرك بحركة خاصة . ولكل متحرك محرك مزاول ، ومحرك

مفارق . والمتحركات أحياء ناطقون ، والحيوانية والناطقية لها بمعنى آخر ، وإنما يحمل ذلك عليها وعلى الإنسان باشتراك ، فترتيب العالم كله : علويه وسفليه ، على نظام واحد ، وصار النظام فى الكل محفوظا بعناية المبدإ الأول على أحسن ترتيب وأحكم قوام ، متوجها إلى الخير . وترتيب الموجودات كلها فى طباع الكل على نوع نوع ليس على ترتيب المساواة ، فليس حال السباع كحال الطير ، ولا حالها كحال النبات ، ولا حال النبات كحال الحيوان .

قال : وليس مع هذا التفاوت منقطعاً بعضها عن بعض بحيث لا ينسب بعضها إلى بعض ، بل هناك مع الاختلاف اتصال وإضافة جامعة للكل ، تجمع الكل إلى الأصل الأول الذى هو المبدأ لفيض الجود والنظام فى الوجود على ما يمكن فى طباع الكل أن يترتب عنه .

قال : وترتيب الطباع فى الكل كترتيب المنزل الواحد من الأرباب ، والأحرار ، والعبيد ، والبهائم ، والسباع ، فقد جمعهم صاحب المنزل ، ورتب لكل واحد منهم مكانا خاصا ، وقدر له عملا خاصاً . ليس قد أطلق لهم أن يعملوا ما شاءوا وأحبوا ، فإن ذلك يؤدى إلى تشويش النظام . فهم وإن اختلفوا فى مراتبهم ، وانفصل بعضهم عن بعض بأشكالهم وصورهم ، منتسبون إلى مبدإ واحد ، صادرون عن رأيه وأمره ، مصرفون تحت حكمه وقدره ، فكذلك تجرى الحال فى العالم ، بأن يكون هناك أجزاء أول مفردة متقدمة لها أفعال مخصوصة ؛ مثل السماوات ، ومحركاتها ، ومدبراتها ، وما قبلها من العقل الفعال . وأجزاء مركبة متأخرة تجرى أكثر أمورها على الاتفاق المخلوط بالطبع والإرادة ، والجبر الممزوج بالاختيار . ثم ينسب الكل إلى عناية البارى جلت عظمته .

المسألة العاشرة

فى أن النظام فى الكل متوجه إلى الخير ، والشر واقع فى القدر بالعرض .

قال : لما اقتضت الحكمة الإلهية نظام العالم على أحسن إحكام وإتقان ، لا لإرادة وقصد إلى أمر فى السافل حتى يقال : إنما أبدع العقل مثلا لغرض فى السافل ، حتى يفيض

مثلا على السافل فيضاً ، بل لأمر أعلى من ذلك ، وهو أن ذاته أبدع ما أبدع لذاته لا لعلة ولا لغرض ، فوجدت الموجودات كاللوازم واللواحق ، ثم توجهت إلى الخير ، لأنها صادرة عن أصل الخير ، وكان المصير فى كل حال إلى رأس واحد .

ثم ربما يقع شر وفساد من مصادمات فى الأسباب السافلة دون العالية التى كلها خير. مثل المطر الذى لم يخلق إلا خيراً ونظاماً للعالم . فيتفق أن يخرب به بيت عجوز ، فإن وقع كان ذلك واقعاً بالعرض لا بالذات . أو بأن لا يقع شر جزئى فى العالم لا تقتضى الحكمة أن لا يوجد خير كلى ، فإن فقدان المطر أصلا شر كلى ، وتخريب بيت عجوز شر جزئى ، والعالم للنظام الكلى لا للجزئى ، فالشر إذن واقع فى القدَر بالعرض .

وقال : إن الهيولى قد لبست الصور على درجات ومراتب ، وإنما يكون لكل درجة ما تحتمله فى نفسها دون أن يكون فى الفيض الأعلى إمساك عن بعض وإفاضة على بعض . فالدرجة الأولى احتمالها على نحو أفضل ، والثانية دون ذلك ، والذى عندنا من العناصر دون الجميع ، لأن كل ماهية من ماهيات هذه الأشياء إنما تحتمل ما تستطيع أن تلبس من الفيض على النحو الذى هيئت له ، ولذلك تقع العاهات والتشويهات فى الأبدان. لما يلزم من ضرورة المادة الناقصة التى لا تقبل الصورة على كمالها الأول والثانى .

قال : إن لم نجر الأمور على هذا المنهاج ألجأتنا الضرورة إلى أن نقع فى محالات وقع فيها من قبلنا كالثنوية وغيرهم .

المسألة الحادية عشرة

فى كون الحركات سرمدية ، وأن الحوادث لم تزل

قال : إن صدور الفعل عن الحق الأول إنما يتأخر لا بزمان ، بل بحسب الذات ، والفعل ليس مسبوقاً بعدم ، بل هو مسبوق بذات الفاعل فقط . ولكن القدماء لما أرادوا أن يعبروا عن العلية افتقروا إلى ذكر القبلية . وكانت القبلية فى اللفظ تتناول الزمان

وكذلك فى المعنى عند من لم يتدرب . فأوهمت عباراتهم أن فعل الأول الحق فعل زمانى ، وأنّ تقدمه تقدم زمانى .

قال : ونحن أثبتنا أن الحركات تحتاج إلى محرك غير متحرك .

ثم نقول : الحركات لا تخلو إما أن تكون لم تزل ، أو تكون قد حدثت بعد أن لم تكن ، وقد كان المحرك لها موجوداً بالفعل قادراً ، ليس يمانعه مانع من أن تكون عنه ، ولا حدث حادث فى حال ما أحدثها فرغبه وحمله على الفعل . إذن كان جميع ما يحدث إنما يحدث عنه ، وليس شىء غيره يعوقه أو يرغبه ، ولا يمكن أن يقال : قد كان لا يقدر أن يكون عنه مقدور فقدر ، أو لم يرد فأراد ، أو لم يعلم فعلم . فإن ذلك كله يوجب الاستحالة ، ويوجب أن يكون شىء آخر غيره هو الذى أحاله ، وإن قلنا إنه منعه مانع يلزم أن يكون السبب المانع أقوى ، والاستحالة والتغير عن المانع حركة أخرى استدعت محركا . وبالجملة : كل سبب ينسب إليه الحادث فى زمان حدوثه بعد جوازه فى زمان قبله وبعده ؛ فإن ذلك السبب جزئى خاص أوجب حدوث تلك الحادثة التى لم تكن قبل ذلك . وإلا فالإرادة الكلية ، والقدرة الشاملة ، والعلم الواسع العام ليس يختص بزمان دون زمان ، بل نسبته إلى الأزمان كلها نسبة واحدة ، فلا بد لكل حادث من سبب حادث ، ويتعالى عنه الواحد الحق الذى لا يجوز عليه التغيير والاستحالة .

قال : وإذا كان لا بد من محرك المحركات ، ومن حامل للحركات ، تبين أن المحرك سرمدى ، والحركات سرمدية ، فالمتحركات سرمدية . فإن قيل : إن حامل الحركة ؛ وهو الجسم ، لم يحدث ، لكنه تحرك عن سكون ، وجب أن يعثر على السبب الذى يغير من السكون إلى الحركة . فإن قلنا إن ذلك الجسم حدث ، فقد تقدم حدوث الجسم حدوث الحركة ، فقد بان أن الحركة ، والمتحرك ، والزمان الذى هو عادٌ للحركة: أزلية سرمدية .

والحركات إما مستقيمة وإما مستديرة . والاتصال لا يكون إلا للمستديرة ، لأن المستقيم ينقطع ، والاتصال أمر ضرورى للأشياء الأزلية . فإن الذى يسكن ليس بأزلى . والزمان متصل ، لأنه لا يمكن أن يكون قِطَعاً مبتورة ، فيجب من ذلك أن تكون الحركة متصلة ، وإذا كانت المستديرة هى وحدها متصلة ، فيجب أن تكون هى أزلية ، فيجب أن يكون محرك هذه الحركة المستديرة أيضاً أزلياً ، إذ لا يكون ما هو أخس علة لما هو أفضل ، ولا فائدة فى محركات ساكنة غير محركة كالصور الأفلاطونية ، فلا ينبغى أن يضع هذه الطبيعة بلا فعل فتكون متعطلة غير قادرة أن تحيل وتحرك .

المسألة الثانية عشرة
فى كيفية تركب العناصر

حكى فرفريوس عنه أنه قال : كل موجود ففعله مثل طبيعته . فما كانت طبيعته بسيطة ففعله بسيط . والله تعالى واحد بسيط ، ففعل الله تعالى واحد بسيط . وكذلك فعله الاجتلاب إلى الوجود ، فإنه موجود ، لكن الجوهر لما كان وجوده بالحركة كان بقاؤه أيضاً بالحركة . وذلك أنه ليس للجوهر أن يكون موجوداً من ذاته بمنزلة الوجود الأول الحق ، لكن من التشبه بذلك الأول الحق . وكل حركة تكون إما أن تكون مستقيمة أو مستديرة . فالحركة المستقيمة يجب أن تكون متناهية . والجوهر يتحرك فى الأقطار الثلاثة التى هى : الطول ، والعرض ، والعمق على خطوط مستقيمة حركة متناهية فيصير بذلك جسما . وبقى عليه أن يتحرك بالاستدارة على الجهة التى يمكن فيها حركة بلا نهاية ، ولا يسكن فى وقت من الأوقات ، إلا أنه ليس يمكن أن يتحرك بأجمعه حركة على الاستدارة وذلك أن الدائر يحتاج إلى شىء ساكن فى وسط منه كالنقطة . فانقسم الجوهر ، فتحرك بعضه على الاستدارة ، وهو الفلك ، وسكن بعضه فى الوسط .

قال : وكل جسم يتحرك فيماسّ جسما ساكناً وفى طبيعته قبول التأثير منه ،

أحدث سخونة فيه ، وإذا سخن لطف وانحل وخف . فكانت طبيعة النار تلى الفلك المتحرك . والجسم الذى يلى النار يبعد عن الفلك ويتحرك بحركة النار ، فتكون حركته أقل ، فلا يتحرك بأجمعه لكن جزء منه ، فيسخن دون سخونة النار وهو الهواء . والجسم الذى يلى الهواء لا يتحرك لبعده عن المحرك له ، فهو بارد لسكونه ، ورطب لمجاورة الهواء الحار الرطب ، ولذلك انحل قليلا ، وهو الماء . والجسم الذى فى الوسط فإنه بعد فى الغاية عن الفلك ، ولم يستفد من حركته شيئاً ، ولاقبل منه تأثيراً ، فيبس ، وبرد ، وهو الأرض .

وإذ كانت هذه الأجسام تقبل التأثير بعضها من بعض ، وتختلط . يتولد عنها أجسام مركبة ، وهى المركبات المحسوسات التى هى المعادن والنبات والحيوان والإنسان. ثم يختص بكل نوع طبيعة خاصة تقبل فيضاً خاصاً على ماقدره البارى جلت قدرته .

المسألة الثالثة عشرة

فى الآثار العلوية

قال أرسطوطاليس : الذى يتصاعد من الأجسام السفلية إلى الجو ينقسم قسمين : أحدهما : أدخنة نارية بإسخان الشمس وغيرها . والثانى : أبخرة مائية فتصعد إلى الجو وقد صحبتها أجزاء أرضية ، فتتكاثف وتجتمع بسبب ريح أو غيرها ، فتصير ضباباً أو سحاباً ، فتصادفها برودة فتعصر ماء وثلجاً وبَرَداً ، فتنزل إلى مركز الماء . وذلك لاستحالة الأركان بعضها إلى بعض ، فكما أن الماء يستحيل هواء فيصعد ، كذلك الهواء يستحيل ماء فينزل . ثم الرياح والأدخنة إذا احتقنت فى خلال السحاب واندفعت مرة سمع لها صوت وهو الرعد ، ويلمع من اصطكاكها وشدة صدمتها ضياء وهو البرق . وقد يكون من الأدخنة ما تكون الدهنية على مادتها أغلب فيشتعل فيصير شهاباً ثاقباً ، وهى الشهب . ومنها ما يحترق فى الهواء فيتحجر فينزل حديداً أو حجراً . ومنها مايحترق ناراً فيدفعها دافع فينزل صاعقة . ومن المشتعلات ما يبقى فيه الاشتعال ، ووقف تحت

كوكب ، ودارت به النار الدائرة بدوران الفلك ، فكان ذنبا له ، وربما كان عريضاً فرئى كأنه لحية كوكب . وربما وقع على صقيل الظاهر من السحاب صور النيرات وأضواؤها كما يقع على المرئى والجدران الصقيلة فيرى ذلك على أحوال مختلفة ، بحسب اختلاف بعدها من النير وقربها ، وصفائها وكدورتها ؛ فيرى هالة وقوس قزح ، وشموس ، وشهب ، والمجرة . وذكر أسباب كل واحد من هذه فى كتابه المعروف بالآثار العلوية ، والسماء والعالم ، وغيرهما .

المسألة الرابعة عشرة

فى النفس الإنسانية الناطقة ، واتصالها بالبدن

قال : النفس الإنسانية ليست بجسم ولا قوة فى جسم . وله فى إثباتها مآخذ : منها الاستدلال على وجودها بالحركات الاختيارية . ومنها الاستدلال عليها بالتصورات العلمية .

أما الأول فقال : لا نشك أن الحيوان يتحرك إلى جهات مختلفة حركة اختيارية ، إذ لو كانت حركاته طبيعية أو قسرية ، لتحرك إلى جهة واحدة لا تختلف ألبتة . فلما تحركت إلى جهات متضادة علم أن حركاته اختيارية . والإنسان مع أنه مختار فى حركاته كالحيوان ، إلا أنه يتحرك لمصالح عقلية يراها فى عاقبة كل أمر ، فلا تصدر عنه حركاته إلا إلى غرض وكمال . وهو فى معرفته فى عاقبة كل حال . والحيوان ليست حركاته بطبعه على هذا النهج ، فيجب أن يتميز الإنسان بنفس خاص . كما تميز الحيوان على سائر الموجودات بنفس خاص .

وأما الثانى : وهو المعول عليه ، قال : إنا لا نشك أن نعقل ونتصور أمراً معقولا صرفا ، مثل المتصور من الإنسان أنه إنسان كلى يعم جميع أشخاص النوع . ومحل هذا المعقول جوهر ليس بجسم ولا قوة فى جسم أو صورة لجسم ، فإنه إن كان جسما فإما أن يكون محل الصورة المعقولة منه طرفا منه لا ينقسم ، أو جملته المنقسمة . وبطل أن يكون

طرفاً منه غير منقسم ؛ فإنه لو كان كذلك لـكان المحل كالنقطة التى لا تميز لها فى الوضع عن الخط ، فإن الطرف نهاية الخط : والنهاية لا يكون لها نهاية أخرى ، وإلا تسلسل القول فيه ، فيـكون النقط متشافعة ولـكل نهاية ، وذلك محال . وإن كان محل المعقول من الجسم شيئاً ينقسم ، فيجب أن ينقسم المعقول بانقسام محله . ومن المعقولات ما لا ينقسم ألبتة ، فإن ماينقسم يجب أن يكون شيئاً كالشكل والمقدار . والإنسانية الـكلية المتصورة فى الذهن ليست كشكل قابل للقطع ، ولا كمقدار قابل للفصل . فتبين أن النفس ليست بجسم ، ولا قوة فى جسم ، ولا صورة فى جسم .

المسألة الخامسة عشرة

فى وجه اتصالها بالبدن ، ووقت اتصالها

قال : إذا تحقق أنها ليست بجسم لم تتصل بالبدن اتصال انطباع فيه ، ولا حلول فيه ، بل اتصلت به اتصال تدبير وتصرف . وإنما حدثت مع حدوث البدن لا قبله ولا بعده . قال : لأنها لو كانت موجودة قبل وجود الأبدان لـكانت إما متكثرة بذواتها ، وإما متحدة . وبطل الأول ؛ فإن المتكثر إما أن يكون بالماهية والصورة ، وقد فرضناها متفقة فى النوع لا اختلاف فيها ، فلا تـكثر فيها ولا تمايز . وإما أن تـكون متكثرة من جهة النسبة إلى العنصر والمادة المتكثرة بالأمكنة والأزمنة ، وهذا محال أيضا . فإنا إذا فرضناها قبل البدن ماهية مجردة لا نسبة لها إلى مادة دون مادة . وهى من حيث إنهـا ماهية لا اختلاف فيها ، وأن الأشياء التى ذواتها معان تتـكثر تنوعاتها بالحوامل والقوابل والمنفعلات عنها . وإذا كانت مجردة فمحال أن يكون بينها مغايرة ومكاثرة .

ولعمرى إنها تبقى بعد البدن متكثرة ، فإن الأنفس قد وجد كل منها ذاتاً منفردة باختلاف موادّها التى كانت ، وباختلاف أزمنة حدوثها ، وباختلاف هيئات وملـكات حصلت عند الاتصال بالبدن ، فهى حادثة مع حدوث البدن ، تصيره نوعاً كسائر الفصول

للذاتية ، وباقية بعد مفارقة البدن بعوارض معينة له ؛ لم توجد تلك العوارض قبل اتصالها بالبدن . وبهذا الدليل فارق أستاذه ، وفارق قدماءه .

وقد وجد فى أثناء كلامه مايدل على أنه يعتقد أن النفس كانت موجودة قبل وجود الأبدان . فحمل بعض مفسرى كلامه قوله ذلك على أنه أراد به الفيض والصور الموجودة بالقوة فى واهب الصور ؛ كما يقال إن النار موجودة فى الحجر والشجر ، أو الإنسان موجود فى النطفة ، والنخلة موجودة فى النواة ، والضياء موجود فى الشمس . ومنهم من أجراه على ظاهره وحكم بالتمييز بين النفوس بالخواص التى لها . وقال : اختصت كل نفس إنسانية بخاصيةلم يشاركها فيها . فليست متفقة بالنوع ؛ أعنى النوع الأخير . ومنهم من حكم بالتمييز بالعوارض التى هى مهيأة نحوها ، وكما أنها تمايز بعد الاتصال بالبدن بأنها كانت متمايزة فى المادة ، كذلك تمايز بأنها ستكون متمايزة بالأبدان والصنائع والأفعال، واستعداد كل نفس لصنعة خاصة ، وعلم خاص فتنهض هذه فصولا ذاتية ، أو عوارض لازمة لوجودها .

المسألة السادسة عشرة

فى بقائها بعد البدن ، وسعادتها فى العالم العقلى

قال : إن النفوس الإنسانية إذا استكملت قوتى العلم والعمل تشبهت بالإله سبحانه وتعالى ، ووصلت إلى كمالها ، وإنما هذا التشبه بقدر الطاقة يكون إما بحسب الاستعداد ، وإما بحسب الاجتهاد . فإذا فارق البدن اتصل بالروحانيين ، وانخرط فى سلك الملائكة المقربين ، ويتم له الالتذاذ والابتهاج ، وليس كل لذة فهى جسمانية ؛ فإن تلك اللذات لذات نفسانية عقلية ، وهذه اللذة الجسمانية تنتهى إلى حد ، ويعرض للملتذ سآمة وكلال وضعف وقصور إن تعدى عن الحد المحدود ، بخلاف اللذات العقلية؛ فإنها حيثما ازدادت ازداد الشوق والحرص والعشق إليها .

وكذلك القول فى الآلام النفسانية ، فإنها تقع بالضد مما ذكرنا . ولم يحقق المعاد إلا للأنفس ، ولم يثبت حشراً ، ولا نشراً ، ولا انحلالا لهذا الرباط المحسوس من العالم ، ولا إبطالا لنظامه كما ذكره القدماء .

* * *

فهذه نكت كلامه استخرجناها من مواضع مختلفة ، وأكثرها من شرح ثامسطيوس وكلام الشيخ أبى على بن سينا الذى يتعصب له ، وينصر مذهبه ، ولا يقول من القدماء إلا به .

وسنذكر طريقة ابن سينا عند ذكر فلاسفة الإسلام إن شاء الله تعالى .

ونحن الآن ننقل كلمات حكمية لأصحاب أرسطوطاليس ومن نسج على منواله بعده دون الآراء العلمية ، إذ لاخلاف بينهم فى الآراء والعقائد .

* * *

ووجدت كلمات وفصولا للحكيم أرسطوطاليس من كتب متفرقة ، فنقلتها على الوجه الذى وجدت ، وإن كان فى بعضها ما يدل على أن رأيه على خلاف ما نقله ثامسطيوس واعتمده ابن سينا .

منها فى حدوث العالم ، قال : الأشياء المحمولة أعنى الصور المتضادة ؛ فليس يكون أحدها من صاحبه ، بل يجب أن يكون بعد صاحبه فيتعاقبان على المادة ، فقد بان أن الصورة تدثر وتبطل ، وإذا دثر معنى وجب أن يكون له بدء ، لأن الدثور غاية . وهو أحد الجانبين يدل على أن جائياً جاء به . فقد صح أن الكون حادث لامن شىء ، وأن الحامل لها غير ممتنع الذات من قبولها وحمله إياها ، وهى ذات بدء وغاية ، يدل على أن حاملها ذو بدء وغاية ، وأنه حادث لا من شىء ، ويدل على محدث لا بدء له ولا غاية ، لأن الدثور آخر ، والآخر ما كان له أول . فلو كانت الجواهر والصور لم يزالا فغير جائز استحالتهما ؛ لأن الاستحالة دثور الصورة التى بها كان الشىء .

وخروج الشيء من حد إلى حد ،ومن حال إلى حال يوجب دثور الكيفية ، وتردد المستحيل فى الكون والفساد يدل على دثوره ، وحدوث أحواله يدل على ابتدائه ، وابتداء جزئه يدل على بدء كله . وواجب إن قبل بعض ما فى العالم الكون والفساد أن يكون كل العالم قابلا له ، وكان له بدء يقبل الفساد ، وآخر يستحيل إلى كون ، فالبدء والغاية يدلان على مبدع .

وقد سأل بعض الدهرية أرسطوطاليس وقال : إذا كان لم يزل ولا شيء غيره ثم أحدث العالم فلم أحدثه ؟ فقال له : « لمَ » غير جائزة عليه ، لأن « لمَ » تقتضى علة ، والعلة محمولة فيما هى علة له من معل فوقه ، ولا علة فوقه ، وليس بمركب فتحمل ذاته العلل . فلِمَ عنه منتفية ، فإنما فعل ما فعل ، لأنه جواد . فقيل : فيجب أن يكون فاعلا لم يزل لأنه جواد لم يزل . قال : معنى « لم يزل » أن لا أول . وفعَل يقتضى أولا . واجتماع مالا أول له ، وذى أول فى القول والذات محال متناقض . قيل له : فهل يبطل هذا العالم ؟ قال : نعم . قيل : فإذا أبطله بطل الجود ؟ قال : سيبطله ليصوغه الصيغة التى لا تحتمل الفساد ، لأن هذه الصيغة تحتمل الفساد . تم كلامه .

ويعزى هذا الفصل إلى سقراطيس ، قاله لبقراطيس ، وهو بكلام القدماء أشبه .

ومما نقل عن أرسطوطاليس تحديده العناصر الأربعة ، قال : الحارّ ما خلط بعض ذوات الجنس ببعض ، وفرق بين بعض ذوات الجنس من بعض .

وقال : البارد ما جمع بين ذوات الجنس وغير ذوات الجنس ، لأن البرودة إذا جمدت الماء حتى يصير جليداً اشتملت على الأجناس المختلفة من الماء والنبات وغيرهما .

قال : والرطب العسير الانحصار من ذاته ، اليسير الانحصار من ذات غيره . واليابس : اليسير الانحصار من ذاته ، والعسير الانحصار من ذات غيره ، والحدّان الأولان يدلان على الفعل ، والآخران يدلان على الانفعال . ونقل أرسطوطاليس عن جماعة من الفلاسفة : أن مبادئ الأشياء هى العناصر الأربعة . وعن بعضهم : أن المبدأ

الأول هو ظلمة وهاوية ، وفسره بفضاء وخلاء وعماية . وقد أثبت قوم من النصارى تلك الظلمة وسموها : الظلمة الخارجة .

ومما خالف أرسطوطاليس أستاذه أفلاطون : أن أفلاطون قال : من الناس من يكون طبعه مهيأ لشيء لا يتعداه . فخالفه وقال : إذا كان الطبع سليما صلح لكل شيء . وكان أفلاطون يعتقد أن النفوس الإنسانية أنواع يتهيأ كل نوع لشيء مّا لا يتعداه ، وأرسطوطاليس يعتقد أن النفوس الإنسانية نوع واحد ، وإذا تهيأ صنف لشيء تهيأ له كل النوع ، والله الموفق .

٢ — حكم الإسكندر الرومى

وهو ذو القرنين الملك ، وليس هو المذكور فى القرآن ، بل هو ابن فيلبوس الملك . وكان مولده فى السنة الثالثة عشرة من ملك دارا الأكبر . سلمه أبوه إلى أرسطوطاليس الحكيم المقيم بمدينة إينياس ، فأقام عنده خمس سنين يتعلم منه الحكمة والأدب حتى بلغ أحسن المبالغ ، ونال من الفلسفة مالم ينله سائر تلاميذه ، فاسترده والده حين استشعر من نفسه علة خاف منها . فلما وصل إليه جدد العهد له ، وأقبل عليه ، واستولت عليه العلة فتوفى ، واستقل الإسكندر بأعباء الملك .

فمن حكمه : أنه سأله معلمه وهو فى المكتب : إنْ أفضى إليك هذا الأمر يوماً ما فأين تضعنى ؟ قال بحيث تضعك طاعتك فى ذلك الوقت .

وقيل له : إنك تعظم مؤدبك أكثر من تعظيمك والدك ! قال : لأن أبى كان سبب حياتى الفانية ، ومؤدبى هو سبب حياتى الباقية ، وفى رواية : لأن أبى كان سبب حياتى ، ومؤدبى سبب تجويد حياتى ، وفى رواية : لأن أبى كان سبب كونى ، ومؤدبى كان سبب نطقى .

وقال أبو زكريا الصيمرى : لو قيل لى هذا لقلت : لأن أبى كان قضى وطراً

بالطبيعة التى اختلفت بالكون والفساد ، ومؤدبى أفادنى العقل الذى به انطلقت إلى ما ليس فيه كون ولا فساد .

وجلس الإسكندر يوماً فلم يسأله أحد حاجة ، فقال لأصحابه : والله ما أعدّ هذا اليوم من أيام عمرى فى ملكى . قيل : ولم أيها الملك ؟ قال : لأن الملك لا يوجد التلذذ به إلا بالجود على السائل ، وإغاثة الملهوف ، ومكافأة المحسن ، وإلا بإنالة الراغب ، وإسعاف الطالب .

وكتب إليه أرسطوطاليس فى كلام طويل : اجمع فى سياستك بين بِدَارٍ[1] لا حدّة فيه ، ورَيْثٍ لا غفلة معه ، وامزج كل شكل بشكله حتى يزداد قوة وعزة عن ضده حتى يتميز لك بصورته ، وصن وعدك عن الخلف فإنه شين ، وشُبْ وعيدك بالعفو فإنه زين ، وكن عبداً للحق ، فإن عبد الحق حر ، وليكن وكدك[2] الإحسان إلى جميع الخلق ، ومن الإحسان وضع الإساءة فى موضعها . وأظهر لأهلك أنك منهم ، ولأصحابك أنك بهم ، ولرعيتك أنك لهم .

وتشاور الحكماء فى أن يسجدوا له إجلالا وتعظيما ، فقال : لاسجود لغير بارىء الكل ، بل يحق له السجود على من كساه بهجة الفضائل .

وأغلظ له رجل من أهل أثينية فقام إليه بعض قواده ليقابله بالواجب ، فقال له الإسكندر : دعه ، لا تنحط إلى دناءته ، ولكن ارفعه إلى شرفك .

وقال الإسكندر : من كنت تحب الحياة لأجله فلا تستعظم الموت بسببه .

وقيل له : إن « روشنك » امرأتك بنت دارا الملك ، وهى من أجمل النساء ، فلو قربتها إلى نفسك ! قال : أكره أن يقال : غلب الإسكندر دارا ، وغلبت روشنك الإسكندر .

---

(١) بادر بداراً : أسرع .
(٢) الوكد : القصد والممارسة .

وقال : من الواجب على أهل الحكمة أن يسرعوا إلى قبول اعتذار المذنبين ، وأن يبطئوا عن العقوبة .

وقال : سلطان العقل على باطن العاقل ، أشد تحكما من سلطان السيف على ظاهر الأحمق .

وقال : ليس الموت بألم للنفس ، بل للجسد .

وقال ؛ الذى يريد أن ينظر إلى أفعال الله عزّ وجلّ مجردة ، فَلْيَعِفَّ عن الشهوات.

وقال : إن نظم جميع مافى الأرض شبيهة بالنظم السماوية ، لأنها أمثال له بحق .

وقال : العقل لا يألم فى طلب معرفة الأشياء ، بل الجسد يألم ويسأم .

وقال : النظر فى المرآة يرى رسم الوجه ؛ وفى أقاويل الحكماء يرى رسم النفس .

ووجدت فى عضده صحيفة فيها : قلة الاسترسال إلى الدنيا أسلم ، والاتكال على القدر أروح وعند حسن الظن تقر العين ، ولا ينفع مما هو واقع التوقى .

وقال بعضهم عنه : إنه أخذ يوماً تفاحة فقال : ماألطف قبول هذه الهيولى الشخصية لصورتها ، وانفعالها لما تؤثر الطبيعة فيها من الأوضاع الروحانية : من تركيب بسيط ، وبسط مركب ، حسب تمثيل النفس لها . كل ذلك دليل على إبداع مبدع الكل وإله الكل . ولو قيل : وألطف منها قبول هذه النفس الإنسانية لصورتها العقلية ، وانفعالها لما تؤثر النفس الكلية فيها من العلوم الروحانية : من تركيب بسيط ، وبسط مركب حسب تمثيل العقل لها ، وكل ذلك دليل على إبداع مبدع الكل ، وإله الكل .

وسأله أطوسايس الكلبي أن يعطيه ثلاث حبات . فقال الإسكندر : ليست هذه عطية ملك . فقال الكلبي : أعطنى مائة رطل من الذهب . فقال : ولا هذه مسألة كلبي .

وقال بعضهم : كنا عند شبر المنجم إذ وصل إلينا الاسكندر الملك فأقامنا فى جوف الليل ، وأدخلنا بستاناً له ليرينا النجوم . فجعل شبر يشير إليها بيده ويسير حتى سقط فى بئر فقال : من تعاطى علم ما فوقه بلى بجهل ما تحته .

وقال : السعيد من لا يعرفنا ولا نعرفه ، لأنا إذا عرفناه أطلنا يومه ، وأطرنا نومه .

وقال : استقلل كثير ما تعطى ، واستكثر قليل ما تأخذ ، فإن قرة عين الكريم فيما يعطى ، ومسرة اللئيم فيما يأخذ ، ولا تجعل الشحيح أميناً ، ولا الكذاب صفياً ، فإنه لا عفة مع شح ، ولا أمانة مع كذب .

وقال : الظفر بالحزم ، والحزم بإجالة الرأى ، وإجالة الرأى بتحصين الأسرار .

ولما توفى الإسكندر برومية المدائن وضعوه فى تابوت من ذهب وحملوه إلى الاسكندرية وكان قد عاش اثنتين وثلاثين سنة ، وملك اثنتى عشرة سنة ، وندب جماعة من الحكماء لندبته .

فقال بليموس : هذا يوم عظيم العبرة ، أقبل من شره ما كان مدبراً ، وأدبر من خيره ما كان مقبلا . فمن كان باكياً على من قد زال ملكه فليبكه .

وقال ميلاطوس : خرجنا إلى الدنيا جاهلين ، وأقمنا فيها غافلين ، وفارقناها كارهين .

وقال زينون الأصغر : يا عظيم الشأن ! ما كنت إلا ظل سحاب اضمحل لما أظل ، فما نحس للملك أثراً ، ولا نعرف له خبراً .

وقال أفلاطن الثانى : أيها الساعى المغتصب ، جمعت ما خذلك ، وتوليت ما تولى عنك ، فلزمتك أوزاره ، وعاد على غيرك مهنؤه وثماره .

وقال فوطس : ألا تتعجبون ممن لم يعظنا اختياراً حتى وعظنا بنفسه اضطرارا .

وقال مسطورس : قد كنا بالأمس نقدر على الاستماع ولا نقدر على القول ، واليوم نقدر على القول ، فهل نقدر على الاستماع ؟

وقال ثاون : انظروا إلى حلم النائم كيف انقضى ؟ وإلى ظل الغمام كيف انجلى ؟

وقال سوس : كم قد أمات هذا الشخص لئلا يموت فمات ، فكيف لم يدفع الموت عن نفسه بالموت ؟

وقال حكيم : طوى الأرض العريضة فلم يقنع حتى طوى منها فى ذراعين .

وقال آخر : ما سافر الإسكندر سفراً بلا أعوان ، ولا آلة ولاعدة غير سفره هذا .
وقال آخر : ما أرغبنا فيما فارقت ، وأغفلنا عما عاينت .
وقال آخر : لم يؤدبنا بكلامه كما أدبنا بسكوته .
وقال آخر : من ير هذا الشخص فليتق ، وليعلم أن الديون هكذا قضاؤها .
وقال آخر : قد كان بالأمس طلعته علينا حياة ، واليوم النظر إليه سقم .
وقال آخر : قد كان يسأل عما قبله ، ولا يسأل عما بعده .
وقال آخر : من شدة حرصه على الارتفاع انحط كله .
وقال آخر : الآن تضطرب الأقاليم لأن مُسَكِّنَهَا قد سكن .
وقال آخر : الآن وقت الانصراف ، لأن الأشخاص يتوجهون من دار إلى دار ، والله تعالى يبقى ولا يفنى .

٣ — حكم دِيُوجانس الكلبي

وكان حكيما فاضلا ، متقشفاً لايقتنى شيئاً ، ولايأوى إلى منزل ، وكأنه من قدرية الفلاسفة لما يوجد فى مدارج كلامه من الميل إلى القدر . قال : ليس الله تعالى علة الشرور ، بل الله تعالى علة الخيرات والفضائل والجود والعقل . جعلها بين خلقه ، فمن كسبها وتمسك بها نالها ، لأنه لايدرك الخيرات إلا بها .

وسأله الإسكندر يوماً فقال : بأى شيء يكتسب الثواب ؟ قال : بأفعال الخيرات ، وإنك لتقدر أيها الملك أن تكتسب فى يوم واحد مالاتقدر الرعية أن تكسبه فى دهرها .

وسأله عصبة من أهل الجهل : ما غذاؤك ؟ قال : ماعفتم[1] ، يعنى الحكمة .
قالوا : فما عفت ؟ قال : ما استطبتم ، يعنى : الجهل . قالوا : كم عبداً لك ؟
قال : أربابكم ، يعنى : الغضب ، والشهوة ، والأخلاق الرديئة الناشئة منهما .
وقالوا له يوماً : ما أقبح صورتك ، قال : لم أملك الخلقة الذميمة فألام عليها ،

(١) عاف الرجل الطعام والشراب يعافه عيافة : كرهه .

ولا ملكتم الخلقة الحسنة فتحمدوا عليها . وأما ما صار فى ملكى وأتى عليه تدبيرى فقد استكملت تزيينه وتحسينه بغاية الطوق[1] ، وقاصية الجهد . واستكملتم شين ما فى ملككم.

قالوا : فما الذى فى الملك من التزيين والتهجين ؟ قال : أما التزيين فعمارة الذهن بالحكمة ، وجلاء العقل بالأدب ، وقمع الشهوة بالعفاف ، وردع الغضب بالحلم ، وقطع الحرص بالقنوع ، وإماتة الحسد بالزهد ، وتذليل المرح بالسكون ، ورياضة النفس حتى تصير مطية قد ارتاضت فتصرفت حيث صرفها فارسها فى طلب العليات ، وهجر الدنيات . ومن التهجين : تعطيل الذهن من الحكمة ، وتوسيخ العقل بضياع الأدب ، وإثارة الشهوة باتباع الهوى ، وإضرام الغضب بالانتقام ، وإمداد الحرص بالطلب .

وقدم إليه رجل طعاماً وقال له : استكثر منه ، فقال : عليك بتقديم الأكل ، وعلينا باستعمال العدل .

وقال : زمام العافية بيد البلاء ، ورأس السلامة تحت جناح العطب ، وباب الأمن مستور بالخوف ، فلا تكونن فى حال من هذه الثلاث غير متوقع لضدها .

وقيل له : مالك لا تغضب ؟ قال : أما غضب الإنسانية فقد أغضبه ، وأما غضب البهيمية فقد تركته لترك الشهوة البهيمية .

واستدعاه الملك الإسكندر يوماً إلى مجلسه ، فقال للرسول : قل له إن الذى منعك من المصير إلينا هو الذى منعنا من المصير إليك ؛ منعك استغناؤك عنى بسلطانك ، ومنعنى استغنائى عنك بقناعتى .

وعابته امرأة يونانية بقبح الوجه ودمامة الصورة ، فقال : منظر الرجال بعد المخبر ، ومخبر النساء بعد المنظر ، فخجلت وتابت .

ووقف عليه الإسكندر يوماً فقال له : ما تخافنى ؟ قال : أنت خيِّر أم شرير ؟ قال : بل خير ، قال : فما لخوفى من الخيِّر معنى ، بل يجب علىّ رجاؤه .

---

(١) طاق يطوق طوقاً الشىء : قدر عليه ، فالطوق هنا بمعنى : الطاقة والقدرة .

وكان لأهل مدينة من بلاد يونان صاحب جيش جبان ، وطبيب لم يعالج أحداً إلاقتله ، فظهر عليهم عدو ، ففزعوا إليه فقال: اجعلوا طبيبكم صاحب لقاء العدو، واجعلوا صاحب جيشكم طبيبكم .

وقال : اعلم أنك ميت لا محالة ، فاجتهد أن تكون حياً بعد موتك ، لئلا تكون لميتتك ميتة ثانية .

وقال : كما أن الأجسام تعظم فى العين فى اليوم الضباب ، كذلك تعظم الذنوب عند الإنسان فى حال الغضب .

وسئل عن العشق ، فقال : هو اختيار صادف نفساً فارغة .

ورأى غلاماً معه سراج فقال له : تعلم من أين تجىء هذه النار ؟ فقال له الغلام : إن أخبرتنى إلى أين تذهب ، أخبرك من أين تجىء ، فأعياه وأفحمه بعد أن لم يكن يقوى عليه أحد .

ورأى امرأة قد حملها الماء فقال : على هذا المعنى جرى المثل ؛ دع الشر يغسله الشر.

ورأى امرأة تحمل ناراً فقال : نار على نار ، وحاملُ شرٍّ من محمول .

ورأى امرأة متزينة فى ملعب فقال : لم تخرج لِترَى ولكن لِترُى .

ورأى نساء يتشاورن فقال : على هذا جرى المثل ؛ هو ذا الثعبان يستقرض من الأفاعى سماً .

ورأى جارية تتعلم الكتابة فقال : يُسْقَى هذا السَّهْمُ سماً لِيُرْمَى به يوماً ما .

ورأى امرأة ضاحكة فقال : لو كنت تدرين الموت لما كنت ضاحكة أبداً .

وقال للإسكندر يوماً ، وكان يقربه ويدنيه ويأنس بكلامه : أيها الملك قد أمنت الفقر ، فليكن غناك اقتناء الحمد ، وابتغاء المجد .

٤ — حكم الشيخ اليونانى

وله رموز وأمثال . منها قوله : إن أمك رءوم لكنها فقيرة رعناء . وإن أباك لحدث لكنه جواد مقدر . يعنى بالأم الهيولى ، وبالأب الصورة ، وبالرءوم انقيادها ، وبالفقر احتياجها إلى الصورة . وبالرعونة قلة ثباتها على ما تحصل عليه ، وأما حداثة الصورة أى هى مشرقة لك بملابسة الهيولى .

وأما جودها : أى النقص لا يعتريها من قبل ذاتها ، فإنها جواد ، لكن من قبل قبول الهيولى ، فإنها إنما تقبل على تقديرها ، وهذا ما فسر به رمزه ولغزه .

وحمل الأم على الهيولى صحيح مطابق للمعنى ، وليس حمل الأب على الصورة بذلك الوضوح ، بل حمله على العقل الفعال الجواد ، الواهب للصور على قدر استعدادات القوابل أظهر .

وقال : لك نسبان : نسب إلى أبيك ، ونسب إلى أمك . أنت بأحدهما أشرف ، وبالآخر أوضع . فانتسب فى ظاهرك وباطنك إلى من أنت به أشرف ، وتبرأ فى باطنك وظاهرك ممن أنت به أوضع . فإن الولد الفسل[1] يحب أمه أكثر مما يحب أباه . وذلك دليل على دخل العِرْق ، وفساد المحتد . قيل : أراد بذلك الهيولى والصورة ، أو البدن والنفس ، أو الهيولى والعقل الفعال .

وقال : قد ارتفع إليك خصمان منك يتنازعان فيك ؛ أحدهما محق ، والآخر مبطل، فأحذر أن تقضى بينهما بغير الحق فتهلك أنت .

والخصمان أحدهما : العقل ، والثانى : الطبيعة .

وقال : كما أن البدن الخالى من النفس يفوح منه نتن الجيفة ، كذلك النفس الخالية من الأدب يحس نقصها بالكلام والأفعال .

وقال : الغائب المطلوب فى طى الشاهد الحاضر ، وقال أبو سليمان السجزى : مفهوم

---

(١) الفسل : الضعيف ، الأحمق ، الذى لا مروءة له ولا جلد .

هذا الإطلاق أن كل ما هو عندنا بالحس ههنا ، فهو بالعقل لنا هناك ، إلا أن الذى عندنا ظل ذاك ؛ ولأن من شأن الظل أنه كما يريك الشىء الذى هو ظله مرة فاضلا عما هو عليه ، ومرة قالصاً عما هو به ، ومرة على قدره ، عرض الحسبان والتوهم وصارا مزاحمين لليقين والتحقيق ، فينبغى أن تكون عنايتنا بطلب البقاء الأبدى ، والوجود السرمدى أتم وأظهر وأبقى وأبلغ . فبالحق ما كان الغائب على الشاهد ، وبتصفح هذا الشاهد يصح ذلك الغائب .

وقال الشيخ اليونانى : النفس جوهر كريم شريف ، يشبه دائرة قد دارت على مركزها ، غير أنها دائرة لا بعد لها ، ومركزها هو العقل . وكذلك العقل هو كدائرة قد استدارت على مركزها ، وهو الخير الأول المحض . غير أن النفس والعقل وإن كانا دائرتين ، لكن دائرة العقل لا تتحرك أبداً ، بل هى ساكنة ذاتية ، شبيهة بمركزها . وأما دائرة النفس فإنها تتحرك على مركزها،وهو العقل،حركة الاستكمال، على أن دائرة العقل وإن كانت دائرة شبيهة بمركزها لكنها تتحرك حركة الاشتياق ، لأنها تشتاق إلى مركزها وهو الخير الأول . وأما دائرةالعالم السفلى فإنها تدور حول النفس ، وإليها تشتاق . وإنما تتحرك بهذه الحركة الذاتية شوقاً إلى النفس كشوق النفس إلى العقل ، وشوق العقل إلى الخير المحض الأول ، ولأن دائرة هذا العالم جرم ، والجرم يشتاق إلى الشىء الخارج منه ويحرص على أن يصير إليه فيعانقه . فلذلك يتحرك الجرم الأقصى الشريف حركة مستديرة لأنه يطلب النفس من جميع النواحى لينالها فيستريح إليها ويسكن عندها .

وقال : ليس للمبدع الأول تعالى صورة ولا حلية مثل صور الأشياء العالية ، ولا مثل صور الأشياء السافلة . ولا له قوة مثل قواها ، لكنه فوق كل صورة وحلية وقوة ، لأنه مبدعها بتوسط العقل .

وقال : المبدع الحق ليس شيئاً من الأشياء ، وهو جميع الأشياء ، لأن الأشياء منه . وقد صدق الأفاضل الأوائل فى قولهم : مالك الأشياء كلها ، هو الأشياء كلها ، إذ هو علة

كونها بآنيته فقط ، وعلة شوقها إليه . وهو خلاف الأشياء كلها ، وليس فيه شيء مما أبدعه ، ولا يشبه شيئاً منه . ولو كان كذلك لما كان علة الأشياء كلها ، وإذا كان العقل واحداً من الأشياء فليس فيه عقل ، ولا صورة ، ولا حلية .

أبدع الأشياء بآنيته فقط ، وبآنيته يعلمها ويحفظها ، ويدبرها ، لا بصفة من الصفات . وإنما وصفناه بالحسنات والفضائل لأنه علتها ، وأنه الذى جعلها فى الصور ، فهو مبدعها .

قال : وإنما تفاضلت الجواهر العالية العقلية ، لاختلاف قبولها من النور الأول جل وعز ؛ فلذلك صارت ذوات مراتب شتى ، فمنها ما هو أول فى المرتبة ، ومنها ما هو ثان ، ومنها ما هو ثالث . فاختلفت الأشياء بالمراتب والفصول ، لا بالمواضع والأماكن ؛ وكذلك الحواس تختلف بأماكنها على أنها القوى الحاسة ، فإنها مما لا يفترق بمفارقة الآلة .

وقال : المبدع ليس بمتناه ، لا كأنه جثة بسيطة ، وإنما عظم جوهره بالقوة والقدرة ، لا بالكمية والمقدار ؛ فليس للأول صورة ولا حلية ولا شكل ؛ فلذلك صار محبوباً معشوقاً تشتاقه الصور العالية والسافلة ؛ وإنما اشتاقت إليه صور جميع الأشياء ، لأنه أبدعها وكساها من وجوده حلية الوجود .

وهو قديم دائم على حاله لا يتغير . والعاشق يحرص على أن يصير إليه ، ويكون معه . وللمعشوق الأول عشاق كثيرون . وقد يفيض عليهم كلهم من نوره من غير أن ينقص منه شيء ، لأنه ثابت ، قائم بذاته لا يتحرك .

وأما المنطق الجزئى : فإنه لا يعرف الشيء إلا معرفة جزئية . وشوق العقل الأول إلى المبدع الأول أشد من شوق سائر الأشياء ، لأن الأشياء كلها تحته . وإذا اشتاق إليه العقل لم يقل للعقل لم صرت مشتاقاً إلى الأول ؟ إذ العشق لا علة له .

وأما المنطق الذى يختص بالنفس فيفحص عن ذلك ويقول : إن الأول هو المبدع

الحق ، وهو الذى لا صورة له ، وهو مبدع الصور ، فالصور كلها تحتاج إليه ، وتشتاق إليه ؛وذلك أن كل صورة تطلب مصورها وتحن إليه .

وقال : إن الفاعل الأول أبدع الأشياء كلها بغاية الحكمة ، لا يقدر أحد أن ينال علل كونها ، ولم كانت على الحال التى هى الآن عليها ، ولا أن يعرفها كنه معرفتها ، ولم صارت الأرض فى الوسط ، ولم كانت مستديرة ولم تكن مستطيلة ولا منحرفة ، إلا أن يقول : إن البارى صيرها كذلك ، وإنما كانت بغاية الحكمة الواسعة لكل حكمة .

وكل فاعل يفعل بروية وفكرة ، لا بآنيته فقط بل يفصل فيه ، فلذلك يكون فعله لا بغاية الثقافة والإحكام . والفاعل الأول لا يحتاج فى إبداع الأشياء إلى روية وفكر ، وذلك أنه ينال العلل بلا قياس ، بل يبدع الأشياء ويعلم عللها قبل الروية والفكر . والعلل والبرهان والعلم والقنوع ، وسائر ما أشبه ذلك ، إنما كانت أجزاء ، وهو الذى أبدعها ، وكيف يستعين بها وهى لم تكن بعد ؟ !

٥ — حِكَمُ ثَاوُفْرَسْطِيس

كان هذا الرجل من كبار تلامذة أرسطوطاليس وكبار أصحابه ، واستخلفه على كرسى حكمته بعد وفاته . وكانت المتفلسفة فى عهده تختلف إليه وتقتبس منه . وله كتب الشروح الكثيرة والتصانيف المعتبرة ، وبالخصوص فى الموسيقات .

فما يؤثر عنه أنه قال : الإلهية لا تتحرك ، ومعناه لا تتغير ولا تتبدل لا فى الذات ، ولا فى سنة الأفعال .

وقال : السماء مسكن الكواكب ، والأرض مسكن الناس على أنهم مثل وشبهٌ لما فى السماء ، فهم الآباء والمدبرون ، ولهم نفوس وعقول مميزة ليس لها أنفس نباتية ، فلذلك لا تقبل الزيادة ولا النقصان .

وقال : الغناء فضيلة فى المنطق أشكلت على النفس وقصرت عن تبيين كنهها فأبرزتها لحونا ، وأثارت بها شجونا ، وأضمرت فى عرضها فنوناً وفتونا .

وقال : الغناء شيء يخص النفس دون الجسد فيشغلها عن مصالحها ، كما أن لذة المأكول والمشروب شيء يخص الجسم دون النفس .

وقال : إن النفوس إلى اللحون ، إذا كانت محجبة ، أشد إصغاء منها إلى ما قد تبين لها ، وظهر معناه عندها .

وقال : إن العقل نحوان : أحدهما مطبوع ، والآخر مسموع . فالمطبوع منه كالأرض والمسموع منه كالبذر والماء ، فلا يخلص للعقل المطبوع عمل دون أن يرد عليه العقل المسموع فينبهه من نومه ، ويطلقه من وثاقه ، ويقلقله من مكانه ، كما يستخرج البذر والماء ما فى قعر الأرض .

وقال : الحكمة غنى النفس ، والمال غنى البدن ، وطلب غنى النفس أولى ، لأنها إذا غنيت بقيت . والبدن إذا غنى فنى ، وغنى النفس ممدود ، وغنى البدن محدود .

وقال : ينبغى للعاقل أن يدارى الزمن مداراة رجل لا يسبح فى الماء الجارى إذا وقع .

وقال : لا يغبطن بسلطان من غير عدل ، ولا بغنى من غير حسن تدبير ، ولا ببلاغة من غير صدق منطق ، ولا بجود فى غير إصابة موضع ، ولا بأدب من غير أصالة رأى ، ولا بحسن عمل فى غير حينه .

٦ — شُبَهُ بُرُقْلُس فى قِدَم العالم

إن القول فى قدم العالم وأزلية الحركات بعد إثبات الصانع ، والقول بالعلة الأولى إنما شهر بعد أرسطوطاليس ، لأنه خالف القدماء صريحاً ، وأبدع هذه المقالة على قياسات ظنها حجة وبرهانا ، فنسج على منواله من كان من تلامذته وصرحوا القول فيه ؛ مثل الإسكندر الأفروديسى ، وثامسطيوس ، وفورفوريوس .

وصنف برقلس المنتسب إلى أفلاطون فى هذه المسألة كتاباً وأورد فيه هذه الشبه ، وإلا فالقدماء إنما أبدوا فيه ما نقلناه سالفا .

الشبهة الأولى : قال : إلى البارى تعالى جواد بذاته ، وعلة وجود العالم جوده ، وجوده قديم لم يزل ، فيلزم أن يكون وجود العالم قديماً لم يزل .

قال : ولا يجوز أن يكون مرة جوادا ، ومرة غير جواد ، فإنه يوجب التغير فى ذاته . فهو جواد لذاته ، لم يزل . قال : ولا مانع من فيض جوده ، إذ لو كان مانع لما كان من ذاته بل من غيره . وليس لواجب الوجود لذاته حامل على شىء ، ولا مانع من شىء .

الشبهة الثانية : قال : ليس يخلو الصانع من أن يكون لم يزل صانعاً بالفعل . أو لم يزل صانعاً بالقوة ، أى يقدر أن يفعل ولا يفعل . فإن كان الأول فالمصنوع معلول لم يزل . وإن كان الثانى فما بالقوة لا يخرج إلى الفعل إلا بمخرج . ومخرج الشىء من القوة إلى الفعل غير ذات الشىء ، فيجب أن يكون له مخرج من خارج يؤثر فيه ، وذلك ينافى كونه صانعا مطلقا لا يتغير ولا يتأثر .

الشبهة الثالثة : قال : كل علة لا يجوز عليها التحرك والاستحالة فإنما تكون علة من جهة ذاتها لا من جهة الانتقال من غير فعل إلى فعل ، وكل علة من جهة ذاتها فمعلولها من جهة ذاتها . وإذا كانت ذاتها لم تزل فمعلولها لم يزل .

الشبهة الرابعة : قال : إن الزمان لا يكون موجوداً إلا مع الفلك ، ولا الفلك إلا مع الزمان ، لأن الزمان هو العادّ لحركات الفلك ، ثم لا يجوز أن يقال متى وقبل إلا حين يكون الزمان ، ومتى وقبل أبدىّ . فالزمان أبدىّ ، فحركات الفلك أبدية ، فالفلك أبدىّ .

الشبهة الخامسة : قال : إن العالم حسن النظام ، كامل القوام . وصانعه جواد خير ، ولا ينقض الجيد الحسن إلا شرير . وصانعه ليس بشرير ، وليس يقدر على نقضه غيره ، فليس ينتقض أبداً ، ومالا ينتقض أبداً كان سرمداً .

الشبهة السادسة : قال لما كان الكائن لا يفسد إلا بشيء غريب يعرض له ، ولم يكن شيء غريب عن العالم خارجا منه يجوز أن يعرض فيفسد : ثبت أنه لا يفسد ، ومالا يتطرق إليه الفساد لا يتطرق إليه الكون والحدوث ، فإن كل كائن فاسد .

الشبهة السابعة : قال : إن الأشياء التي هى فى المكان الطبيعى لا تتغير ، ولا تتكون ولا تفسد . وإنما تتغير وتتكون وتفسد إذا كانت فى أماكن غريبة فتتجاذب إلى أماكنها ؛ كالنار التى فى أجسادنا تحاول الانفصال إلى مركزها ، فينحل الرباط فيفسد ، إذ الكون والفساد إنما يتطرق إلى المركبات ، لا إلى البسائط التى هى أركان فى أماكنها ، ولكنها هى بحالة واحدة ، وما هو بحال واحدة فهو أزلى .

الشبهة الثامنة : قال : العقل والنفس والأفلاك تتحرك على الاستدارة ، والطبائع تتحرك إما عن الوسط ، وإما إلى الوسط على الاستقامة . وإذا كان كذلك كان التفاسد فى العناصر إنما هو لتضاد حركاتها . والحركة الدورية لا ضد لها ، فلم يقع فيها فساد . قال : وكليات العناصر إنما تتحرك على استدارة ، وإن كانت الأجزاء منها تتحرك على الاستقامة . فالفلك وكليات العناصر لا تفسد ، وإذا لم يجز أن يفسد العالم لم يجز أن يتكون .

وهذه الشبهات هى التى يمكن أن يقال عنها فتنقض، وفى كل واحدة منها نوع مغالطة، وأكثرها تحكمات. وقد أفردت لها كتابا أوردت فيه شبهات أرسطوطاليس، وهذه، وتقريرات أبى على بن سينا، ونقضتها على قوانين منطقية، فليطلب ذلك.

ومن المتعصبين لبرقلس من مهد له عذراً فى ذكر هذه الشبهات، وقال: إنه كان يناطق الناس منطقين: أحدهما: روحانى بسيط، والآخر جسمانى مركب. وكان أهل زمانه الذين يناطقونه جسمانيين. وإنما دعاه إلى ذكر هذه الأقوال مقاومتهم إياه، فخرج من طريق الحكمة والفلسفة من هذه الجهة، لأن من الواجب على الحكيم أن يظهر العلم على طرق كثيرة، يتصرف فيها كل ناظر بحسب نظره، ويستفيد منها بحسب فكره واستعداده، فلا يجدوا على قوله مسلخا، ولا يصيبوا مقالا ولا مطعنا، لأن برقلس لما كان يقول بدهر هذا العالم، وأنه باق لا يدثر، وضع كتابا فى هذا المعنى، فطالعه من لم يعرف طريقته، ففهموا منه جسمانية قوله دون روحانيته، فنقضوه على مذهب الدهرية وفى هذا الكتاب يقول: «لما اتصلت العوالم بعضها ببعض، وحدثت القوى الواصلة فيها، وحدثت المركبات من العناصر، حدثت قشور، واستبطنت لبوب. فالقشور داثرة، واللبوب قائمة دائمة لا يجوز الفساد عليها، لأنها بسيطة وحيدة القوى. فانقسم العالم إلى عالمين: عالم الصفوة واللب، وعالم الكدورة والقشر. فاتصل بعضه ببعض، وكان آخر هذا العالم من بدء ذلك العالم. فمن وجه لم يكن بينهما فرق، فلم يكن هذا العالم داثراً، إذ كان متصلا بما ليس يدثر. ومن وجه: دثرت القشور، وزالت الكدرة. وكيف تكون القشور غير داثرة ولا مضمحلة؟ وما لم تزل القشور باقية كانت اللبوب خافية. وأيضاً فإن هذا العالم مركب، والعالم الأعلى بسيط، وكل مركب يضمحل حتى يرجع إلى البسيط الذى تركب منه. وكل بسيط باق دائماً غير مضمحل ولا متغير».

قال الذى يذب عن برقلس: هذا الذى نقل عنه هو المنقول عن مثله، بل الذى أضاف إليه هذا القول الأول لا يخلو من أحد أمرين: إما أنه لم يقف على مرامه للعلة

التى ذكرنا فيما سلف ، وإما لأنه كان محسوداً عند أهل زمانه ، لكونه بسيط الفكر ، واسع النظر ، ساير القوى . وكان أولئك أصحاب أوهام وخيالات . فإنه يقول فى موضع من كتابه « إن الأوائل منها تكونت العوالم ، وهى باقية لا تدثر ولا تضمحل ، وهى لازمة الدهر ، ماسكة له ، إلا أنها من أول واحد ، لا يوصف بصفة ، ولا يدرك بنعت ونطق ، لأن صور الأشياء كلها منه وتحته . وهى الغاية والمنتهى التى ليس فوقها جوهر هو أعظم منها إلا الأول الواحد ، وهو الأحد الذى قوته أخرجت هذه الأوائل ، وقدرته أبدعت هذه المبادئ » .

وقال أيضاً : إن الحق لا يحتاج إلى أن يعرف ذاته ؛ لأنه حق حقاً بلا حق . وكل حق حقاً فهو تحته ؛ إنما هو حق حقاً إذ حققه الموجب له الحق . فالحق هو الجوهر الممد للطباع الحياة والبقاء . وهو أفاد هذا العالم بداء وبقاء بعد دثور قشوره . وزكى البسيط الباطن من الدنس الذى كان فيه قد علق به . وقال : إن هذا العالم إذا اضمحلت قشوره وذهب دنسه ، وصار بسيطا روحا بقى بما فيه من الجواهر الصافية النورانية فى حد المراتب الروحانية ، مثل العوالم العلوية التى بلا نهاية ، وكان هذا واحداً منها . وبقى جوهر كل قشر ودنس وخبث ويكون له أهل يلبسه ، لأنه غير جائز أن تكون الأنفس الطاهرة التى لا تلبس الأدناس والقشور ، مع الأنفس الكثيرة القشور فى عالم واحد ، وإنما يذهب من هذا العالم ما ليس من جهة المتوسطات الروحانية ، وما كان القشر والدنس عليه أغلب . فأما ما كان من البارى تعالى بلا متوسط ، أو كان من متوسط بلا قشر ، فإنه لا يضمحل . قال : وإنما يدخل القشر على الشىء من غير المتوسطات فيدخل عليه بالعرض لا بالذات . وذلك إذا كثرت المتوسطات ، وبعد الشىء عن الإبداع الأول ، لأنه حيثما قلت المتوسطات فى الشىء كان أنور ، وأقل قشوراً ودنسا ، وكلما قلت القشور والدنس كانت الجواهر أصفى ، والأشياء أبقى .

ومما ينقل عن برقلس أنه قال . إن البارى تعالى عالم بالأشياء كلها : أجناسها ، وأنواعها ، وأشخاصها . وخالف بذلك أرسطوطاليس ، فإنه قال : يعلم أجناسها

وأنواعها دون أشخاصها الـكائنة الفاسدة ، فإن علمه يتعلق بالـكليات دون الجزئيات ، كما ذكرنا .

ومما ينقل عنه فى قدم العالم قوله : لن يتوهم حدوث العالم إلا بعد أن يتوهم أنه لم يكن ، فأبدعه البارى تعالى فى الحالة التى لم يكن . وفى الحالة التى لم يكن لا يخلو من حالات ثلاث :

١ — إما أن البارى لم يكن قادراً فصار قادراً ، وذلك محال لأنه قادر لم يزل .

٢ — وإما أنه لم يرد فأراد ، وذلك محال أيضاً لأنه مريد لم يزل .

٣ — وإما أنه لم تقتض الحـكمة وجوده ، وذلك محال أيضاً ، لأن الوجود أشرف من العدم على الإطلاق .

فإذا بطلت هذه الجهات الثلاث تشابها فى الصفة الخاصة ؛ وهى القدم على أصل المتـكلم . وكان القدم بالذات له دون غيره ، وإن كانا معاً فى الوجود . والله الموفق .

٧ — رأى ثامسطيوس

وهو الشارح لـكلام الحـكيم أرسطوطاليس ، وإنما يعتمد شرحه إذ كان أهدى القوم إلى إشاراته ورموزه . وهو على رأى أرسطوطاليس فى جميع ما ذكرنا من إثبات العلة الأولى . واختار من المذاهب فى المبادئ قول من قال : إن المبادئ ثلاثة : الصورة ، والهيولى ، والعدم . وفرق بين العدم المطلق ، والعدم الخاص ، فإن عدم صورة بعينها عن مادة تقبلها مثل عدم السيفية عن الحديد ليس كعدم السيفية عن الصوف ، فإن هذه المـادة لا تقبل هذه الصورة أصلا .

وقال : إن الأفلاك حصلت من العناصر الأربعة ، لا أن العناصر حصلت من أفلاك ففيها نارية ، وهوائية ، ومائية ، وأرضية . إلا أن الغالب على الأفلاك هو النارية ، كما أن

الغالب على المركبات السفلية هو الأرضية ، والكواكب نيران مشتعلة حصلت تراكيبها على وجه لا يتطرق إليها الانحلال ، لأنها لا تقبل الكون والفساد والتغير والاستحالة ، وإلا فالطبائع واحدة ، والفرق يرجع إلى ماذكرنا .

ونقل ثامسطيوس عن أرسطوطاليس ، وثاون ، وأفلاطون ، وثارفرسطيس ، وفرفوريوس ، وفلوطرخيس ، وهو رأيه : أن فى العالم أجمع طبيعة واحدة عامة ، وكل نوع من أنواع النبات والحيوان مختص بطبيعة خاصة ، وحدُّوا الطبيعة العامة بأنها مبدأ الحركات فى الأشياء والسكون فيها على الأمر الأول من ذواتها ، وهى علة الحركة فى المتحركات ، وعلة السكون فى الساكنات ، وزعموا أن الطبيعة هى التى تدبر الأشياء كلها فى العالم : حيوانه ونباته ومواته ، تدبيراً طبيعياً ، وليست هى حية ولا قادرة ولا مختارة ، ولكن لا تفعل إلا حكمة وصواباً ، وعلى نظم صحيح وترتيب محكم .

قال ثامسطيوس : قال أرسطوطاليس فى مقالة اللام « إن الطبيعة تفعل ما تفعل من الحكمة والصواب ، وإن لم تكن حيواناً ، لأنها ألهمت من سبب هو أكرم منها » وأومأ إلى أن السبب هو الله عزوجل . وقال أيضاً : إن الطبيعة طبيعتان ؛ طبيعة هى مستعلية على الكون والفساد بكليتها وجزئيتها ، يعنى الفلك والنيرات . وطبيعة يلحق جزئياتها الكون والفساد لا كلياتها ، يريد بالجزئيات الأشخاص ، وبالكليات الأسطقسات .

٨ — رأى الإسكندر الأفْرُودِيسى

وهو من كبار الحكماء رأياً وعلماً ، وكلامه أمتن ، ومقالته أرصن ، وافق أرسطوطاليس فى جميع آرائه ، وزاد عليه فى الاحتجاج على أن البارى تعالى عالم بالأشياء كلها كلياتها وجزئياتها على نسق واحد ، وهو عالم بما كان وبما سيكون ، ولا يتغير علمه بتغير المعلوم ، ولا يتكثر بتكثره .

ومما انفرد به أن قال : كل كوكب ذو نفس وطبع وحركة من جهة نفسه وطبعه ، ولا يقبل التحريك من غيره أصلا ، بل إنما يتحرك بطبعه واختياره ، إلا أن حركاته لا تختلف أبداً ، لأنها دورية .

وقال : لما كان الفلك محيطاً بما دونه ، وكان الزمان جارياً عليه ؛ لأن الزمان هو العادّ للحركات ، أو هو عدد الحركات ، ولما لم يكن يحيط بالفلك شيء آخر ، ولا كان الزمان جارياً عليه ، لم يجز أن يفسد الفلك ويكون . فلم يكن قابلا للكون والفساد ، ومالم يقبل الكون والفساد كان قديماً أزلياً .

وقال فى كتابه « فى النفس » : إن الصناعة تتقبل الطبيعة ، وإن الطبيعة لا تتقبل الصناعة .

وقال : للطبيعة لطف وقوة ، وإن أفعالها تفوق فى البراعة واللطف كل أعجوبة يتلطف فيها بصناعة من الصناعات .

وقال فى ذلك الكتاب : لافعل للنفس دون مشاركة البدن حتى التصور بالعقل فإنه مشترك بينهما ، وأومأ إلى أنه لايبقى للنفس بعد مفارقتها قوة أصلا حتى القوى العقلية . وخالف بذلك أستاذه أرسطوطاليس ، فإنه قال : الذى يبقى مع النفس من جميع مالها من القوى هى القوة العقلية فقط . ولذاتها فى ذلك العالم مقصورة على اللذات العقلية فقط، إذ لاقوة لها دون ذلك فتحس وتلتذ بها ، والمتأخرون يثبتون بقاءها على هيئات أخلاقية، استفادتها من مشاركة البدن ، لتستعد بها لقبول هيئات ملكية فى ذلك العالم .

٩ — رأى فُرْفُرْيُوسَ

وهو أيضاً على رأى أرسطوطاليس فى جميع ما ذهب إليه ، وهو الشارح لكلام أرسطوطاليس أيضاً ، وإنما يعتمد شرحه إذ كان أهدى القوم إلى إشاراته وجميع ما ذهب إليه .

ويدعى أن الذى يحكى عن أفلاطون من القول بحدوث العالم غير صحيح ، قال فى رسالته إلى أبانوا : وأما ما قذف به أفلاطون عندكم من أنه يضع للعالم ابتداء زمانياً فدعوى كاذبة ؛ وذلك أن أفلاطون ليس يرى أن للعالم ابتداء زمانياً ، لكن ابتداء على جهة العلة ، ويزعم أن علة كونه ابتداؤه .

وقد أرى أن المتوهم عليه فى قوله : إن العالم مخلوق ، وإنه حدث من لا شىء ، وأنه خرج من لانظام إلى نظام ، فقد أخطأ وغلط ، وذلك أنه لا يصح دائماً أن كل عدم أقدم من الوجود فيما علة وجود شىء آخر غيره ، ولا كل سوء نظام أقدم من النظام ، وإنما يعنى أفلاطون أن الخالق أظهر العالم من العدم إلى الوجود ، وإن وجد أنه لم يكن من ذاته ، لكن سبب وجوده من الخالق . قال : وقال فى الهيولى : إنها أمر قابل للصور وهى كبيرة وصغيرة . وهما فى الموضوع والحد واحد ، ولم يبين العدم كما ذكره أرسطوطاليس إلا أنه قال : الهيولى لا صورة لها ، فقد علم أن عدم الصورة فى الهيولى . وقال : إن المركبات كلها إنما تتكون بالصور على سبيل التغير ، وتفسد بخلو الصور عنها .

وزعم فرفريوس أن من الأصول الثلاثة التى هى الهيولى والصورة والعدم : أن كل جسم إما ساكن وإما متحرك . وههنا شىء يكون ما يتكون ، ويحرك الأجسام ، وكل ما كان واحداً بسيطاً ففعله واحد بسيط . وكل ما كان كثيراً مركباً فأفعاله كثيرة مركبة ، وكل موجود ففعله مثل طبيعته . ففعل الله بذاته فعل واحد بسيط ، وباقى أفعاله يفعلها بمتوسط مركب . قال : وكل ما كان موجوداً فله فعل من الأفعال مطابق لطبيعته ، ولما كان البارى تعالى موجوداً ففعله الخاص هو الاجتلاب إلى الوجود ، ففعل فعلا واحداً وحرك حركة واحدة ، وهو الاجتلاب إلى شبهه ، يعنى الوجود . ثم إما أن يقال : كان المفعول معدوماً يمكن أن يوجد ، وذلك هو طبيعة الهيولى بعينها ، فيجب أن يسبق الوجود طبيعة مّا قابلة للوجود . وإما أن يقال : لم يكن معدوماً يمكن أن يوجد بل أوجده عن لا شىء ، وأبدع وجوده ، من غير توهم شىء سبقه ، وهو ما يقوله الموحدون .

قال : فأول فعل فعله هو الجوهر ، إلا أن كونه جوهراً وقع بالحركة فوجب أن يكون بقاؤه جوهراً بالحركة ، وذلك أنه ليس للجوهر أن يكون بذاته بمنزلة الوجود الأول لـكن من التشبه بذلك الأول ، وكل حركة تـكون فإما أن تـكون على خط مستقيم وإما على الاستدارة ، فتحرك الجوهر بهاتين الحركتين . ولمـا كان وجود الجوهر بالحركة وجب أن يتحرك الجوهر فى جميع الجهات التى يمكن فيها الحركة ، فيتحرك جميع الجوهر فى جميع الجهات حركة مستقيمة على جميع الخطوط وهى ثلاثة : الطول ، والعرض ، والعمق ، إلا أنه لم يكن له أن يتحرك على هذه الخطوط بلا نهاية ، إذ ليس يمكن فيما هو بالفعل أن يكون بلا نهاية ، فتحرك الجوهر فى هذه الأقطار الثلاثة حركة متناهية على خطوط مستقيمة ، وصار بذلك جسما ، وبقى عليه أن يتحرك بالاستدارة على الجهة التى يمكن فيها أن يتحرك بأجمعه حركة على الاستدارة ، لأن الدائر يحتاج إلى شىء ساكن فى وسط منه . فعند ذلك انقسم الجوهر فتحرك بعضه على الاستدارة وسكن بعضه فى الوسط . قال : وكل جسم يتحرك فماسّ جسما ساكناً فى طبيعته قبول التأثير منه حركه معه ، وإذا حركه سخن ، وإذا سخن لطف وانحل وخف ، فـكانت النار تلى الفلك ، والجسم الذى يلى النار يبعد عن الفلك ويتحرك بحركة النار فتـكون حركته أقل ، فلا يتحرك لذلك بأجمعه لـكن جزء منه ، فيسخن دون سخونة النار ، وهو الهواء ، والجسم الذى يلى الهواء لا يتحرك لبعده عن المحرك ، فهو بارد لـكونه ، وحار حرارة يسيرة بمجاورته الهواء ، ولذلك انحل قليلا ، وهو المـاء وأما الجسم الذى يلى المـاء فى الوسط فلأنه بعد فى الغاية عن الفلك ، ولم يستفد من حركته شيئاً ، ولاقبل منه تأثيراً : سكن وبرد ، وهذه هى الأرض ، وإذا كانت هذه الأجسام تقبل التأثير بعضهامن بعض اختلطت ، وتولدعنها أجسام مركبة ، وهذه هى الأجسام المحسوسة .

وقال : الطبيعة تفعل بغير فـكر ولاعقل ولا إرادة ، ولـكنها ليست تفعل بالبخت والاتفاق والخبط ، بل لا تفعل إلا ماله نظم وترتيب وحكمة ، وقد تفعل شيئاً من أجل شىء ، كما تفعل البُرّ لغذاء الإنسان ، وتهيئ أعضاءه لمـا يصلح له .

وقد قسم فرفريوس مقالة أرسطوطاليس فى الطبيعة خمسة أقسام ، أحدها : العنصر. والثانى : الصورة . والثالث : المجتمع منها كالإنسان . والرابع : الحركة الجاذبة فى الشىء بمنزلة حركة النار الكائنة الموجودة فيها إلى فوق . والخامس : الطبيعة العامة للكل ، لأن الجزئيات لا يتحقق وجودها إلا عن كل يشملها . ثم اختلفوا فى مركزها : فمن الحكماء من صار إلى أنها فوق الكل . وقال آخرون : إنها دون الفلك ؛ قالوا : والدليل على وجودها أفعالها وقواها المنبثة فى العالم الموجبة للحركات والأفعال ؛ كذهاب النار والهواء إلى فوق ، وذهاب الماء والأرض إلى تحت ؛ فعلم يقيناً أنه لولا قوى فيها أوجبت تلك الحركات وكانت مبدأ لها لم توجد فيها . وكذلك ما يوجد فى النبات والحيوان من قوة الغذاء ، وقوة النمو والنشوء .

انتهى الجزء الثانى من كتاب

« الملل والنحل » ويليه الجزء الثالث

فهرس

الجزء الثانى — من كتاب الملل والنحل

الموضوع | صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع | صفحة

تم الفهـــرس